@ketab_n
Follow Me
9.2.2016

مايكل أونداتجي

رؤى الانقسام

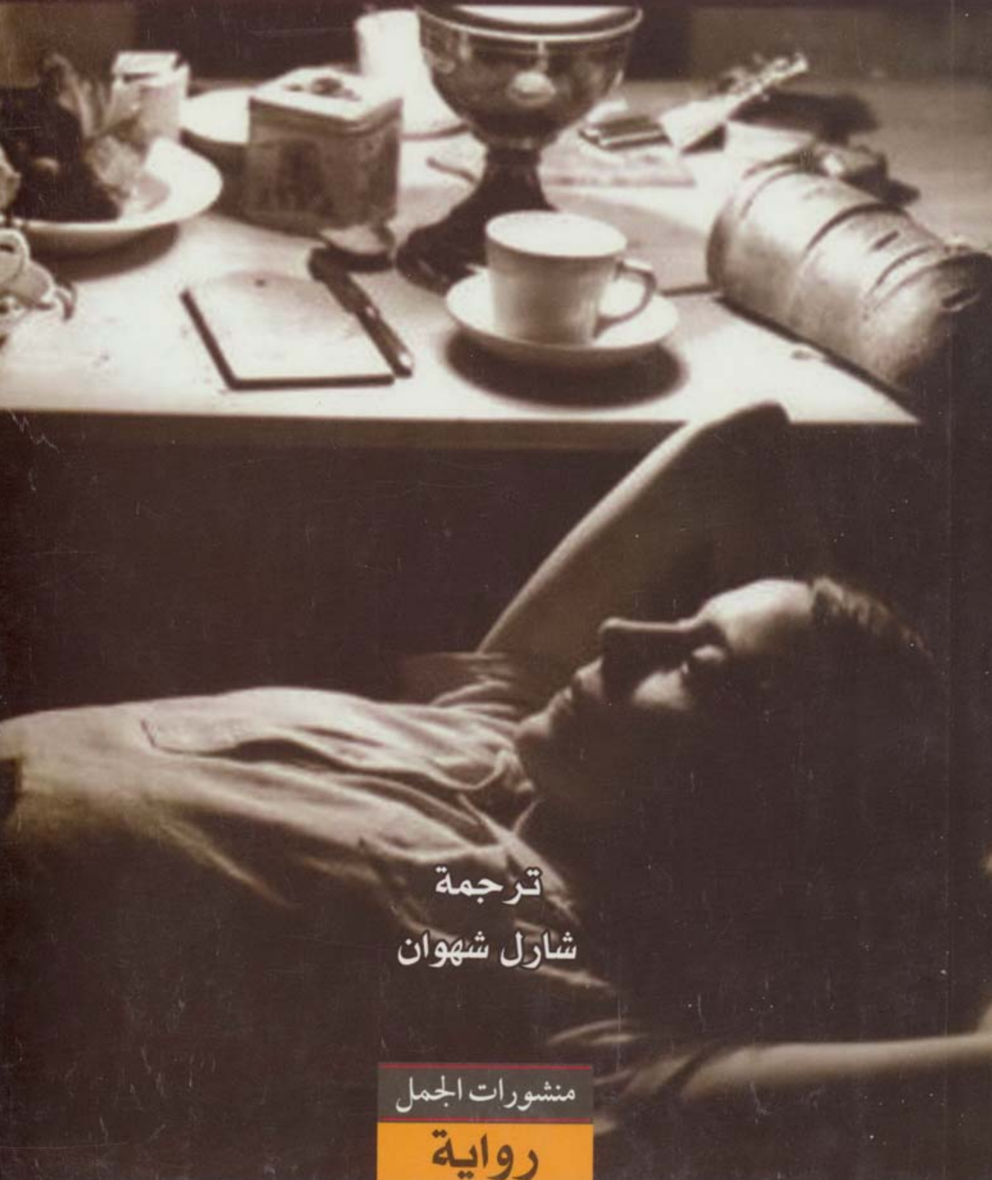

ترجمة
شارل شهوان

منشورات الجمل

رواية

مايكل أونداتجي

رؤى الانقسام

رواية

ترجمة

شارل شهوان

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

مايكل أونداتجي: رؤى الانقسام

Twitter: @ketab_n

ولد مايكل أونداتجي عام ١٩٤٣ في كولومبو/سيري لانكا. هاجر إلى إنكلترا عام ١٩٥٤، واستقر عام ١٩٦٢ في كندا. نشر العديد من الدواوين الشعرية والروايات، أشهرها روايته: **المريض الإنكليزي**، التي حازت على جائزة البوكر.

مايكل أونداتجي: رؤى الانقسام، رواية، ترجمة: شارل شهوان

الطبعة الأولى ٢٠١٣

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٣

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Michael Ondaatje: Divisadero, roman

© by Michael Ondaatje, 2007

© Al-Kamel Verlag 2013

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

إلى جون وبيفِرلي

وإلى ذكرى كريون كوريا المحبّبة

والمعروفة بإجيلي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عندما أرتمي بين ذراعيكَ، تسألني أحياناً في أيّ لحظة تاريخية أودّ أن أكون موجودة، فأقول باريس في الأسبوع الذي توفيت فيه كوليت... باريس الثالث من آب، ١٩٥٤. وفي خلال أيّام، أثناء مراسم دفنها، ستوضع آلاف الزّنابق بجانب قبرها. وأريد أن أكون هناك، أمشي في ذلك الشارع المليء بأشجار الزيزفون الرّطبة حتى أقف تحت شِقّتها الكائنة في الطبقة الثانية في منطقة "الباليه روايال". تاريخ أناس مثلها يملأ قلبي، فهي كانت كاتبة ترى أنّ فضيلتها الوحيدة هي الشّكّ بذاتها. (قبل يومين من موتها، قيل إنّ جان غانيت كان قد زارها ولم يسرق شيئاً. آه، يا للّص الرائع!).

يقول نيتشه "لدينا الفنّ، لا تدمّرنا الحقيقة". والحقيقة الخالصة لأيّ حدث لا تنتهي، كما الحال في قصة كوب ونطاق حياة أختي وهما لا ينتهيان بالنّسبة لي؟ فهما الإحتمال الفجائي كلّما رَفَعْت سمّاعة الهاتف، عندما يرنّ، بعد منتصف الليل. أنتظر صوت كوب، أو نفس كلير العميق قبل أن تعلن عن نفسها.

فلقد ارتَحَلَتْ نفسي عمّن كنت معهما، وعمّا كنتُ سابِقاً، عندما كنت أدْعى آنّا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأوّل

آنّا، كلير وكوب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اليتيم

بجانب كوخ جدِّنا، على مرتفع عالٍ، مواجه لمنحدر من أشجار الكستناء، تمتطي كلير حصانها، وقد لفّت نفسها بحرام ثخين. كانت قد خيّمت طوال الليل مُوْقِدةً النار في مدفأة ذلك البناء الصّغير الذي شيّدهُ جدُّنا منذ نحو جيل، ثم عاش فيه كناسك أو ما شابه وذلك عندما قَدِم إلى هذه البلاد. كان عازِباً مُكْتَفِياً، وانتهى به الأمر إلى امتلاك الأرض حواليه. وعندما أصبح في الأربعين تزوّج بفتور وحظيَ بصبيٍّ واحدٍ أوْرَثه تلك المزرعة على طريق "بِتلوما".

تتحرّك كلير بهدوء فوق المرتفع المطلّ على وادِيَيْن مليئين بضباب الصباح، وشاطئ المحيط إلى يسارها. وإلى يمينها الطريق إلى سكرامنتو ومدن الدِّلتا، كريّو، فِسْتا وسكّانها المتحدّرين من أيّام هجمة الذهب.

تُقنِعُ الحصان بالنزول عبر بياضٍ مُحاذٍ لأشجار كثيفة، فهي ما زالت تشتمّ رائحة دخان منذ عشرين دقيقة، وعلى أطراف غلين إلين، ترى حانة المدينة مشتعلة. لقد ضرب مضرم النيران المحلّي ضربته باكراً، متأكّداً أنّ الحانة خالية. تشاهدُ الحريق عن بعد من دون أن تنزل عن الحصان، واسمه تِريوريتال (المناطقي)، لأنه لن يدعها تمتطيه مجدّداً ذات النهار إلاّ نتيجة خدعة ما. فهما لا يثقان الواحد بالآخر كلّياً، رغم

Twitter: @ketab_n

أنّه حليفها الأقرب. وهي تستعمل كلّ الحيل اللاقانونية لكي تمنعه من التراجع أو الوثب.

فقد تحمل أكياساً بلاستيكية مليئة بالماء تفقشها على رقبته فيظن المسكين أنّ دمَه يسيل فيهدأ لدقائق. عندما تمتطي كلير حصانها، تفقد ضعفها أو عرجها وتصبح سيّدة الكون أو سنتوراً (ذلك الوحش الخرافي الذي نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل حصان). يوماً ما ستلتقي سنتوراً وتتزوّجه.

استغرق الحريق ساعة ليخمد. وحانة غلين إلين كانت دائماً مَرتعاً للمشاكل، وهذه اللحظة ترى كلير المشادّات تندلع في الشارع، ربّما للإحتفاء بهذا الحدث. تنسلّ وحصانها بعيداً عن الغابة الحمراء المنزلِقة والمؤلّفةِ من نبات الزعرور، فتأكل بعض ثمارها، ثم تمتطيه نزولاً نحو المدينة بمحاذاة النار، فترى النيران الأخيرة تتهاوى كقصفِ الرعد فتقود حصانها بعيداً عن هذا الصّوت.

في طريقها إلى المنزل تمرّ بالكروم ونفّاخات الحرارة القديمة قِدم الزمن والتي تبقي الهواء في حركة دائمة كي تمنع الكرمة من التجمّد. لعشر سنوات خلت، في صباها، كانت الأباريق الملطّخة تغلي كلّ الليل لتُبقي الهواء دافِئاً.

بداية، كل يوم، تقريباً،كنا معتادين على المجيء إلى المطبخ القائم كي نقطع بصمت، قطعا من الجبنة ونتناولها. كان والدي يشرب قدحاً من النبيذ الأحمر. ثم كنا نذهب إلى المزرعة، حيث كان كوب قد سبقنا إليها مُمَهِّداً الأرض الترابية وفاصِلاً عنها القش.

وحالاً كنا نبدأ بِحَلْب الأبقار مُلقين برؤوسنا على أجنابها. أقصِدُ

Twitter: @ketab_n

الوالد وابنتيه البالغتين الإثني عشر عاماً وكوب، الأجير الذي يكبرنا بسنوات قليلة. وكان الصّمت سائداً فلا يُسمع سوى صوت الأذلية والبوابات التي تُفتح.

ونادِراً ما تكلّم كوب في تلك الأيام، وإذا فعل فبصوت خفيض محدّثاً ذاته وكأن اللغة شيء غير مؤكد. بالأساس كان يحدّد ما يراه. ضوء المخزن والموقع الذي سيتسلّقُه في السياج، والدجاجة التي سيطوّقها ويأسرها ويحملها تحت إبطه. وكنا، كلير وأنا، نستمع إليه عندما نقدر، إذ كان كوب روحاً مكشوفةً في تلك الأيام. لقد أدركنا أن قلة كلامه لم تكن رغبة في الإنفصال بل اختبار في اختيار الكلمات. كان ماهراً في العالم المادي حيث كان يحمينا غَيْر أنّه كان تلميذنا في عالم اللغة.

في ذلك الوقت، كنّا، كأختين، تقريباً وعلى سجيّتنا، فقد ربّانا والدنا بمفرده وكان منشغلاً في العمل فلم يهتمّ بجُزئيّاتِنا. كان مكتفِياً بأن نقوم بأعمالنا، لكنّه يتحوّل عدائياً في حال جهل مكاننا.

ومنذ وفاة والدتنا قام كوب بعملية الإصغاء إلى شكوانا وقَلقِنا، معطِياً إيّانا فرصة التعبير عن ذاتنا. نظر الينا والدنا من خلال كوب، وكان يدرّبه كي يصبح مزارعاً ولا شيء غير ذلك. أمّا ما كان كوب يقرأه فهو الكتب المتعلّقة بمخيمات الذّهب ومناجمه في شمال شرق كاليفورنيا، كما قرأ القصص المتعلّقة بأولئك الذين ضحّوا بكل شيء في منحدر نهرٍ ما لكيتشفوا الثروة. لكن، في النصف الثاني من القرن العشرين، كان كوب قد تأخّر مئة عام، لكنه كان يعلم بأن هناك المزيد من محاصيل الذهب في الأنهر، وتحت العشب وعلى جبال الصنوبر.

Twitter: @ketab_n

وكان هناك كتاب لا يتعدّى النّبذة مع خلفيّة بيضاء كنت قد وجدته على رفٍّ في إحدى غرف المزرعة: مقابلات مع نساء كاليفورنيّات منذ الأيام الأولى وحتى الزّمن الراهن! وبما أنّ معظم هؤلاء النساء لم يستطِعْنَ الكتابة، فقد سافر اليهنّ مُؤَرِّشِفو جامعة بيركلي مع مسجّلات صوت لكي يلتقطوا حياتهنّ في أجواء الماضي.

تضمّن المصنّف تقارير تعود إلى اوائل القرن التاسع عشر وصولاً إلى الحاضر، من "نصّ دونّا بولاليا إلى نصّ ليديا منديز". وكانت ليديا ميناديز أمّنا. وفي هذا الكتاب اكتشفنا المرأة التي ماتت في الأسبوع نفسه الذي وُلِدْتُ فيه أنا وكلير.

ومن بيننا نحن الثلاثة، كان كوب هو الوحيد الذي كان على معرفة بها عندما كانت حيّة، بما انه كان يشتغل في المزرعة منذ كان صبيّاً. أما بالنسبة لي ولكلير فقد كانت شبحاً أو إشاعة نادراً ما ذكرها والدنا. كانت شخصاً تمّت معه مقابلة لبضعة مقاطع في هذا الكتيّب وظهرت فيه من خلال صورة سوداء وبيضاء باهتة.

تمتّع كل شخص في الكتاب بالتواضع وبِحِسّ أنّ التاريخ كان حولهم وليس فيهم.

"نشأنا في السهول الداخلية، شمال شرق لوس انجلوس حيث عمل والدي في مقالع الاسفلت. تزوّجتُ في الثامنة عشرة، رقصنا تلك الليلة الفوكيلاّ والغرولو، وقال زوجي إنّ عازفي الكمان والغيتار كانوا الأفضل في المنطقة. كما وُضِعت طاولة الطعام الخشبيّة بجانب الصخرة الكبيرة في المرعى. وكان والد زوجي قد نزل لثلاثين سنة خلت أرض سان فرنسيسكو وأخبِرْتُ أنه في نفس اليوم أخذَ السفينة

Twitter: @ketab_n

إلى "بيتالوما" حيث بنى هذا المنزل. وعندما قَدِمْتُ إلى هنا، كان هناك حوالي الألف دجاجة، لكنّ زوجي لم يُرِدْ إشغال آخرين في المزرعة فقمنا بتربيةِ الحيوانات اللّبونة وبزراعة الذّرة - بينما كانت الثعالب تقتل الدواجن فاستغْرقت حمايتها وقتاً. وعاشت في التلال حيوانات أخرى كالقطط البرّية والذّئاب الصغيرة وحيّات الجرس في غابات الصنوبر. وشاهدتُ مرّة سِنَوْراً بَرّياً. لكنّ لعنة الشيطان أتت من خلال الاشواك التي حاربناها وقطعناها. لكنّ جيراننا لم يعالجوا المشكلة بشكل جيّد فغزت بذور أشواكهم ممتلكاتنا.

وكان هناك رجل على طريق بِتالسوما يمتلك مائة نعجة. كان رجلاً جيّداً وكان يأتي أحيانا ليخيّم مع نعاجه في حقولنا. وكانت نعاجه صغيرة تأكل الأشواك وتهضم البذور بطريقة مناسبة، بينما لا تستطيع الأبقار ان تفعل ذلك، إذ إنها تأكل الأشواك من دون بذورها.

إذا كنتَ تكره الأشواك فإنك سوف تحب ذلك الرجل... وحدث عنفٌ رهيب في مزرعة مجاورة، إذ قتل عاملٌ أجيرٌ عائلة كوبر بعد أن أشبعها ضرباً بلوح خشبيّ.

في البداية، لم يعرف أحد من ارتكب هذا العمل الشنيع لكن ابنهما الوحيد والبالغ من العمر أربع سنوات كان قد اختبأ في الفراغ الكامن تحت أرضية البيت لعدّة أيام ثم خرج في النهاية ليُعلم الآخرين من ارتكب الجريمة. فأخذنا الصبيّ إلى منزلنا وأبقيناه ليعمل في المزرعة.

هذه هي كل الصورة التي لدينا عن أمّنا. أمّا كلّ ما كانت قد فكّرَت فيه أو أخذتهُ بعين الإعتبار فيبقى على مسافة بعيدة عَنّا. ما تكلّمَتْ عنه هو بمعظمه عن الأحداث التي اعترَضَتْها، وهكذا لدينا فقط عاطفتها

Twitter: @ketab_n

نحو ذاك المغّاز، وفرحها القصير بالرّقص، وتفاصيل الجريمة التي تعرّض لها أصحاب المزرعة المجاورة والتي أدّت إلى جلب كوب إلى بيتنا. لم نلمسْ في هذا التقرير شيئا عن ملذّاتها وذكائها وعاطفتها، وهي الأشياء التي قد تكون أرشدت والدنا إليها. لدينا فقط هاتان الصفحتان عن تلك الكاليفورنيّة التي تموت أثناء الولادة وهي في الثالثة والعشرين. وما ليس موجوداً في الكتاب الأبيض الصغير أيضاً هو العمل الغريب الذي أقْدَمَ عليه والدنا وسط الفوضى التي أحاطتْ موتها وذلك عندما تبنّى بطريقة غير رسميّة طفلة من المستشفى نفسه حيث وَلَدت زوجته، إذ تبنّى طفلة امرأة اخرى كانت للتوّ، توفّيتْ أيضاً، فجلب إلى منزله طفلتيْن وربّى الأخرى، التي أسماها كلير، تماماً كابنته. إذاً هناك ابنتان، آنا وكلير، مولودتان في الأسبوع نفسه، وافترض الناس أن كلتيهما ابنتاه. هذه كانت مبادرة والدنا التي وُلِدت من رحيل ليديا مِنْديز. لم يكن لدى الوالدة المتوفّاة أقارب بل كانت متروكة لوحدها، وهذا ربما هو السبب الذي جَعَلَهُ يُقدِم على ذلك العمل. تمّ ذلك في مستشفى ميداين في ضواحي مدينة سانتا روزا، ولِنَقُلها فظةً، هم مدينون له بزوجة أو بشيءٍ ما.

كان والدنا يغمُرُنا بين الفينة والأخرى تماماً كأيّ والد. وهذا يحصل فقط إذا استطعْتَ ملاقاته في ذلك الوقت الضائع بين التعب والنوم، عندما يكون جامحاً نحو ذاته. فكنتُ أنضمُّ إليه فوق الكنبة القديمة المقمّشة وأنام ككلب نحيل بين ذراعيه، أقلّدُهُ في حالة إعيائه الناتجة، ربما، عن الشمس القويّة أو عن تعبِ يوم عمل مُضْنٍ.

وكانت كلير أحياناً موجودة معنا على الكَنَبة إذا أرادتْ ألا تُتْرك

Twitter: @ketab_n

جانبا أو إذا ما هبّت عاصفة ما. أمّا أنا فكنت ببساطة أفضّل تغطية وجهي بقميصه المربّع التخطيط، متظاهرة بالنوم، وكأنّ تنشّقَ اللحم النّاضج هو بمثابة خطيئة وفخر في آن معاً، هو حقّ في أيّ حال. وإذا ما قمنا بهذا العمل أثناء النهار فهذا غير معقول لأنّ والدنا كان ليدفعنا جانباً. فهو لم يكن والداً عصرياً بل كان قد نشأ على قوانين ذكوريّة قليلة. وهو لم يعد له زوجة لتساومه على آرائه أو لترفع من قيمتها ومستواها. لذا كان علينا أن نستحوذ عليه في تلك الحالة الضبابيّة عندما كان يتخلّى عن سلطته على تلك الصّوفا المقمّشة، محاطاً بابنتيه، واحدة على كل ذراع. وكنت أرى الضّوء يترقرق في عينيه والرّجفة تحت جلده المُنهك أو كأنّه سُحِب بقوة من منتصف النهر إلى مكان آخر بواسطة حبل. وكنت حينها أنام، مُنحَدِرةً نحو تلك الطبقة أو الدّرجة الأقرب اليه. إنّه الوالد الذي يسمح لذاته أن يحميك كل الأيّام، على ما أظنّ.

منذ أكثر من قرن، في آب ١٨٤٩ نَصَبت مجموعة من الرّجال مخيّماً في وادٍ يقع على مسافة مئة ميل شمال بيتيالوفا. ولقد بنوا أكواخاً في مكان يدعى تلة بادجر حيث بدأوا بالبحث عن الذّهب. كانوا حوالي العشرين رجلاً يستخرجونه من الجداول، واقفين حتى الرّكب في الأنهار المجلّدة، وكانوا يستسلمون إلى عواصف الشتاء المستحوذة عليهم. ولكن في غضون ستة أشهر كُشِفَ عن الذّهب المغطّى بحجر الكوارتز في المكان الذي سُمِّيَ لاحقاً وادي العشب. وبُنِيَ بعد ذلك مئة فندق غير مُتْقن، وسُميّت المناجم بأسماء غريبة لتملأ الخرائط المتحدّدة باستمرار؛ أسماء كالزقاق الخادع والهذيان الرّاجف والرّعد الزّائف والمتعة الجهنّمية والمقبرة وجاط المستوحد وجهنم الغنيّ والإستزادة البائدة والشوكة الفضيّة والحصان المتدحرج وسلطانة. وتبعثر الرّجال

Twitter: @ketab_n

على الجبال بدون مؤونة فأصبحوا صيّادين بحكم الضرورة يقتلون الطيور والماشية والذّببة بمسدّساتهم وبنادقهم. ونشأت دكاكين اللّحامين، وبدأت القوارب تسافر في الدّاخل نحو أبعد نقطة إبحار تقع في نهر الرّيش. ووصلت الحضارة بتعدّد رؤوسها: مقامرون ومخاطرون في المياه وصائدون محترفون ومومسات وكاتبو المذكرات وشاربو القهوة وتجار الكحول وشعراء وحرّاس أبطال وعرائس عبر البريد ونساء عاشقات لفتيان مملكة الحظ ورجال كبار في السن يبتلعون الذهب ليخبّئوه في رحلة العودة إلى الشاطئ ورجال المناطيد وصوفيّون ولولا مونتيز ومغنيات الأوبرا الجيّدات والسّيّئات اللواتي شَقَقْنَ طريقهنّ عبر الأراضي بواسطة الفسق والفجور. وكان هناك رجال الديناميت الذين فجّروا المنحدرات والأرض تحت قدميْك. فلقد شُقّت الأقنية تحت مدينة أيُواهيل بطول سبعة عشر ميلاً. واحترقت كلّ من سونورا وويفرفيل وشاستا وكولومبيا ثم أعيد بناؤها وما لبثت ان احترقت وأعيد بناؤها مجدّداً. أمّا سكرامنتو فقد فاضت بالمياه.

وبعد مئة عام، زمن هَوَس كوب بالذّهب، كان ما زال هناك خمسة آلاف من عمّال مناجم الذهب المتفرّغين يعملون على طول ضفاف نهري اليوبا والروس. ونبشوا المدن القديمة على المرتفعات والمسمّاة بأسماء العشاق والكلاب وشخصيات الروايات ـ أسماء أضحت "حبّة زمنية" من الجوع والعطش لحياة جديدة. لكن ليس هناك مَن مزيد. ففي كل بقعة صغيرة على خريطة المنطقة، حصل شيء ما. فعلى ضفة نهر ما قتل الأخوان الواحد الآخر، لاختلافهما على وجهة السّفر، وفي تلك البقعة قويضت امرأة بموقع. وكأنّ أقصوصة كُتِبت بقلم بلزاك حول كلّ منحنى.

Twitter: @ketab_n

أما اليوم فيطوف المنقّبون في مجرى النّهر، مستعملين غوّاصات تعمل على الوقود لشفط ما تبقى في قعر النّهر. فلقد أخرجَ قرنٌ من الفيضان والعواصف الذّهب من مُستقرّاته التاريخيّة، وصوّلَهُ في مجرى الأنهار. وكان المنقّبون في ستراتهم المبتلّة يقتنصون الفرصَ في الجداول ويسبحون في ظلام ما تحت الماء حاملين مشاعل كبيرة للإنارة.

وكلّ ما يتعلّق بالذهب كان على نقيض مع حياة كوب في المزرعة. لا بدّ أنه كان ما يزال يشعر بأنّه أتى من اللامكان، رغم أنّنا لم نتكلم أبداً عن الرّعب المحيط بمقتل والديه. ولقد تمّ تلقينه عادات المزرعة وواجبات حياتها حتّى أنّه باستطاعته الذّهاب إلى كوخ جدّنا على المرتفع وعيناه مُغْلقتان، مدركاً من خلال صوت نسيم الأشجار أين هو تماماً. وفي أيّ اتجاه هو سائر، وكأنّه في بناءٍ آمن. ولقد تمّت تنقية أرضنا من الحجارة والصخور ونظّفت ألواح طاولة مطبخنا الخشبيّة تماماً كما تنظف الصفحة، ورُبطت ثم فُكّت مراراً أبواب سياجنا. لكنّ الذهب بقي نشوة وحظاً لكوب، ونظاماً غير منطقي وخرافةً تتعلّق بجريمة أو بهديّة مغلوطة أو بعلاقة حبّ. واستوقف كوب مرّةً سيارة وذهب فيها لمدّة ساعتين نحو الشمال الشرقيّ على طريق كولفاكس ـ أيواهيل لمراقبة الرجال ذوي الآلات الحادّة وهم يعملون في الجهة الشمالية من نهر الرّوس. وكان في السابعة عشرة من عمره عندما عمل بحماسة من أجل أجْر زهيد من المال أو حظٍّ في الحصول على علاوة وذلك عبر تشغيل خراطيم الإمتصاص الأناكونديّة. لكنه عاد إلى المنزل في نهاية الأسبوع منهك الظهر. وبقي صامتاً أمامنا حول المكان الذي كان فيه، رغم أنّنا نحن الفتاتين كنّا دائماً نستمع إليه بشغف. لكنّنا لاحظْنا أنّه، بفعل

Twitter: @ketab_n

المكان الذي كان فيه، قد تغيّر بعض الشيء، وكان جزءاً من شيءٍ خطير.

قفز كول عن المنصّة العائمة، ونربيش الأناكوندا بين ذراعيه، وغاص إلى قعر النهر. وبعد برهة دار المحرّك وانتفض جسده من جانب إلى جانب وهو يحاول تصويب النربيش الحيّ نحو أسفل الصخور علّه يلتقط الذهب العالق. وفي بعض الأحيان كان النربيش النفّاث يتفلّت من امتصاص الحَصْباء ويقفز حرّاً فوق الماء ونحو الهواء. وظلّ كوب يمتطيه حتى وقع على ظهره فوق سطح النهر الصلب، فغرق مجدّداً مع زجاج ومطّاط وحديد خوذة الغطاس الضاغطة على رقبته بينما يسيل خطّ رفيع من الهواء نحو فمه بطريقة غير احترافية وغير ثابتة وغير آمنة.

جلس كوب معنا في مطبخ المزرعة المظلم الصغير وحاول التكلّم عن كلّ هذا. لكنّه لم يستطع أن ينبث ببنت شفّة عن سخافة ما سمح لنفسه أن يتعرّض له، خطره. لذلك لم ندرك ما قد حصل له. أذكر أننا جلسنا هناك نغنّي: "أسبوع كوب الضّائع أسبوع كوب الضائع، أين ذَهَبَ. ومع من كان؟ ومن هي المرأة التي أرهقته هكذا؟"

كانت التلال المتدحرجة والملساء في مزرعتنا خضراء وسط الصيف والخريف. وكنا نقود السيارة عائدين شمالاً من نيكاسيو فنصعد قمّة التلال ثم ننجرف فجأة نحو اليمين على طريق المزرعة الضيّقة والمتسخة نزولاً لربع ميل حتى بلوغنا المخازن. وكانت السيّارة تخبط فوق مطبّات السرعة المصنوعة من مطاط إطارات الجرّار الزراعي والمغروزة في الأرض بواسطة المسامير. وعندما كبرنا، كلير وأنا، كنّا نعود من الحفلات في غلين ألين نصف نائمتين وقد امتلأت مثانتانا، فكنّا نلعن

Twitter: @ketab_n

وجود المطبّات. وفي الظلمة الكالحة، أسفل التلّة، كان علينا إيقاف السيّارة. فأقول حان دوري، ثم أنزل بفستاني القطني الجديد وبحذاءيّ الضيّقين لكي أُبعِدَ البغال الودودة والمستيقظة عن الطريق أسفل التلّة حتى نُكملَ طريقنا.

وكأختين كنا صورةً من بعضنا البعض ونتنافس فيما بيننا، أما كوب فكان مثالنا المشترك. وعندما أصبح في أواخر مراهقته اكتشفنا أنّ لديه حَيَوات أخرى، إذ كان يختفي في المدينة ويلِجُ صالات القمار والرقص، ثم يعود في الوقت المناسب كي يقلّ كلير إلى نيكاسيو لمتابعة دروس البيانو. وكانت هي تراقب يديه البنيّتين النّحيلتين وكيف كان يتعامل مع المِقبض وكيف كان يلتفّ حول المنعطفات، وكأنه يقود عبر الماء، ثم ينحرف عائداً إلى الطريق القويم في حركة واحدة. لقد أحبّت كلير الجهد الضئيل والسهل الذي يأخذه كوب في التعامل مع ما حوله. وبعد سنة من ذلك. أقلّها كوب من نيكاسيو وجلس في مقعد الرّاكب ورمى اليها المفاتيح وسحب الجريدة من حجرة القفّازات وبدأ القراءة، بينما أضحت كلير مذعورة وغير متأكدة من أيّ شيء وهي تقود السيارة التي أصبحت فجأة ضخمة. وشعرت أنها كانت تصرخ وهي تصعد الطريق المتعرّج إلى أعلاه ثم تنزلق منحدرة أسفل التلّة صوب المزرعة. وأثناء ذلك لم يكن يتطلع أبداً ولم ينبث بكلمة ولربّما لاحظ عرضاً بغلاً كاد أن يُصدم، وذلك من خلال المرآة الجانبية. ومنذ ذلك الوقت بدأت كلير تقود السيارة وحدها إلى دروس البيانو ذهاباً وإياباً؛ مفتقدةً كوب الذي بثقته المعهودة كان ينقل بالةً من الحشيش اليابس فوق مِنكبيْهِ سائراً بها إلى المخزن ومولِعاً سيكارته بيده الطليقة.

Twitter: @ketab_n

وفي بعض الأحيان كنتُ وكلير ننزل التلّة في السيارة وأضواؤها مطفأة فنقودها في ظلمة حالكة. وفي أحيان أخرى كنا نتسلّق شباك غرفة نومنا على طرف الطابق العلويّ لكي نستلقي على ظهرينا فوق الصخرة الكبيرة الشّبيهة بالطاولة والتي حافظت على دفئها منذ النّهار، فنتحدّث ونغنّي طوال الليل. وكنا نعدّ الثواني الفاصلة بين سرب وآخر من النّيازك المنزلقة في أفق السماوات. أمّا حين كان الرّعد يهزّ المنزل والإسطبل، فكنتُ أرى كلير في سريرها، خلال ومضات البرق القصيرة، تجلس مستقيمة ككلب صيد متوتّر وهي بالكاد تتنفّس، راسمة إشارة الصليب. وكانت تمرّ أيّام تختفي فيها كلير على حصانها بينما كنت أخفي نفسي في الكتاب. لكننا كنا ما زلنا نتشارك في كل شيء في حانة نيكاسيو وقاعة الدرويد وقاعة سينما سيباستياني في سونوما التي كانت شاشتها تشبه سطح خزانات بيتالوما، تتغيّر مع تحوّل الأضواء، كما كنّا نتشارك في حوالي المئة طائر ذات الأجنحة الحمراء التي كانت تقف على خطوط الهاتف وهي تزعق عالياً قبل هبوب العاصفة. وكنا نحب الوردة الارجوانية في شباط المدعوّة الشهاب.

كما كان هناك أغصان الصّفصاف التي قطعها، مرة، كوب ووضعها حول معصمي المكسور قبل أن ينقلني إلى المستشفى وكنت حينها في الرابعة عشرة. يقول لوسيان فرويد إنّ كلّ شيء هو سيرة حياة ما نفعله ولماذا وكيف نرسم كلباً، ومن ننجذب إليه، ولماذا لا نستطيع أن ننسى. كل شيء هو عمل فنّي تصويري لاحق، حتى علم الوراثة هو كذلك. فهناك الحضور المخفيّ للآخرين فينا، حتى الذين عرفناهم لفترة قصيرة. فنحن نحتويهم لبقيّة حياتنا، مع كلّ حدود نقطعها.

Twitter: @ketab_n

من كان كوب حقّاً؟ لم ندر أبداً كيف كان والداه، ولم ندر بالتأكيد ما كان يشعر به تجاه عائلتنا التي حضنته وقدّمت اليه حياة أخرى. لقد كان وريث الجريمة المعرّض للخطر. وكمراهق كان متردّداً. ولا يعطي اكثر ممّا يأخذ. وكان يخرج في الفجر من إحدى الحظائر كهرّة المخزن مُتمَطيّاً وكأنه كان نائماً لعدّة أيام، بينما في الواقع كان قد عاد منذ حوالي الثلاث ساعات من صالة القمار في سان فرنسيسكو، موقفاً السيارات في طريق العودة لمدة أربعين ميلاً في الظلمة. وكنت أتعجّب حينها كيف يمكن لشخص مثله أن يعيش في عالم المستقبل. وكنّا نراقبه وهو يتمتم مفكّراً بصوت عال عندما كان يفكك الجرّار الزراعيّ أو عندما كان يلحّم المشعاع المستخرج من سيارة مهجورة إلى سيارة بويك موديل الـ ٥٨. كل شيء كان عمليّة لصق فنيّة تصويريّة.

هناك ألبوم من الصّور التي التقطها والدنا لكلير ولي وهي تشكّل تطوراً ذا نسق زمني لنموّنا منذ وضعيّتنا الأولى اللاّمكترثة حتى نظراتنا المتوحّشة أو المتكبّرة حين أخذت معالم وجهينا الحقيقيّة تظهر. وكانت تلك الصّور تؤخذ دائماً بين عيدَي الميلاد ورأس السنة بحيث كنا نؤخذ إلى المراعي جنب النتوءات الصخريّة (حيث كانت قد دُفِنت والدتنا) فكانت الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود تلتقط بعد ظهر متأخّر من كانون الأوّل. وكان والدُنا يُصِرّ على ارتدائنا الملابس المتواضعة، لكن عندما بدأنا نكبر كانت كلير تصل مرتدية الجينز المشقّق وكنتُ أظهر كَتِفاً عارياً. فكان ذلك يتسبّب بجدال يدوم عشرين دقيقة. وكان والدنا لا يرى دعابة في ذلك. لكنّ الحلقة السنوية تلك كانت شيئاً يحتاجه، كطاولة مرتّبة بطريقة جيّدة كي تُظهر الماضي.

Twitter: @ketab_n

وكنّا ندرس نفسِيّتَنا في تلك الصّور المتطوّرة ممّا جعلنا نتنافس بسريّة. فتصبح إحدانا أكثر جمالاً أو انزواءً، وتضحي الأخرى أكثر وعياً لذاتها أو أكثر فوضويّة. لقد كشفتنا وخانتنا وضعيّاتنا. ففي إحدى السنوات، مثلاً، أحنت كلير وجهها لكي تخفي نَدْبَةً. وبالرّغم من أننا لا نفترق، فقد كنّا نسير في اتجاهين مختلفين، نخطو بكتمان نحو نسختيْ ذاتيْنا. ثم كانت هناك الصورة الأخيرة في السادسة عشرة من عُمْرَيْنا حيث حدّق وجهانا بعُريٍ إلى الخارج. وبعد حين أخرَجْتُ تلك الصورة عُنْوةً من الألبوم ومزّقْتُها.

تتذكر كلير أنها كانت تُصفّر عندما دخلت الاسطبل وانها كانت تحاول الامساك بلجام عندما سمعت دَلواً يُقلَبُ في مكانٍ ما وسط العتمة. ولا ينقلبُ الدّلو بمفرده في المربط، فإمّا أنّ أحداً كان موجوداً أو أنّ حصاناً ما قد أفلت حرّاً. فتقدّمَت بخطوات غير متوازية واللّجام في يدها لكنّها لم تنادِ أحداً. وصلت إلى زاوية الممرّ ونظرَت حواليها فوجَدتني مرميّةً على الأرض بلا حِراك وسط صمت الاسطبل المظلم. وما إن اقتربت مني حتى اندفع الحصان بقوّة من الظّلام الدّامس وارتطم بها رامياً إياها إلى الأرض.

هناك مسار مفقود في كلتا الذكريَيْنِ حول هذه الحادثة حتى الآن. فنحن ندرك فقط أنّ شيئاً ما مهمّا حصل. تتذكر كلير أنها كانت تصفّر عندما دخلت الاسطبل. أمّا لاحقاً، فقد حاولنا إعادة جمع الذكريات المبعثرة، فهي لا تتذكر سوى نقاط ملوّنة.

للحظة حدّقت بي كلير، بعد أن كان الحصان المهاجم قد سَبَقَ وألقاني أرضاً. والحصان ذاته خرج بعدها من الظلمة ليهاجمها، وهنا

Twitter: @ketab_n

تُغلَقُ حواسّها. ولربّما بَقيَتْ مثلي نصف واعية على الأرض الحجريّة وغير قادرة على الحركة، بينما كان كل شيء حولنا حيّاً وكابوسيّاً، فالحوافر كانت تهشّم الأرض. وشعرتُ أنني كنت أرى الشرّر واللهب يرمزان إلى الصّخب القائم. من المؤكد أن البهيمة قد جنت من الذعر من المكان الضيّق، لأنها كانت تركض ذهاباً وإياباً عبر الممرّ، متزحلقة ومنطلقة طول الاسطبل لترتدّ مرّة اخرى عن المخرج المُغلق وقد ضرب الجنون والرعب عينيها وقلبها. فهل كنا واعيتين أو غير واعيتين اثناء كل ذلك، أختي وأنا؟ أو كنّا في عالم الأرواح غير متأكّدتين من موتنا أو حياتنا؟

عندما فتحت كلير عينيها، كنت على ما يبدو جالسة من دون حركة على بعد ست أقدام منها وكنت أنظر اليها بكسل، إذ لم امتلك القوّة لأقف، وكنت غير متأكّدة ممّا قد حصل بالفعل. وكانت ألواح الخشب رُميت مبعثرة حولنا. ولم يأتِ أحد لمساعدتنا، فالوقت وقت عشاء وكنت أدرك ذلك من الضّوء الكامن خلف النوافذ المُغبرة.

وكان اسم حصان كلير المحبّب تيريتوريال (أي المناطقي). وكنت أراقبها بسبب، كما قلتُ لها لاحقاً، الدمّ الموجود على خدّها، رغم أنها قالت إن يديها فقط كانتا تؤلمانها. وكنّا حينها في الخامسة عشرة من عمرنا، عندما دخل كوب أخيراً إلى الحظيرة وقرفص بجانبي وقد دعاني كلير. لدرجة أن كلير ذاتها ارتبكت غير متأكدة للحظة من تكون هي. لكنّها كانت كلير، مع ندبةٍ صغيرة كممرّ دمعة جافة تحت عينها اليسرى، حيث كان قد نفر الدم.

لقد حصل شيء ما في الاسطبل في بداية تلك الامسية بيننا نحن

Twitter: @ketab_n

الاثنتين وسط هذه الفوضى. فلقد خطوْنا فجأة إلى عالم الكبار الوسيع وغير المؤكد، ووجب علينا الآن ان نكون آنا بوضوح وكلير بوضوح. فلم يعد جائزاً ان يُعرّف عن الواحدة منّا كأخت للأخرى، أو أسوأ من ذلك ـ أن تُظنّ الواحدة منّا خطأً أنّها الأخرى. ومنذ ذلك الوقت صرنا نحاول جلب كوب إلى لفيفنا. وفي الأشهر التي تلت لطالما عدنا إلى هذا الحادث لنتحدّث عنه. فلقد أصبح بيننا الآن حدودٌ. كنّا نفتقدها في مجموعة الصّور التي كانت تبقينا متأبّطتين ذراعي بعضنا. أظنّ أنّ الألبوم ما زال مع كلير فوق أحد رفوف كتبها. وإذا ما دَرَسَتْهُ فإنّها سوف تحلّل بوضوح كيف كنّا، نحن الإثنتين، نتطوّر بعيداً عن بعضنا البعض. وفي السنة التي قصّت فيها كلير معظم شعرها وأصبحت بعيدة إثر نموّها، حَملقتُ أنا، في السنةِ نفسها، بعينين طليقتين وكلّ شيء صار فيّ سرّاً.

لماذا لم يكن كوب أبداً في صور والدي الفوتوغرافية؟ كان هناك القليل من الصور المأخوذة له، لكنّها كانت تبدو مشغولة بالتركيب والضوء، كما كان هناك بعض الملامح التجريديّة لكوب من شباكٍ ما، ولشبحه أو طيفه على الزجاج أو على جنب حيوان ما. كم من شيء تستطيع رمي طيفك أو صورتك عليه؟

على أي حال. لقد كان كوب هو الذي وجدنا تلك الأمسية في الاسطبل وخلط بين هويّتينا. وكان هو بالنتيجة الذي أتى ناحيتي ورفعني بين ذراعيه قائلاً كلير، يا إلهي، كلير: وظننتُ حينها أنني لم أكن آنا وأن آنا هي تلك القابعة هناك.

إنتقل كوب للعيش في كوخ الجدّ، ومن هناك، من المرتفعات، كان يرقب شجر السنديان والبلّوط الأسود حيث كان يظهر على صلب

Twitter: @ketab_n

الأغصان ضباب متجمّد لمدّة ساعة تقريباً كل صباح. وكان كوب حينها في التاسعة عشرة وفي عزلة مُراده. كما كان يعمل على إعادة بناء الكوخ بمفرده. آخذا حمّاماً بارداً في بركة التلّة. وفي الأمسيات كان يتسلّل قرب بيت المزرعة لينتهي به الأمر في نيكاسيو أو غلين ألين ليستمع إلى الموسيقى. وفي بعض الأحيان كان يأكل مع الآخرين لينهض بعدها فجأة عن الطاولة، والخبز ما زال بين يديه، ويرحل إلى جهة غير معلومة. وأدركت الأختان أن أيّامهما مع كوب قد أضحت محدودة. برغم كونه مهذباً فقد كان متمرّداً وبعيداً معظم الليالي. وعند العودة كان يوقف السيارة في أعلى التلة لينحدر كي لا يسمعه الآخرون، ثم يمشي مع طيفه لمدّة نصف ميل نحو كوخه.

وإذا أصرّت البنتان على سماع الموسيقى فإنه كان يصحبهما إلى المدينة. وفي مراقص نيكاسيو كانت الفتاتان ترتديان فساتين سان رافايل، مثمّنتين الرجال من الحانة وكأن كوب الجالس بجانبهما ينتمي إلى نوع حياتي آخر. أما هو فكان يبقي نفسه بعيداً، ضاحكاً في سرّه، وصامتاً في معظم الأحيان. وسألت الفتاتان نفسيهما من كان كوب حقاً؟ ومرّةً قرّرتا الذهاب إلى رانشو نيكاسيو ساعة بعد ذهابه هناك. فوجدتاه فوق أرض المرقص الصغير، عالقاً في فوضاه، وكانت النساء يدرن حوله ليقعن بين ذراعيه السمراوين. ورغم كونه راقصاً سيئاً، فإن الفتيات كنّ يدفنّ وجوههنّ في رقبته بينما كانت نعالهنّ الجميلة تتلاصق مع جزمته المتسخة بروث البقر. "حسنا، إنه راعي بقر"، إدّعت آنا. وإذ لم تريدا أن ينكسر السحر انسحبتا قبل ان يكتشف وجودهما بين الجمهور.

وعندما كبر أصبح المفاوض العاطفيّ والمترجم بينهما وبين

Twitter: @ketab_n

والدهما، لاعباً الدّور المعتدل الذي تقوم به الأمّ عادة. فلم يتناسب ذلك مع طبعه، وربما كانت رغبته في الهروب من كلّ هذا هي التي دفعته إلى المكوث في كوخ الجذّ. ولإعادة بنائه كان بحاجة للمال، فكسبه بالأعمال الإضافية. فكان عمله الأول في المزرعة، كصبيّ، ومساعدة الوالد في بناء برج للماء يقف الآن وكأنه مرقاب فوق الحقول. لقد ارتفع البناء الرّمادي ببطء فوق هياكل دعاماته، وحتى قبل الانتهاء منه، كان كوب يسترخي فوق سقفه المنحدر ليراقب التلال المجاورة وكأنها المعبر نحو الخارج. والآن بعد مرور عشر سنوات حدث تسرّب في مكانٍ ما داخل البرج المظلم.

وفي اللحظة التي فتح فيها كوب باب السقف ونظر إلى أسفل انتابه الهلع. مرّ في باله امكانية وجود حيّة أو جثّة في ذاك الماء اللامرئي. وقف لحظة أخيرة في ضوء الشمس، ثم سحب إلى الأعلى السلّم الذي استعمله للوصول إلى طرف السطح ليُنْزِلَهُ بعد ذلك في الماء. خلع ثيابه وعلق شاكوشاً خفيفاً في الحزام الملتفّ حول خصره. وغطس في خزّان المياه. وكانت هناك رباطات مطاطيةً ضيّقة حول معصمه، علّق فيها قطعا من خشب الصنوبر الأحمر شبيهة بأقلام رصاص كان قد جلبها من منشرة أبدون في بيتالوما. وهناك أخبره الرجال الكبار مع لفافات من الخشب المنشور حول أذرعهم (وذلك بعد ان طلب ان يتكلّم مع السيد أبدون) أنّ المذكور هو قديس شفيع لصانعي البراميل. وكان كوب يفترض أنه اذا وجد تسرّباً فهو يستطيع أن يسدّها بخوابير ناشفة من خارج البرج المائي. لكن هؤلاء الرجال الذين بنوا وأصلحوا براميل الخمر اقترحوا قضباناً حادةً من خشب الصنوبر أو الأرز شريطة أن يدفعها في الثقوب من الداخل لأنها إن كانت رطبة فستنتفخ بالنتيجة.

Twitter: @ketab_n

قالوا ان الخشب الأحمر يدوم لمئات من السنين حتى لو كان في قعر النهر.

أفلت السلّم وسبح في الظلمة حتى بلغ الحائط. لا تسرّب تحت الماء أو فوقه، حيث يكون الخشب جافاً، بل في مكان ما على خط الالتقاء بينهما. يهترئ الخشب على الحدود حيث يكمن الضعف. مشى في الماء بينما لامست أنامله الأطراف المنزلقة. عليه ان يستشعر التسرّب اذ لا يمكن تحديده بالنظر. قد يستغرق ذلك ساعات أو أياماً وسط البرد المُخدّر وفي الخزان المغلَق في وجه الرّيح. وعندما لامست أصابعه أوائل ما قطع من الخشب لسنين خلت، لم يطب له ذلك. فهذا نذير بالمصير. كم من المرّات في حياته وحياة هذه العائلة أن يصلحوا الخزان؟ لقد بنوا سجناً لأنفسهم.

صعد وهو يرتجف ولبس بنطاله وقميصه ووقف في نعمة الشمس. رأى آنا وكلير تلوّحان له من شباك الطبقة الثانية في منزل المزرعة. ثم نزل ثانية بعد أن شعر بالدفء.

إنّنا نكاد ألا نكون شيئاً. نظن في شبابنا أنّنا مركز الكون، لكننا ببساطة نتجاوب فنذهب في هذا الاتجاه أو ذاك بالصدفة، ونحيا أو نتحسّن بضربة حظ وبقليل من الاختيار أو التصميم. وفي سنوات لاحقة، اذا ما قدّر لكوب أن ينظر إلى الماضي فلربما حاول أن يستشرف أو يعيد تكوين ملامحه أو ملامح شخصيتي كلير وآنا. لكنّه عندما ردّ التحية لهما، حيث كان واقفاً في شمس بعد الظهيرة، لم يستطع تمييز الواحدة من الأخرى. واحدة بقميص أصفر واخرى بقميص أخضر، لكنه لم يستطع معرفة لابسة اللون.

Twitter: @ketab_n

وعندما غطس مجدّداً في ظلمة مياه الخزان، علقت في ذهنه صورة الفتاتين وقد حجبت أغصان الشجر جزئياً هويّتيهما وحركة ذراعيهما.

ومرة اخرى حين سبح في الماء لامست اصابعه الخشب بحثاً عن دليل على التسرّب، ولو كان تشققاً صغيراً. بيْد أنّ كوب كان يفضّل المعدن ورائحته، والزيت في علبة ذراع تدوير الآلة، والصّدأ في السلسلة وكل تنويعات وتقلّبات الحياة المعدنية. فإعادة إحياء سيارة يحمل في طيّاتها احتمال بداية حياة جديدة، بينما تقبع هذه العائلة في المزرعة وبالكاد تغادرها. مرة واحدة خاطر الوالد عبر الحدود نحو نيفادا، وما زال يتكلم عن ذلك كأنه عمل طائش وغير ضروري وربما خطر. في حين أن كوب كان يحب المغامرة ولا تهمه الأخطار. فهو كان قد سبق وحضنه جارٌ، في هذه اللّفافة، توفّيت زوجته بعد ذلك بقليل أثناء الولادة. فكوب اذاً يدرك أن الأشياء معلّقة بقبضة الصّدف.

وكان قد غطّى معظم استدارة الخزان قبل أن يكتشف التسرّب، فأطلق عندها ضحكة مسرحية مزيّفة وتلذّذ بصداها، ثمّ وقف في المياه كما كان يرى الضفادع تفعل على ضفاف النّهر عندما كانت تضطجع. أدخل عبوة من الخشب الأحمر وطرقها عبر الماء. وجد ثقباً آخر قرب الأوّل وملأه أيضاً، وبعدها سبح نحو السلّم. وفي الأعلى على سطح الخزّان أحسّ أنّ الشمس نفسها لم تدفئه، فذهب نحو منزل المزرعة ونزع ثيابه ثم لفّ نفسه بحرام وخرج مجدّداً.

عندما أنهى كوب بناء الكوخ أدخل فيه شباكاً ضخماً يسمح له بالإطلال على الأشجار. ثم بدأ العمل على السّطح فكان يسمع صدى مطرقته يدوّي في أسفل الوادي كلّ صباح عند السابعة. وكان قد أصرّ

Twitter: @ketab_n

على العمل بمفرده، أمّا الكائن الحيّ الذي رافقه طوال أشهر البناء فكان الهرّ ألتراس، والذي كان يحوم في كل مكان دون أن يستقرّ أبداً في مرمى نظر أحدهم. بين الفترة والأخرى كان الهرّ يتمشّى جدّياً على الدّرب التي مهّدها الإنسان فوق التلّة، لكن هذه كانت خطواته الوحيدة في عالمهم. ورغم ذلك كلما نظر كوب أثناء الاستراحة من عمله في النجارة كان يرى الهرّ يراقبه، نصف مخفيّ خلف أعلى التلّة. وكان الهرّ حينها يحني رأسه ويختفي من الوجود. لم يرَ أحدهم الهر ينام، كما لم يعرف أحدهم كيف كان يقتات، لكن عندما ضربت العاصفة القوية المنطقة في الشتاء التالي لم يظنّ أحد انّ الهرّ قد قضى.

إستعمل كوب ألواحاً مموّجة من الحديد المجعّد على الحائط الخارجي، محتفظاً بالخشب للسّقف الأخير. وكان قد صبّ كتلاً من الاسمنت سمحت للسّقف أن يمتدّ إلى العراء عشر خطوات فوق منحدر الأرض. أخذ وقته مسمّراً ألواح الخشب بمطرقته، ومسلّياً نفسه بمرور صقر أو ظلّه أو بعبور الضباب كنهر متجلّد عبر منحدر الأشجار. أحسّ نفسه متآلفاً في معدته رغم أنّ ما حدث لاحقاً قد يكون نتيجة عدم رؤيته أحداً لمدة أسابيع. بداخله جوع نحو شيءٍ بسيط كالمشاركة في ضحكة أو لمسة.

هل ما حدث هو خطيئة أم فعلٌ طبيعيّ؟ يعيش المرء في بوتقة عائلة مدة كافية فيتعلّق بما يراه كصبي أو فتاة. هذا ما قد يقوله المنطق لشرح ما حصل على تلك السقيفة وسط الصمت الذي تلا الطّرق بالشاكوش. إنّه الصمت الذي يفترض عدم وجود حياة أخرى.

لم يقم أيّ منهما بخطوة يسبق فيها الآخر. بدا الأمر وكأن خفقة

Twitter: @ketab_n

قلب واحدة كانت تعمل. آنا ـ تلك التي كانت تقفز كصبيّ أو ككلب، تلك التي كسرت معصمها الذي جبّره كوب بواسطة الصفصاف قبل أن يأخذها إلى طبيب جرّاح في بيتالوما، تلك التي تحدّت أختها أن تمشي عبر الطريق السريع قرب الخزان وهي معصومة العينين (سأدفع لك يا كلير)، وعندما لم تقم كلير بذلك، قامت به هي نفسها؛ تلك التي كانت تقرأ باستمرار وانتباه وكانت دائماً عابسة وكأنها تحدّق في ذبابة على طرف أنفها ـ آنا تلك بدأت السّير ذات يوم صعوداً نحو المرتفع الشرقي متوجّهة إلى كوخه في ضوء الشمس عبر الدرب المتعرّج الذي كانت تسلكه الأبقار، والهرّ ألتراس أحياناً. مرّت قرب الشجرة التي يتدلى كيس المبيدات من أغصانها السفلى والتي تتجمّع تحتها الماشية هرباً من حشود الذباب والبعوض، ثمّ مشت عبر الحظيرة الدائريّة. وفكّرت أنه من المؤكّد أن كوب قد أنهى غداءه للتوّ. كانت الساعة الثانية تقريباً. أغلقت البوابة الثانية للحظيرة وبينما كانت تسحب السلسلة حول العمود وتطبقها، بدأ المطر يتساقط فجأة بغزارة، فانفضح كلّ ما كانت ترتديه. أطبق كلّ شيء وأظلمَ بثقلِهِ. دقائق بعدها، توقّف المطر.

وكان كوب يجلس، غير مدرك للمطر الوجيز، على حافة السّطح محدّقاً في آلاف الأشجار على التلّة المواجهة. لم يسمع أي صرير عندما كانت آنا تعبر الغابة الجديدة، فلقد ضربت الريح السّطح. التفت فوجدها تخطو أمام نظره. حوّل ضوء المطر وجهه إلى ظلّ.

وبدأَتْ: أنت مبتلّ.

حقاً؟

صوته العادي لا يقول شيئاً آخر، بل يهجرها.

Twitter: @ketab_n

يستغرق الطائر خمس دقائق كي يسبح عبر الهواء عائداً إلى بيت المزرعة، هكذا فكّرتْ. لكنه لن يطير بالطبع بطريقة مستقيمة، بل سينحرف ويدور ويراوغ متأثراً بتضاريس الأرض، بينما استغرقتْ هي خمساً وعشرين دقيقة في المسير إلى هناك. أمّا السيارة فأربع ساعات والحصان غير المسرع فعشراً. أما الآن فيبدو منزل المزرعة كمدينة يستغرق المرء أياماً ليسافر نحوها. وعندما أعادت النظر في تلك المسافة، أحسّت أن هناك مئات الوديان من الضباب والسفر الليلي يحميهما من الآخرين.

هلاّ تشعل النار يا كوب؟

إنه مطر دافئ، قالها بهدوء لنفسه، ثم قالها بصوت أعلى.

لكنْ أشعل لي النار؛ إنّ ثيابي مبتلّة.

حسناً، سأفعل هذا.

نزع عنها قميص القطن وكأنها عشب البحر فدُهش ليراها تُنْزَعُ قطعة واحدة. نظرت إلى اسفل فاحمرّ وجهها لرؤية بياضها في الضوء الرمادي. وبقع المطر بادية على جسدها الصّغير. وقالت: حان دوري.

ساد الصمت، إلا من صوت الماء النازل من المزارب على سلسلة. كلّ ما عدا ذلك بدا هادئاً. الغيوم، والتلال المؤقتّة اللامرئية. رأت نفسها وكوب في توقف المطر هذا، والشمس صاعدة. إنه عرس الثعلب، حسب تعبير والدها.

وفي ذكرياتها لاحقاً، في ما لم تنتبه في ذاك النهار، أحسّت أنها كانت موجودة في كل مكان. مع كلير قرب الموقد في بيت المزرعة تقول: آه، لقد عَلِقْتُ في المطر. وتهبّ كلير لمساعدتها بأن تَنْزَعَ عنها

Twitter: @ketab_n

ثيابها (مجدداً!). "لا، كل شيء تمام، سأفعل ذلك بنفسي؛ أو عندما كانت تحتمي تحت الاشجار الملتفة الخضراء عبر سيل المياه، وهي تراقب جسديهما الهشّين واللامحميّين فوق السّطح. آنا وكوب، والشمس تصعد بعد العاصفة المطريّة القصيرة حتى وكأن هناك ظلالاً حقيقية فوقها عندما كانت أصابعه تتحرك ذهاباً وإياباً فوق بطنها وكأنه كان يتتبّعها في مجرى النهر بلا وعي أو بوعي كامل. وراقبت ذراعه الدّاكنة وشعره البرّي وسط هذا الضوء. أدارت رأسها فرأت السيكارة الرطبة الملفوفة يدويّاً، والتي وضعها على حافة السطح، ما زالت تحترق. أحسّت أن من كان بجانبها، أو فوقها، لم يَعُد كوب. وكانت يداه تسمّران كتفيه بشدّة على الخشب فحاولت نفضه عنها. فقال أخيراً "آنا" ، وكانت تلك الكلمة التي خرجت عارية من حَلْقِهِ، بمثابة اعتراف. ثم أفلتت كفّاه القبضة التي تثبّتها على السّطح. وأضحى صدره الآن فوق صدرها حتى أنها لم تعد تراه باستثناء شعره فوق عينيها ووجهها، وسط ذاك الضوء المتغيّر.

وبعدئذ استلقيا على جنبيهما وجهاً لوجه. "إنه عرس الثعلب، قال العبارة المعتادة التي كان قد سمعها في منزلهم. لكنّ هذا التعبير أحرجها، فهي لا تريد أيّ دليل على رابط مألوف بينهما. ما تريده هو اللاّكلام. وكأنهما إذا لم يقولا شيئاً، فكل هذه الجسدانية لن تعود موجودة، ولن يكون هناك دليل ملموس في أي مكان.

وفي بعض الأيام كانت تأتي إلى الكوخ لتراقبه يعمل. وكانت تعرض عليه أن تُمَسْمِرَ الألواح معه، لكنه لم يرد ذلك. وفي أحيانٍ اخرى كانت تجلب معها كتاباً من المكتبة لتقرأه في ظل طرف السطح

Twitter: @ketab_n

المتجعّد وذلك حتى يختفي صوت النشر والطّرق إذ تنتقِلُ هي إلى دولة أخرى كإيطاليا في الفهد أو كفرنسا مع الفرسان. وكانت تمرّ أيام لا يتلامسان فيها حيث يتكلمان كي يكونا بعيدين عن الرّغبة، وفي أيام أخرى كانت تجلب كتابها من دون أن تقرأ أو تتكلّم.

في ذلك الكوخ المُتفرّد والخالي من اللون، وذات مرة بعد الظهر، جَلَبَت معها فونوغرافاً قديماً كانت قد وجدته في منزل المزرعة مع بعض الألبومات. أدارا الآلة وكأنها سيارة فورد موديل T ثم رقصا على نغم "إبدئي أيتها المبتدئة" وأعاداها ثانية ورقصا عليها. حملتهما الموسيقى إلى زمن آخر بعيداً عن العائلة والمكان.

كانت آنا تجلس على السّقيفة، غامرةً قميصه الأسود إلى معدتها وهي تراقبه. إنحنت وفتحت شنطتها الصغيرة وفكّت مجموعة من الأعلام البوذيّة كانت قد اشترتها عبر كاتالوغ بواسطة طلب بريديّ. لبست قميصه ونظرت إلى دعّامات النتوّات قرب الباب. هل باستطاعتك مساعدتي يا كوب؟ أريد ان اصعد إلى هناك كي نشبك هذه إلى الطرف المتدلّي فوق الباب! وكانت أصلاً ممسكةً بشاكوشه وبمسمار في يدها. قرْفص كي تستطيع الجلوس على كتفيه. فغنّت "حان وقت القلب والعقل فأنت محتاج أن تباركك الرّيح"! استطاع أن يستشعر رطوبتها على ظهر رقبته بينما كانت تعلّق طرف شريطة الأعلام، فحلّقت الأخيرة بحريّة بعيدة عن الأرض.

وشرحت له: هناك خمسة أعلام. الأصفر هو الأرض والأخضر هو الماء والأحمر هو النار ـ وهو ما يجب تجنّبه ـ والأبيض هو الغيم

Twitter: @ketab_n

والأزرق هو السّماء أو الفضاء اللامحدود أو العقل. لا أعلم ماذا أفعل يا كوب. كانت على كتفيْه معلّقة في الهواء وهي تنظر إلى الفضاء.

هل تظنين أن كلير تعلم؟

تحدّثني كلير كلّ مساء فلا أقول كلمة عنكَ ولا بُدّ أنّها متعجّبة أني لا أقول شيئاً عنك.

إذن فكلير تعلم!

مرّات بعد الظهر، كانت تتكلّم معه بفرنسيّة فتاة مدرسة مُجِدّة ـ وكأنها لم تكبر معه تقريباً كأخت. أو قد تبتعد عن رغبته لتقرأ له وصفاً لمدينة. وأحياناً أخرى تتغلغل بين كتفيْهِ السمراوين، وبعد ممارسة الحب كانت لتنفجر بالبكاء. في أحيان معينة كانت بحاجةٍ لهذا الصبيّ أو الرجل (ليكن ما يكون) كي تبكي أيضاً وأيضاً وكي تظهر له أنه يفهم غاية ما كان يحدث بينهما. وعندما كان داخلها، على وشك أن يقذف، وهو ينظر إلى أسفل نحوها، كان وجهه الشلبي يبدو ممزّق الأوصال، لكنّه كان يبقى بلا كلام. فذاك كان أسهل له. ولم يرافقها عائدة إلى بيت المزرعة كل مساء، حيث كانت تتناول العشاء مع والدها وأختها ثم يلعبون بأوراق اللعب حيث كانت تنظر فجأة إلى أعلى لترى كلير محدّقة بها ومحاولة أن تكسر خصوصيّتها. كانت ألعاباً طويلة ومجنونة وعقيمة من الحظّ والعدّ وتجميع الأرباح والخسائر. وكان والدها يسجّل الأرباح بهَوَس. (بجانب ذلك، كان كوب، الوحيد بينهم، جيّداً في لعب الورق. وتذكّرت آنا ألعاباً في الماضي كان يجلس فيها كوب ضاحكاً من عجزهما). والأسوأ من ذلك انه كان عليها ان تنام في ذات السرير قرب كلير في صمت متبادل.

Twitter: @ketab_n

إذن فكلير تعلم!

هل أحبّ كوب أحداً آخر؟ هل أحببْتَ أحداً آخر؟ سألته. كان خجِلاً في البداية، لكنّه قال: "أحبَبْتُ امرأةً في تولار". أخبرني عنها: "لا". أخبرني: "لا". ماذا؟ وهل أنا مثلها؟ "كانت ليلة واحدة فقط نمت فيها معها". آه، حسناً، لقد نمْتَ بالفعل. قبّلته على وجهه المشوّش ثم ارتدتْ ملابسها ومشتْ أسفل التلّة وحدها، وفي منتصف الطريق إلى المنزل أوشكت أن تبكي، لكنّها أبتْ ذلك. حاوَلَتْ أن تتخيّل نفسها نائمة مع شخص آخر. لا يستطيع أحد أن يعرفها كما فعل كوب، ولا يعرف أحد كوب كما تعرفه هي. شعَرَتْ أن هذا كاف ليعطيها بعض القوّة في مشيها إلى حياتها الأخرى في أسفل التلّة. كانت في السادسة عشرة من عمرها، تقريباً لا شيء.

ذهبت آنا إلى محلّ خردوات ريكس في بيتالوما وابتاعت علبة دهان أزرق يتماشى مع زرقة أحد الأعلام وعَتَلَتْهُ أعلى التلّة نحو الكوخ. وضع كوب طاولة على السّقيفة. أمّا هي ففتحت العلبة وحرّكت الدهان. وكان الطقس غريباً ذاك النهار، حيث كانت لفحات الريح تتقاطع مع الحرّ القائم. راقبا الأعلام تنتصب مقوّسةً، وتكاد تفلتُ. تتذكر آنا كلّ تفصيل. أدارت الفونوغراف لسماع الموسيقى وهما ينتظران ممارسة الحبّ. صقلت الخشب بينما كانَتْ تُصرّف الأفعال الفرنسيّة بصوتٍ عالٍ، ثمّ بدآ بدهان الطّاولة. لقد أفقَدَها كلّ هذا الخشب الباهت الألوان عقلها، ولذلك أهدت اللون الأزرق إلى كوب. وفجأة خَفَتَ الريح ليصير صمتاً. نظرت إلى أعلى لترى السماء وقد أصبحت خضراء قاتمة ولترى الغيوم وقد أضحت مضطربة كالزّيت.

Twitter: @ketab_n

وبينما كانا يستلقيان على السّقيفة انفجر الرّعد ونزل كأنّه في قمع نحو عُريهما، فتشبّثا ببعضهما ولم يجرؤآ على الافلات. وأحسّت آنا انّ ما كان بداخل كلّ منهما قد قفز إلى جسد الآخر. وكأن قلبها قد استبدل بقلب كوب. لم تستطع سماع شيء، فالرعد ما زال مدوّياً في أذنيْها، وكانت ترتجف بين ذراعَيْه. ثم ما لبثت أن رأت يداً تمتدّ فوقها في اللاّمعلوم لتقبض على شعر رأس كوب وتسحبه نحو الخلف، وتسحب كوب بعيداً عنها مما جعلها ترى السّماء لبرهة وبعدها رأت وجه أبيها ينظر اليها من الأعلى.

كان الوالد قد امتطى حصانه نحو الكوخ كي يحذّر الفتى من عاصفة محتملة، لكنه نزل عن حصانه الحذر من ضربات الرّعد ومشى حول الكوخ نحو السّقيفة. أمّا ما اعتراه تلك اللحظة فلم يكن إحراجاً بل خوفا. التقط ابنته العارية كالطفل من كتفَيْها ورماها عن السقيفة نحو منحدر الأرض الرّطبة. وقف كوب بلا حراك ومشى والدها نحوه متسلّحاً بكرسي من ثلاثة أقدام ملوّحاً بها في وجهه ووسط تناثر الحائط الزجاجي، وقع الفتى نحو الخلف إلى داخل الكوخ ثم نهض ببطء واستدار لينظر إلى الرجل الذي كان قد ربّاه والذي كان يتقدّم نحوه الآن مجدّداً، فلم يحرّك ساكناً. فبدأت آنا بالصراخ إذ رأت خنوع كوب المريب ورأت والدها يهاجم وجه كوب الجميل والقوي وكأنه كان المسبّب وكأنه بهذه الطريقة يستطيع إزالة ما قد حدث. ثم ركع والدها فوق كوب مستعملاً الكرسي مجدّداً ليهوي بها نحو الأسفل حتى غدا الجسد هامداً.

عادت آنا إلى السقيفة متخطّية الصدمة ومدركةً أنّ والدها لن يتوقّف

Twitter: @ketab_n

حتّى يقتله، لكنّها لم تستطع تفريقهما. وحاولتْ سحب والدها بعيداً. بدا كوب غائباً عن الوعي بلا حركة. وهبط الكرسي بشدّة على صدره مرّة أخرى فخرج الدم من فمه. حاولت مجدّداً ان تطوّق والدها وتسحبه بعيداً عن الجسد الممدّد، لكن جهدها لم يكن شيئاً مقابل قوّته. فابتعدت عنه وحملت شظية كبيرة من الزجاج وغرزتها في كتفه ودفعتها عميقاً في لحمه عبر القميص المخطط. خرج منه صوت كخوار الثور، ثم استدار وضربها بذراعه الفاقدة نصف قوّتها ونظر إلى الوراء فرأى مثلث الزجاج ما زال داخله. تفلّتت آنا منه حتى غدا عزْيُها بينه وبين كوب، حبيبها. فدفعها والدها مجدّداً، لكنها عاودت وضع نفسها بين والدها وجسد كوب، فامتدّت ذراعه اليسرى القوية لتقبض على عنقها بقوة وبدأت بسحق قصبتها الهوائية. ثم بدأ كلّ شيء يتحوّل إلى ظلمة وانهارت على ركبتيها مُرْتَخيةً. كانت قرب كوب فأدارت وجهها تجاهه واستمعت إلى نفسه الراقد تحت صوت نفسها المرتعد وسمعت أخيراً همسةً منه، لكنه بقي ساكناً. لكزتْهُ لكن ما من مجيب، عينه مغمضة ومغطاة بالدم. بقيت بجانبه وذراعاها على صدرها وكأنها تحمي قلب كوب بأمان داخلها.

حدّق والدها بهما ثمّ سار ببطء نحو السّرير والتقط جلد خروف وعاد ليغطّيها به، متجاهلاً جسد كوب. حمل ابنته فوق الزجاج المتناثر ومشى بعيداً عن الكوخ فأنزلها على الأرض. ثم أخذها بيدها ولم يفلتها طوال مسيرة العشرين دقيقة نزولاً من التلّة إلى منزل المزرعة، وكان الحصان يرافقهما مطأطأ الرأس، بينما كانت آنا تصرخ باسمه.

لا يستطيع أن يرى شيئاً. جلس فلم يستطع التمييز بين الأرض

Twitter: @ketab_n

والسماء. فالعواصف قد ملأت الوادي. أتى المطر ثمّ النفناف. وبعدها طرطق الثلج على السطح الخشن. وجد نفسه وسط الغرفة فحاول الابتعاد قدر الامكان عن الشباك المهشّم الذي كان يمتصّ العاصفة. أمّا في الخارج، فحلّقت الأعلام التي كانت آنا قد علّقتها لأسابيع خَلَتْ بموازاة الأرض: الأزرق والأحمر والأخضر وطيف الأصفر والأبيض الذي لا يبدو مرئياً الآن.

ما بدا حادّاً وحيّاً هو فقط التشطيبات التي أحسّها في وجهه، أمّا بقيّة جسده فكان مخدّراً وبارداً. سوف يموت هنا! سيموت هنا أو وهو يسير نحو أسفل التلّة. من يوجد في منزل المزرعة الآن؟ وقف ببطء وكانت الضوضاء حوله مدوّية فلم يستطع سماع خطواته وهو يسير عبر الغرفة. كأنه لم يعد موجوداً. جلس إلى الطاولة النصف المدهونة والتقط كتاباً لآنا فأحسّه بارداً.

وعندما استيقظ أدرك أنّه كان نائماً وهو متّكئ على الطاولة. بدا الطقس في لحظة صفاء لكنّ الريح هبّ مجدداً وعزلت العاصفة الكوخ ثانيةً. الأعلام فقط تصفّق. مدّ يده عبر النافذة المكسورة ليتحسّس الطقس. هل آنا في بيت المزرعة؟ في كل الأوقات التي مرّت كانت تقف فوق السّقيفة ضاحكة بتوتّر حتّى ظنّ للوهلة الأولى أنّها كانت تضحك منه أو أسوأ من ذلك، منهما معاً. لكنّها كانت أضعف ممّا كان يظنّ. أشارت مرة إلى بقعة على مسافة عشرين ياردا قائلة "هذا ما أريده. مغطس حمام هناك في الخارج في يوم ما". وكأنها تنكر وتتجاهل كلّ ما كان يجري بينهما.

بعد ساعة من الوقت كان على ركبتيه فوق التلّة الجرداء، خائفاً من

Twitter: @ketab_n

ان ينحرف عن الطريق ويتوه كلّياً في الأرض اللاّمرئية. إتّبع الطريق الضيّقة وذلك بواسطة تلمّسها؛ مزيلاً الثلج كي يجد الحصاة أو الوحل أكثر من العشب. وكان قد سار بعد مغادرة الكوخ إلى تكتّل من الاسلاك الشائكة فجرح خدّه ومزّق معطفه الرّقيق. عاد أدراجه، ضارباً ذراعه بالحيطان الخشبية وسائراً طول الحائط باحثاً عن الدّرج، فتلامَسَ وجهه مع الأعلام. حملها ولفّها حول معصمه وسحبها طليقة. تعالي معي يا آنا. ثمّ استدار عائداً نحو أسفل التلّة.

وكانت السماء تكفهرّ بالنفناف وأحسّ بأوراق الشجر تدور مع الرّيح حوله. لكنّ كلّ شيء تقريباً بدا غير مرئيٌّ. آلمته العين المغمضة كلّياً. لو كنت بوذياً لكنت ارتفعت فوق هذا، ولكان شيئاً جميلاً، أليس كذلك؟ أكْمَلَ تقدّمه، لكن دفعة قويّة من المياه رمتهُ جانباً. لا بد أنه حطّ على جسر المشاة، والمياه المتفجّرة قد ارتفعت فوقه. تقلّب مع المياه نحو أسفل التلّة، وقد امتلأت ثيابه فجأة بالمياه والحجارة. ارتطم ظهره بشجرة ممّا ثبّته. تملّكه الغضب ولم يكلّف نفسه عناء التخلّص منه. لم يُفلت جذع الشجرة بل وقف حتى لامس غصنها الأفقيّ الأسفل فمشى تحته. لم يحم وجهه من النفناف بل اكمل تشبثّه بالغصن متقدماً إلى الأمام. ثم ما لبثت أصابعه أن لمست كيس المبيدات المعلّق على الشجرة فعرف مكانه. عرف أنه إذا أكمل سيره قُدُماً في الاتجاه الذي يشير اليه الغصن فقد يصل إلى السّياج المحاذي للبوّابة. وحين بدأ تسلق حافة التلة تشبّث بخطّ الاتجاه الصغير ذاك. تخطّى جسده السّياج، وكان قد وَعَدَ نفسه أنه إذا اصبح في الجانب الآخر سوف يجلس لبرهة، أو يستريح للأبد. لكنه عندما تخطّاه، أكمل سيره وإحدى يديه تتلمس شريط السّياج متجها نحو منزل مزرعتهم. لم يبقَ إلاّ مئة من الياردات،

Twitter: @ketab_n

ولم يكن لديه أدنى فكرة عمّن يمكن أن يكون هناك. ورغم أن الشريط أحرق يده، لم يفلته. إلاّ أنه كان مضطراً أن يتركه كي يعبر مسافة الثلاثين ياردا في العراء نحو المنزل.

بعد عشر دقائق وجد نفسه تائهاً يجول في الظلمة. لامس برميلاً فضربه ليصدر ضجّة. مشى خطوة أخرى إلى الأمام فوجد عربة تسدّ طريقه. شعر في بادئ الأمر بالغضب لكنه اكتشف باب السيارة فسحبه. لم يهتزّ لكنه أدرك أنه ليس موصداً بل عالقاً بطبقة من الجليد. دفع بثقله كله على الباب ثم سحب المقبض مجدّداً فانفتح الباب هذه المرة. فانسل داخلاً بقسوة وأغلق الباب فخيّم الهدوء. واستطاع سماع تنفّسه. أضاء الضوء الداخلي. تحسّس السقف بيد مخدّرة فرأى دماً أسود على أصابعه. لو كان فيها مفتاح لأدار المكيّف السّاخن لكن ليس لديه واحد. كبس بوق السيارة لفترة طويلة من دون توقف، والاّ فسوف يموت هنا. وكان يصغي اليها: الاصفر هو الارض، والأخضر هو الماء، والأحمر هو النار والأبيض هو الغيم والازرق هو السماء والفضاء اللاّمتناهي والعقل. وبعدها غاب عن الوعي.

أنتَ لست مثلها. لم ترغب في الموت، فلقد نَزِلْتَ إلى هنا.

وهل أرادت أن تموت؟

أرادت. نعم. أظن ذلك.

من كان يتكلّم؟ أحدهم كان يضغط على ركبتيه المحنيّتين الصّلبتين. وجد نفسه على الأرض أمام المدفأة، ممدّداً. ومغطى بالحرامات. قفزت شرارة نحوه، وحالاً اشتم رائحة الحطب المشتعل. رائحة جيّدة كالطعام. أحبّها.

Twitter: @ketab_n

لا ترمي ثيابي بعيداً.

لماذا؟

أريد... الأشياء.

ماذا؟

أل... أل...

أعلام. هل أعطتكَ آنا الأعلام؟

نعم فليس من المفترض أن تلامس الأعلام الأرض.

حسناً. بخلافها لم ترِدْ أنتَ أن تموت وبطريقة ما أوصلتَ نفسك نزولاً إلى هنا.

لقد كانت كلير تتكلم.

أين هي؟

لقد كانا هنا. لكنّه أخذها من دون أن تقول شيئاً حتى لي. كانت تصرخ عندما قدِما إلى بيت المزرعة. أرادت الموت، فوضعها في الشاحنة وأخذها بعيداً كان ملطخاً بالدم. بقيا هنا عشر دقائق فقط.

لم يقل شيئاً فلم يكن يعلم ماذا تعرف كلير.

كان الدم يغطيه يا كوب. يغطي ثيابه كلها. فظننت أنه هو المصاب.

لم يكن لديها أدنى فكرة أن كوب كان قد بقي في الكوخ أثناء هبوب العاصفة. وكان والدها قد قال ان كوب كان في مكان آخر. وذلك قبل أن يصطحب معه آنا بعيداً في سيارته. ثم ما لبثت كلير ان سمعت ما ظنّته بوق سيّارة ففتحت الباب لترى ستاراً كثيفاً من النفناف لكنها لم تر شيئاً في الخارج... وبعد هنيهة سمعت الزمّور مجدداً، فذهبت إلى الفناء

Twitter: @ketab_n

الخارجي ونظرت خارجاً. وكانت العاصفة قد خفّت فرأت ضوءاً برتقالياً خافتاً. وحدّقتْ في العتمة فاختفى الضوء. وكادت ان تضيّعه كليا بعد دقيقة. ضوء سيارة داخلي.

انطلق الرعد فوق المنزل فجمدَتْ في مكانها لبرهة، ثمّ فكّت حبلاً دائرياً فربطت طرفاً منه إلى درابزين الفناء الخارجي ولفّت الطرف الآخر حول خصرها وولجت في العاصفة باتجاه الضوء الذي كانت قد رأته.

عندما رأت كوب عبر زجاج السيارة الأماميّ ظنّته ميْتاً، لكنّ يديه ارتعشتا تحت لون أضواء مصباحها. وبدأ الرعد يقصف مجدّداً فوقها مباشرة. بالكاد استطاعت ان ترفعه، لكنها نجحت في سحبه خارج السيارة ومن ثم جرّتهُ عبر الساحة المبلّطة نحو المنزل وبعدها صعوداً على الدّرج. حلّت حبل خطّ الخلاص عنها ولفّت كوب في حرام ومدّدَتهُ أمام المدفأة في المنزل المظلم الخالي.

وفي الصباح التالي كان ضوء الشمس خافتاً. استيقظتْ وتذكّرت كلّ شيء وما حدث لهم جميعاً. وفي الاسطبل رفعت كلير اللّجام وأخفض الحصان رأسه واضعاً أذنيه داخل الحزام الأعلى. ثم وضعت الحِرام والسّرج فوق ظهر البهيمة وأحكمت الحزام، مُرخية إياه، بعض الشيء في الوقت الراهن. إنحنت لتشتمّ رقبته، فلقد اعتبرت دائماً تلك الرائحة شيئاً مميّزاً.

كانت أشجار السّرو على طول الممرّ هادئة وشَعَرَتْ أنّ حواسها ممتلئة حياة بينما كانت تركب الحصان بعد العاصفة. صعد الحصان التلّة ببطء بينما كانت عينا كلير تمسحان كل مرتفعٍ بحثاً عن أيّ أثر لحياة. قد يبدو قماشاً خشناً أو صخرة بينما هو عجِل أو أي مخلوق آخر. إنّ

Twitter: @ketab_n

البحث عن الأشياء الضائعة هو شيء غير مؤكد كالصّلاة. لقد تبعثرت الأغصان وأعمدة السّياج عبر المنحدرات. وكان برميل زيت قد تدحرج داخلاً في مزرعة أخرى أثناء الليل. لقد خَرَجَتْ الأرض المنظورة. ومرّت قرب النهر فرأته أسود بسبب الوحل الذي صعد إلى سطحه للمرّة الأولى ربما. وعلى رأس التلّة الأولى نظرت إلى الوراء فرأت برج الماء وقد هوى تحت أقدامه الضعيفة.

كان كوب قد رحل مسبقاً. ولم تكن تعرف أين كانت آنا وأين كان والدها. وكانت وحيدة، في السادسة عشرة من عمرها، على حصان جَفَلَ من التوتّر والمزاجيّة بعد قضائه ليلة في الاسطبل مليئة بصوت الرّعد المحطّم. تكلّمت معه بهدوء وثبات. وأبدى المخلوق استعداده للوثب كي يستعمل الطاقة الكامنة في كلير.

ونزلت قربها كومة من زرع شجر البلوط آتية من ناحية كوخ كوب. ترجّلت ومشت صوب النافذة المكسورة. رأت الهر ألتراس ممدّداً على السّرير. لم تكن كلير قد شاهدت الهرّ داخل غرفة من قبل. كان رأسه في الواقع ملقى على وسادة إذ لم يتوقّع قدوم أي نفس. حتّى هذا المخلوق كان قد تغيّر نتيجة فوضى الطقس. جَمَعَتْ الكائن النائم في غطاء مخدّة قبل أن يستيقظ كلّياً ويطلق العنان لرأسه ويقف في كوخ كوب البارد. في السنوات الماضية، كانت تحب ان تخيّم هنا لوحدها عندما لم يكن موجوداً سوى الطرّاحة والمدفأة. لقد كان المكان بمثابة عشّ النّسر لها في تلك الأيّام، قبل أن يصبح خاصاً بكوب وآنا. والآن مع الدّمار الناتج عن العاصفة يبدو متواضعاً مجدّداً. كانت تتخيّل ما قد تفعله به. تخيّلت نفسها تركب الحصان ثانية وتلتفت لترى البناء وقد أكلته النار وشعلة

Twitter: @ketab_n

سوداء من الدخان ترتفع في السماء. لكنّ هذا الكوخ هو كلّ ما تبقى من الماضي حين كانوا صغاراً.

لن يعود كوب مطلقاً. عَرَفَتْ كلير ذلك. وكانت تعرف عن الاثنين. كانت تعيش في العراء كل هذه الأسابيع مشاهدة آنا عائدة، أحياناً متأخرة حتى الغسق، نحو بيت المزرعة وقد بدت عيناها متوحشتين ووجهها يعبّر عن كل شيء، مليئاً بالإقرارات الجديدة وبالمعرفة، وخائفاً من كلّ شيء، ولم تكن آنا لتتوقف، كما لن تكون بحاجة لأن تعترف بشيء فيما كانت تدور وتدور في مطبخهم المظلم الصغير.

وَجَبَ على كلير أن تحرق الكوخ حينَها.

مشت خارجاً تحت ضوء الشمس. فكتْ رباط الحصان وركِبَتْهُ حاملةً الهرّ على ذراعها، ومتكلمة مع كلا المخلوقَيْنِ.

Twitter: @ketab_n

الأحمر والأسود

عندما وصل كوبر إلى تاهو وجد حليفاً حقيقيّاً واحداً هو الهيبّيّ، والملفت في هذا الهيبّي أنه كان الأكثر صحّة في الكازينو ومجازياً كان فلح الأرض، كما كان روث البقر على حذائه. ولم تتغيّر ملامحه الخارجيّة منذ المرة الأولى التي سمع فيها كوبر اشاعات عنه حتى الليلة الأخيرة التي رآه فيها جالساً إلى طاولة اللعب مع مجموعة من الإخوة. فهناك قمصانه الآتية من هاواي وهناك شعره الطويل والحبّات المسترخية التي تُصدر أصواتاً كلّما تحرّك. وهناك القلادة غير المريحة المعقودة على رقبته والمصنوعة من صَدَف البحر. وكان كوبر في مأدبة عندما سمع لأول مرة الحديث عنه.

صديقُكَ، ذاك الهيبّيّ.

دورن ليس بهيبّيّ. لا يستطيع المرء أن يقامر ويكون هيبياً في آن.

الرّجل هيبّيّ وهو عريق في ذلك. وهو يعيش مع معالِجة النّطق التي التقاها في حفلة فرقة "الأموات الممتنّون". هكذا تكون هيبياً.

كان دورن المتهدّل في مشيته والقويّ البنية من أمهر لاعبي الورق القادمين من منطقة سلسلة جبال السّييرا. وكانت نظريّته تقول إن ساعتين

Twitter: @ketab_n

من لعب كرة اليد في اليوم تبرّزان وتلغيان شرب الكحول وتعاطي الكوكايين والجلوس في حضرة المدخّنين خلال الأمسيات الطوال.

هل أنت الهيبّي؟ سأله كوبر أثناء مشاهدتهما إحدى المباريات.

قد أكون.

هناك ذاك السّطر القائل "الهيبّيون هم البرهان الحيّ على أن رعاة البقر ما زالوا ينكحون الجواميس.

أتساءل كم مرّة سمعت ذلك.

لم يكن كوبر قد تكلم تقريباً مع أيٍّ كان منذ وصوله. والآن في ثلاثين ثانية لاحظ أنه استطاع إهانة أحد أذكى اللاعبين في تاهو وأكثرهم فوضويّة والذي، تقول الإشاعة، إنه أخرج دافيد ماميت من اللعبة مرتين. وَضَعَ رفيقه الجديد يده على كتفه:

أعذرني، فعليّ ملاقاة أحدهم. أُدعى ادوارد دورن تماماً كإسم الشاعر.

خرج الهيبيّ فتبعه كوبر وشاهده يركب درّاجة هوائية وينزلق في الشوارع.

كان كوبر في الثالثة والعشرين من عمره عندما وصل بادئ الأمر إلى تاهو ووقع في صحبة دورن ورفاقه. وكان قد بدأ مهنة المقامرة يراقب ويلعب الميسر في حانات وقاعات مدن الشاطئ. وتعلّم بسرعة كيف كان اللاعبون المعمّرون يتسلّون حول الطاولات مسامحين أنفسهم بخفّة مع تكشيرة وكيف كان البعض منهم يقعون في حبّ ضربة الحظّ. كما لاحظ الذين كانوا يشعرون بالمرارة وبالطموح أو الذين حاولوا اخفاء الجزء الأكبر من مهارتهم. ولم يكن كوبر قد عرف الكثير عن الناس قبل

Twitter: @ketab_n

هذا الوقت. إلاّ أن الميسر هو بالضرورة لعبة إخفاء تخادعُ فيها هدفك على الطاولة. وعندما بدأ يلعب بالورق ويكتشف مهاراته التّقنيّة، رأى أن لعبة البوكر لَيست بحاجة لأن تخفي فيها مواهبك. إذ لن يرفض أحد مباراة لأنك قد تكون لاعباً أفضل ممّا تبدو. فهنا الرّياضيّات المتأججة والحجر في القلب والحظّ وفرصة الورقة النهائية المسماة بالنّهر والتي قد تجعلك ترى مصيرك. وجد نفسه مرتاحاً في كلّ هذه الفوضى والمخاطرة. وعندما رأى السّكارى يقودون أنفسهم بلا هداية بين طاولات اللّعب في تاهو، وكأنهم يتجنّبون دوّامات البحر، لاحظ لديهم نفس النظرة التي كانت لديه ولدى الشبّان الآخرين المجانين والمخدوعين بالعودة إلى خراطيم الأناكوندا الكبيرة على المنصّات العائمة في النهر الروسي.

أخذت المجموعة المحيطة بدورن كوب على عاتقها. كان هناك دورن وماشيني والوريث الفرنسي الذي سمّي كذلك لأنه شوهد مرة يقرأ رواية أوروبيّة. وكانوا يدخلون قاعات المقامرة كعائلة مالكة قادمة من ويومنغ ـ باستثناء دورن الآتي بالصّندل وحبوب العقد المُبَهْرَجة منذ أيام الستينات. نادراً ما تذكّر المقامرون اسم رئيس الولايات المتحدة، لكنّ دورن كان يتابع السياسة بانحراف هَوَسيّ. وكان يكره المولودين ثانية مثل باونس أوتري والذي كانت مجموعته المسماة الأخوة تقوم بصلاة دائرية في الطابق الأوسط، قبل نزولها إلى طاولات اللعب. وأخلى دورن لأوتري مكاناً واسعاً. فلقد كان أوتري يقفز بين تاهو وفيغاس، بينما رأى دورن وكتيبته فيغاس كنهاية العالم. لذلك فضلوا أن يتحرّكوا في تاهو. وبين الفينة والأخرى كانوا يقودون السيارة نحو رينو لتمضية عطلة نهاية الاسبوع، وفي الطريق كانت تدور نقاشات حول المخدّر

Twitter: @ketab_n

الأفضل وذاك الأسوأ ونسب الكلب الأفضل وعمّن كان أفضل لاعب ورق التقوا به والمدلكة الفضلى والممثل الأفضل والأسوأ. وبدون اي شك، بالنسبة اليهم جميعاً كان فيلم دي بالما الغضب الأسوأ بين الأفلام وهذه مسلّمة بديهيّة. وفي بعض الأحيان كان مانشيني يصرّ أن كارل مالدن كان أعظم ممثّل.

تقريباً كل فيلم: على جانب الماء، حافلة الترام، إنّي أعترف.

وهناك اليعاقبة ذوو العين الواحدة

لقد اخذت هذه الكلمات اللعينة مباشرة من فمي. هو وكاتي جورادو ـ هذا هو الفيلم كله.

ألم يكن موجوداً في فتى سينسيناتي؟ ألم يكن الميكانيكي في ذاك الفيلم؟

تردّد مانشيني الذي كان يتنشّط: أتدري أنّ كارل كان في أفلام لعينة عظيمة، لكنّ فتى سينسناتي لديه مشاكل. اتذكر انهم كانوا يلعبون الاوراق الخمسة اللاّ محدودة. وأذكر أن ستيف ماكوين كان لديه الآسات والعشرات. وكان لدى ادوارد ج. روبنسون ثلاث اوراق بدون أزواج، وهو سيد عظيم آخر في هذا الفنّ. ولو كان لاعب شطرنج لبنوا له تمثالاً. والآن، عليك ألا تدعهم يسحبون ثانية نقطة. لكن ماكوين المتأنق في بنطاله وضع مبلغاً برازياً وسمح لادوارد ج. أن يبقى ويسحب ورقة. لا يجب ان يُسمح له بالوصول إلى تلك الورقة، حتى لو اقتضى الامر وضع كل شيء كامرأتك أو ببّغائك. لتمنعه من السّحب. اجعل الأمر مكلفاً. لديك افضل يدين كما تعلم. راهن بمالك كلّه.

ماذا حدث! نسيت ماذا حدث.

Twitter: @ketab_n

أنزل ادوارد ج. مجموعة اوراق من الجنس عينه كان قد جمعه للتوّ وغلبه.

لم يكن كوبر يعرف الأفلام التي كانوا يتكلّمون عنها. كان الآخرون في الثلاثينيات أو الاربعينيات من عمرهم بينما كان هو بمثابة الفتى الأعزّ بينهم. كانوا يرعونه، كونهم يعرفونه بالمغامر المتهوّر والذي يشكل خطراً حتى على نفسه. لكن ما كان باستطاعته فعله وما أدهشهم هو تقليده طريقة لعب كل واحد منهم، وكأنه كان يتكلم بألسنٍ عدة. ورغم ذلك في حُمّى اللعب، حيث على المرء ان يكون هادئاً، كان كوبر مفاجئاً أو متحامقاً. وربما في يومٍ ما قد يصبح وريثهم الماهر. لكنه ما زال الآن يقاتل بيديه وأغلب الأحيان نفسه.

من ناحية أخرى كان أصدقاء دورن منخرطين في اللعب كطريقة حياة. كانوا يلعبون ماراتونيّاً لمدة اثنتي عشرة ساعة، متنقلين بين السكوتش والكوكايين، وقارئين إردنايز وفيليب ك. ديك بجانب طاولة اللعب أو في المقعد الخلفي لسيارة مكيّفة الهواء، وناكحين النساء المتوهّجات على خلفيّة صوت قناة ديسكوفري العالي، وحاقنين انفسهم في المصعد الهابط بهم. لم يشاركهم كوبر هذه الامور فقد كان طاهراً وعاقلاً في كل مكان ما خلا مباراة اللعب. أمّا هم فكان لديهم المسحوق البيروفي ليحميهم من التعب. فهم لا يستطيعون الفوز وهم نيام. هذا كان المنطق الوحيد. وبعد عدة سنوات في سانتا ماريا، حاولت امرأة تدعى بريدجيت ان تقدم له بعضاً منه، فجعل وجهها بين يديه قائلاً: اعرف انك لن تصدّقينني لكنك ستكتبين يوماً ما أربع مئة كلمة

Twitter: @ketab_n

على الغلاف الخلفي لكتاب مباريات وستظنين نفسك كاتبة لتحفة أدبيّة، معتقدةً أنك لا تقهرين؟ ابتسَمَتْ له قائلةً "أنت الذي لا يقهر يا كوبر".

في متجر مأكولات ذات أمسية تكلّمت مجموعتهم عن الأرباح غير الاعتيادية. فَذَكَرَ دورن لاعباً يدعى اللايهودي، والذي كان قد ربح زوجته المستقبليّة في لعبة ورق بزوجين من التّسعات.

وكان هناك كمائن وسرقات ومخدّرات في كل مكان. وطلب رجلان من دون ان يقترح عليهما موزّع أوراق موثوق به فذكر فيديليو.

اسم جميل "أجاباه". وما هي جنسيّته؟. "هو فيليبيني" ردّ دورن. فأجابه المقامران: "كلاّ، شكراً لك. فنحن بحاجة إلى شخص من الجنس الآري". فصُعِق كوبر لكنّ دورن أجاب: "حسنا، فهما يريدان موزّعاً خفيّاً". أنت في عالم تحتاج فيه أن تغفر بسرعة، اذ تجد نفسك تشرب مع قتلة مأجورين أو مع موزّعين عنيفين يمكن أن يكونوا قد قتلوا شخصاً الاسبوع الفائت بطابة من العيار الثامن.

لقد كانت الحياة السريعة تنتهي من حواليهم. وكان اهتمام مجموعتهم منصباً على معرفة من منهم سينهار أوّلاً، الوريث الفرنسي أو مانشيني. ورأوا الأدلة أقل على كارثة قد تحصل مع الوريث الفرنسي، فرغم أنه كان يتناول مخدّر الكوالود بانتظام، إلا أن الحظ كان بجانبه. كما انه كان يبدو منشغلاً بتعليم اصدقائه ما يتعلّق بتسجيلات ومهارات عازفي حفلات البيانو الكبار، أو ما يتعلق بكيفية ارتداء الملابس متمتماً بسخط ضدّ المتبطّلين المتسلّلين والوشوم وعطر الرّجال وعقدة وندسور لربطات العنق. وكان يتكلم لساعات عن الطول اللازم للكمّ والارتفاع المناسب للياقة. وفي ما خصّ الثياب فإن اعظم عمل ادبي بالنسبة

Twitter: @ketab_n

للوريث الفرنسي هو قصة جنجل، وفي الرحلات الطويلة كان يقرأ للمسافرين الآخرين كي يناموا مقاطع من اللايدي موراساكي. وكان قد حاضرهم عن الليالي اليابانية السوداء واوائل النساء القاتلات. "لم تلتقهن بعد"، أخبر كوبر. "لكنك ستفعل ذلك وسينلن منك من خلال ضعف ما. فليس هناك أكثر اثارة للرجل من امرأة في بلاء. إنهنّ كالكهنة إذ لا تستطيع ان ترى منهنّ إعاقة!

لكنّ الكوكايين خدع الوريث وتحت تأثيره جرّه معمدانيان إلى لعبة الاثنين إلى سبعة، فخسر فيها كلّ شيء. وبعد ايّام قليلة اصيب بنوبة قلبيّة. ثم وضع رهانه الاخير في مباراة كرة قدم كانت تُلْعَبُ قبل الافتتاح. ومات بعد ذلك بأسبوع. وعندما ذهب دورن ليتعرف إلى الجثة، نزع موظف المستشفى الغطاء عنه، رأوا شاب الكبّا موشوماً على بطّة ساقه، وهو خطأ في الذّوق يعود إلى أيّام شبابه.

موت الوريث جعل مانشيني الرابح. (أكمل في علاقاته النسائية الطويلة كعلاقات الزّيزان ثم فاجأ الجميع بأن اصبح في النهاية مستشارا أو ناصحاً لمدمني المخدرات في أيوا). تجمّع الجميع في شقته في الحادية عشرة صباح اليوم التالي لموت الوريث. وكان التلفاز الملوّن صامتاً. وكان هناك بعض التغطية للتعبئة الحربيّة في الخليج العربي، فأخذ مانشيني يغيّر الاقنية وتوقف عند برنامج لمدرّبة حيّات تلبس سروالاً قصيراً فراقبوها في صمت، وتذكروا بعض الحكايات عن الوريث، ثم ركبوا السيارة متوجّهين نحو البحيرة. وكانوا على ارتفاع يتجاوز الستة آلاف قدم فوق سطح البحر فكان من السهل أن تَسكَرَ.

لعبوا البوكر المختصرة فيما بينهم وتعلّموا ألعاباً جديدة وتقاسموا

Twitter: @ketab_n

الارباح بنسب مئوية. وكان مبدأ دورن الأول (كما في الاغنية) ان تذهب"مع التي تملك شعراً منسولاً ومعها المال الكثير). وفي همدة ما بعد موت الوريث قرّر كوبر أن يريهم كم هو موزّع ورق ماهر. ففتح كومة ورق جديدة مهملاً الجوكرز والاوراق الضامنة. وقطع الورق على الستة والعشرين ورقة، وقدّم سلسلة من خلطات لعبة الفارو، ثماني مرات في دقيقة واحدة. وبذلك انتهت المجموعة الورقية بنفس الترتيب تحديداً الذي كان قد بدأ منه. واعترف لهم بكلّ هذا، حتى ولو أنه لن يستعمله ابداً في أي لعبة، وذلك لكي يثقوا به."راقبوا بدقة" ، قالها في البداية، "فلديكم اصابع كاثوليكي جيّد ان تلعب في المسبحة". فسأله مانشيني ملاحظاً، "لماذا تفعل ذلك؟"

هناك تاريخ عظيم لاناس أعطوا الكتاب الخطأ في لحظة حاسمة من حياتهم. وكان كوب لسنوات قليلة خَلَتْ قد خُدِعَ في لعبة الثلاث ورقات الاسبانية وذلك على رصيف سان فرنسيسكو، فذهب إلى محل لبيع ألعاب الورق ليكتشف كيف خُدِعَ، فوجد بدلاً من ذلك كتاباً معاداً طبعُه عنوانه"المحترف على طاولة الورق"والذي تعود طباعته إلى العام ١٩٠٢. وإضافة إلى شرح للعبة الثلاث ورقات، اصبح الكتاب بالنسبة إليه صندوق باندورا للأعاجيب. لقد وجد عالم الدهاليز السرّيّة.

ارتأيت أنّ عليّ اكتشاف كلّ ما قد ينقلب ضدّي قال كوب. ووجدتُ بحثاً عن علم لعب الورق وفنّه.

حسناً، يوماً ما ستلتقي باللايهودي وستتعلّم بعض الاشياء منه. وهو لاعب فارو منذ زمن بعيد وربّما سأكتب عنك رسالة تعريف صغيرة.

بعد أيام قليلة من مراسم دفن الوريث. تفرّقوا. عاد دورن إلى منزله

Twitter: @ketab_n

في مدينة نيفادا حيث تعمل روث، صديقته الدائمة، كمعالجة نطق. ودعا كوب للانضمام اليه. فقادا في طريق متعرّجة محاطة باشجار الصنوبر وعلقا في عاصفة ثلجية حتى تركا الجبال. وغيّر دورن موجة الراديو إلى محطة ك ف ام ار عندما اصبحا في نطاق موجتها. وتبيّن في مدينة نيفادا أنّه أحد أعمدة المجتمع وناشط في المحطّة الاذاعيّة الرسمية المحليّة، وكان مع بعض المساعدة قد حوّل إحدى محلات الحدادة إلى مركز اجتماعي. وفي الوقت نفسه بقي مهووساً بنظريّات المؤامرة والتي، كلعبة البوكر، تمتلك بناء مخفيّاً يدرك فقط من خلال الملاحظات المدوّنة والنظرات السريعة. وكان دورن دائماً يشعر بملامح مكيدة ما أو يستشرف خدعة ما. وما أحبطه في تعاطيه مع اخوة فيغاس، المولودين ثانية، هو انه لم يستطع فكّ شيفرتهم، ولم يستطع معرفتهم، فشعر بأنهم قد فاقوه براعة. فهو لم يكن متأكداً ما إذا كان باونس أوتري اودري لاعب بوكر عظيماً يكره الخسارة أو انه كان دائماً يُعاونه موزع أو غشاش يجمع أو يفرّق كلّ مجموعة ورقيّة. ومؤخراً، اثناء التحضير لحرب الخليج، كان يرى باستمرار طيّات اعلامهم. امّا كوب الذي كان يَمْقُتُ تصلبهم السياسي النابع من اعتدادهم باستقامتهم، فقد اراد ان يجاريهم أو يربحهم في اللّعب.

لا تستطيع ذلك.

أظنّني أستطيع.

حسناً، قم بزيارة اللايهودي أوّلاً، إذا أردت أن تلعب ضد مجموعة أوتري. فاللايهودي سوف يعلّمك. فلقد اصبح متحضراً وهو يكره كل ما يتعلق بفيغاس. زد على ذلك أنه هرب مع فتاة أحدهم.

Twitter: @ketab_n

تلك التي ربحها في لعبة ورق؟

نعم

إذاً كيف أصل إلى هناك؟

اولا: اياك ان تدعوه باللايهودي، فاسمه آكسيل. خذ الباص إلى باكيرسفيلد، وهناك تستطيع ان تستأجر أحدهم ليقود بك سبعين ميلاً داخل الصحراء.

انتهى الامر بآكسيل وامرأته ان يقيما في قاعدة جريشو العسكرية والتي لم تعد في الخدمة. عاشا في محرّك هوائي يعود للعام ١٩٨٠ وكانا قد شحناه كهربائياً بواسطة عمود محوّل. واقترحا على كوبر ان ينام في خيمة مراقب قديمة ليست بعيدة عن مأواهما الفضّي. ودلّته لينا على البئر حيث كانا يستحمّان، قائلة ان هناك بقايا ذهب ما زالت في الماء. وكانا يطبخان كلّ وجباتهما في الخارج فكانت قارورة الغاز تصدر صوتاً خافتا خلال الفطور والعشاء. وكان كوبر يرى في الليل الاضواء الأخرى التي كانت تصل من بعيد إلى القاعدة المهجورة. وكان هناك حصانان للينا يسرحان قرب المخيّم.

كسر الحديث عن دورن الجليد مع اللايهودي.

يا الهي، كنت اعرف أمّه جيّداً. وكنتُ ربما قد اصبحت والده.

انه الذكي بيننا، اجاب كوبر بلباقة.

يفكر اللايهودي، ويتمتم: ويقولون الآن انه اصبح هيبيّاً

يبدو الأمر كذلك.

يراقب كوبر لينا وهي تتوجّه نحو حصانها فتركبه بطراوة شال،

Twitter: @ketab_n

ويتذكر فجأة كلير، التي كانت هادئة الطباع مع الحيوان. بالنسبة للايهودي فإنّ هناك جائزة لصيد رأس لينا لأن زوجها الأول لم يسامحها على هربها من فظاظته."امرأة في شدّة، يتذكّر كوبر. هناك هضاب مسطحة وآثار الاحصنة ومناجم ذهب قديمة لتكتشف خلال النهار، وتتفاجأ لينا بحقيقة ان كوبر يعرف عن الاحصنة:"هاي، مقامرٌ يمتطي!" ويركب الاثنان مُتَنزّهين في الصحراء.

في اية حال، على كوبر ان ينتظر حلول المساء، فآكسيل يرفض جلب الورق قبل حلول الظلمة. فيأخذ حينها كوبر إلى عرين المحرّك الهوائي ويغلق الباب. ثم يخرجان بعد ثلاث أو اربع ساعات، بحيث يتوجّه كوبر إلى خيمته لينغمس في النوم.

وأحياناً بعد الظهيرة يتجوّل كوبر وحيداً عبر المقاهي المهجورة والثكنات الخاوية في القاعدة العسكريّة والتي تشبه ضاحية على القمر. لا يلتقي أحداً، رغم أنه في الليل يسمع أحياناً صوت مولّد كهربائي أو يرى نارا. ليس هناك سوى لينا وآكسيل ليتكلّم معهما. والأمر يبدو محاكاة لعملية تعليم بين معلّم وتلميذ. إلاّ أنّ اللايهودي يتمتّع بحياة صاخبة جنسيّاً، حتى انه اعتذر عن الأصوات الصادرة. فزعقاته عادة تشبه صرخات استغاثة. يحصل الجنس عندهما في فترة متأخرة من بعد الظهيرة، وعند انتهائهما بلحظات يخرجان من المحرّك الهوائي كفأرين وضيعين. أما كوبر في الخيمة الواقعة على بعد ٤٠ ياردا فقد عصب عينيه بقطعة قماش صغيرة حتى يستطيع ان يأخذ قيلولته في وهج الثالثة بعد الظهر. لكن يصعب عليه ان يتجاهل صيحات الاستسلام أو الظهورات الدينية المنبعثة من المقطورة.

Twitter: @ketab_n

يضاعف اللايهودي بعد اسبوع ساعات لعب الورق، فتدوم الألعاب الآن بما لا يقل عن الست ساعات. يتوقفان في منتصف الليل فيذهب آكسيل نحو المطبخ ثم يعود مع ويسكي اسكوتلاندية وكوبين من الزجاج. ويبدآن مجدّداً.

"انتبه من النهايات الزائفة"، يقول له، وكأن الساعات الماضية كانت مجرّد تجربة أدائيّة.

كان اللايهودي يسجّل افتراضات الربح والخسارة على مَرْسِم. وحتى تلك اللحظة بدا كوبر وكأنّه مدينٌ له بثلاثين ألف دولار. "من يخسر يركب إلى مينيفر للتبضع"، يعلن اللايهودي، "وانا لا اركب الخيول أو البغال". وفي ليلة اخرى يرفع الرهان."إذا ربحت تستطيع ان تنام مع لينا. حاول البدء من منتصف الورق. اي شيءٍ ممكن الليلة. اذا ضبطتك، يلغى الرهان، واذا ربحت يمكنك اظهار العاطفة التي اعرف انك تكنّها لها". يُحرج كوبر تماماً. ويتابع اللايهودي:"يقول البعض أني ربحت لينا في مباراة ورق والواقع انها هي التي ربحتني في تلك اللعبة. طبعا كنت أنا الموزّع. تعتقد السي آي إي أنه يمكنك كسر أحدهم وتحويله إذا عرفتَ نقطة ضعفه، وهي عادةً الجنس الذي يأتي دائماً أوّلاً، ثم المال أو السّلطة. وفي بعض الاحيان يأتي الكبرياء أو الغرور. ماذا عنك؟

يلعبان وزجاجات الويسكي موضوعة على عتبة الشبّاك."من السهل أن تكون موزعاً تلعب على طاولة كبيرة. فلنحدّد أنفسنا باللّعِب على طاولة صغيرة. بالإضافة، لدى فيغاس إلهاءات، بينما نحن لا نملكها. اذاً تستطيع مراقبتي بدقّة".

Twitter: @ketab_n

وهكذا يبدأ اسبوع ثانٍ من التربية اللاشرعية. كيف تكون محتالاً أو مخادعاً في اللعب غير مكتشف. "هذا شيء غير مهيّئين له طبيعياً"، يتمتم اكسيل، "ان نتعامل بالأشياء بمهارة وسلاسة من دون ان نظهر ذلك. عليك ان تعطي وهم اللاإستثنائي وذلك بأن تبطئ في توزيع الورق وأنك في الواقع أحمق. وبعد ذلك تستطيع هزيمتهم. والآن، أظهر لي عملك الأخرق. وبدا واضحاً لكوبر أنّ على فيغاس، بنظر اكسيل، ان تدفن تحت الرّمل. "عندما انظر إلى هذه القاعدة العسكرية تنتابني آمال عالية بأنّ فيغاس ستنتهي بنفس الطريقة، مع المغنّين الكوميديّين مدفونين فيها. وبعد الف عام سننبش قبر العظيم واين نيوتن وسيصبح إلهاً مجدداً". ولا يتوقف آكسيل عن الكلام. وهذا يذكّر كوبر براكبي الاوتوستوب الذين ما ان يدخلوا السيارة حتى يرطنوا بالعبارات الانجيلية مع ذكر الفصل والآية ليبرهنوا انّ نهاية العالم قد غدت وشيكة قبل نهاية الاسبوع. وها هو اللايهودي يحاضر في الآداب والاسلوب والتركيز. وهو يقول "قيل لي ان تولستوي كان قادراً ان يمشي في غرفة تحوي مجموعة صغيرة من الناس فيفهم كل شيء عنهم في غضون خمس عشرة دقيقة. والشخص الوحيد في الغرفة الذي لم يتمكن من فهمه هو ذاته. هكذا يكون المحترف الجيّد".

يخلط اللاّيهودي الورق ويوزّعه بسرعة وغضب، مُجَذوِلاً ما يحبّه في العالم الذي تركه: قهوَة الإكسبرس، والمكائد في روايات دونال وِستلايك، ونكهة الفلفل الحار. واستمرّ كوبر بمشاهدة توزيع الورق. فإذا اتّهم اللاّيهودي وثبت أنّه مخطئ فسيُغَرَّم ألف دولار. "فقط ألف"، يقول آكسيل، إذ عادة إذا ما اتُّهِمْنا بهتاناً، فنستلّ مسدّساً ونَنْسُفَ كتفكَ. ولا تنسىَ أنه إذا ربحتَ هذا المساء، فَلِينا موجودة وراء الباب. وسأنام

Twitter: @ketab_n

أنا في الخيمة، مُغوِياً ربّما كذئب أكلته الغيرة. لكنّ الصّفقة هي الصّفقة. وقد أخبرتها بالأمر وهي موافِقة، بالمناسبة، على كلّ الرّهانات. ولقد قرأت عن رِهَانٍ مُشَابه في إحدى قصص فولكز". "لا تُلْهِني"، يقول كوبر. "أنا ألهيك! لقد فاتكَ خلطتان فاسدتان خلال القصّة حول تولستوي. فقد كنتَ تستمع وكان هناك مضمون وفكر شبيه بالمتاهة. عليك نسيان المضمون، وفكِّر بالمِقْوَد"...

الثانية صباحاً. ينهض كوبر ويدوّن خسارته على الجدول المعلّق على الباب البرّاق الطّلاء. تنتابه خيبة أمل شديدة. فقد كان يظنّ نفسه ماهراً. "هل تعلم ما هو أفضل سطر في فيلم ما؟" يسأل اللاّيهودي وهو ما زال في مقعده؟

"تستطيع إخباري ذلك غداً" يقول كوبر. "عمتم مساءً". وتسأله لينا في الغرفة الأخرى "خسرت الليلة، أليس كذلك؟" وهو لا يعلم ما إذا كانت تعرف حقّاً الرهانات السخيفة التي طرحها آكسيل. تأخذ يديه. "يداك عظيمتان، هذا ما يخبرني به آكسيل. عمتَ مساءً". ويسير كوبر عبر الظلام ويدخل خيمته فينام في الحال. إلاّ أنّه سرعان ما يستيقظ بعد دقائق قليلة على قهقهاتهما العالية.

وفي إحدى الليالي يترك الرجلان لعب الورق ويمشيان مع لينا لساعات عبر أرض النهر الجافّة. يصعدون مرتفعاً حيث الظّلمة حالكة وبالكاد يُرى القمر، فيجد كوب نفسه أقلّ ما يكون التصاقاً بالأرض. تقف لينا بجانبه وتأخذ يده بيدها فتتداخل أصابعهما. بالنسبة لكوب الذي كان مستوحداً لفترة طويلة، كان الأمر مليئاً بالحميميّة، مُبادرة حِسِّية سرِّيّة. أمّا هي فتلتفّ في الظّلمة وتنظر إلى جانب وجهه قائلة "آه هذا

Twitter: @ketab_n

أنت"، ثمّ ترحل بعيداً. لكنّه يسمعها تقول "آسفة، هذا كان خطأ" فيما كانت تبتعد عنه.

ما زالت تُذَكِّرُهُ بكلير. لقد خلّص آكسيل هذه المرأة من حياة سيّئة الإختيار، وهي تملك طاقة تنبعث من وجه فتاة قَروِيّة. وعندما يرحل كوبر بعد بضعة أيّام ليستَقِلّ الباص الذاهب إلى بايكرسفيلد، تقدّم له وداعاً خجولاً، فيقبّل قميصها المخطّط على رقبتها، ثمّ يقبّل صَدْغها. أمّا آكسيل، الذي كان نادراً ما لامسه طوال إقامته هناك، فقد قدّم له عناق الدّبّ.

على ايّ حال، لقد تعلّم كلّ شيء أتى من أجله. صحيح أنّه ربح مباريات قليلة ضدّ اللاّيهودي، لكنّه بات يعرف ـ رغم أنّ مُعَلّمه لا يقول ذلك ـ أنّه يستطيع الآن توزيع رزمة الورق أمام المحكمة العليا وينجو بفعلته.

وعلى ضوء باص اللّيل الخافت يدرس يديه ويقلّبهما. يدا اللاّيهوديّ تبدوان كيدي فتاة أو أميرة. ويشعر كوب فجأة، وهو ذاهب لملاقاة دورن والآخرين في فيغاس، بأنّه غير مستعدّ. ويدرك أنّه كان يعيش ضمن محادثات خاصّة ومعقّدة كان يجريها مع مجنون مختلّ على ضوء صغير موضوع على طاولة صغيرة داخل دفّاش هوائيّ. فهو يشكّل خطراً على ذاته وكذلك على الآخرين. وعندما يقترب الباص من فيغاس، ينظر إلى الأعلى حيث تبدو السماء وكأنّها مشتعلة فوق مدينة الصحراء.

تبدأ حرب الخليج في الثانية وخمس وثلاثين دقيقة فجراً، خلال الساعات الأولى من السابع عشر من كانون الثاني، ١٩٩١، وهو وقت متأخّر من بعد ظهر آخر في كازينوهات نيفادا. أمّا أجهزة التلفاز المعلّقة

Twitter: @ketab_n

في الهواء، والتي كانت تبثّ عادة إعادة لسباق الأحصنة أو مباريات كرة القدم، فقد كانت تعرض شروحات حيّة عن الهجوم الأميركيّ. وبالنسبة للثلاثة آلاف مقامر الذين كانوا يتنشّقون الأوكسيجين المُضَخ نحو الداخل في الهورس شو فإنّ الحرب كانت مجرّد لعبة فيديو تجري على كوكب خرافيّ. وكانت شاشات التلفاز مضاءة بصمت. هناك قاعات العرض وموسات الهواتف المحمولة ومدلّكات في العمل وطقطقات الفِيَش، فيما لم يقاطع شيءٌ حقيقةَ الكازينو حيث تنظرُ عين السماء نحو الأسفل إلى كلّ يد تلعب على مسطّحات النسيج الأخضر. وفي ذات الوقت في ليلة الصحراء الأخرى كانت طابات النّار وانفجارات الأبيض ـ البرتقالي تضيء الأفق. وفي الثانية وثمانٍ وثلاثين دقيقة كانت الطوّافات وقاذفات الستيلث (المتسلّلة) الأميركية تطلق قذائفها وتسقط قنابلها الخارقة على المدينة. وخلال الأربعة أيّام التالية، حَصَلت إحدى أكبر المذابح التّكنولوجيّة في العصر الحديث. فقد كانت طوّافات الكوبرا والوورتهوغ والسبِكْتِر وتوأمها السبوكي تحوم فوق طريق الصحراء السريع والقوافل العراقية المنسحبة، تصبّ عليها وقود الباريوم الحراري والغازات المتقلّبة والمتفجّرات الباروديّة الدقيقة كي تلتهم كلّ الأوكسيجين في الهواء بحيث تنفجر الأجساد في الأسفل نحو داخلها وينسحق الجنود ضمن ذواتهم.

دورن، صديقته روث، مانشيني وكوبر ـ هؤلاء الأربعة يتحدّثون في الريفر كافيه، السّاعة الواحدة صباحاً. يودّ مانشيني أن يكون داخل المباراة الحقيقيّة ضدّ الأخيرين. لكنّ دورن يقول" لا أستطيع أن أثقَ بكَ، فأنتَ ممثّل جيّد، لكنّك أحياناً شبه شفّاف. نحن بحاجة إلى

Twitter: @ketab_n

الوريث كي يبدو بريئاً، لكنّه رَحَلَ. لذا وَجَبَ أن أكون أنا". لقد أصبح الأمر بِيَدِ دورن.

ـ هل أقود إذاً؟ يسأل مانشيني.

ـ لا بل روث تقود. من الأفضل لكَ أن تجلس مع كوب لبضعة أيّام وتعمل على مَهارة يدَيكَ والتوقيت والحركات. كلّ ذلك.

ـ إذاً ستقود معالِجة النّطق، في حين أنّي شبه مرئيّ. ولن أنزل إلى الرّدهة أبداً.

ـ لا تستطيع، فسيشتمّوننا كفريق. في الواقع، عليكَ أن تكون في مكان آخر أو كازينو آخر تلك الليلة. ما الذي تعرفه عن أوتري؟ هل لديه موزِّع حذق؟

ـ هناك مساعدون يلعبون دائماً معه؛ لذا من الصعوبة أن نحدِّد من المسؤول. فالإحتيال يتحوّل من شخص إلى آخر، على ما أظنّ، كلّ عدّة جولات.

ـ إذاً أقترح أن نفضحهم بإخراجهم جميعاً من تحت الماء، يقول كوبر مقاطِعاً.

ـ عندها لن تحظى أبداً بحياة أخرى في هذه المدينة. فبما أنّهم فاسدون، سوف يلاحظون الفساد. إنّ سبب ذهابكَ إلى اللاّيهودي هو أن تصبح ما أنت فاعله مخفيّاً.

ـ لا آبه.

ـ بل أنا آبه، تقول روث. فهذا عالمنا ونحن نعمل هنا.

يخرج دورن وكوبر من المصعد إلى الطابق الوسط ثمّ ينزلان الدّرَج

Twitter: @ketab_n

إلى مستنقع طاولات اللّعب. يجلس الأخوان دائماً في ناحية من الكازينو هي غرفة صغيرة بجانب قاعة البوكر الكبرى، حيث توجد طاولة منفردة خلف جبال زرقاء. مراقَبَةٌ بدقّة من عين السماء، تمتلك الألعاب الموزّعة يدويّاً جوّاً خطراً شبيهاً بلعبة الفارو القديمة. ما من أحد آمن مع العنصر البشري، لكنّهم جميعاً كانوا قد حُذّروا. وكان دورن، في قميص اصفر كالكناريّ صنع في هاواي، يرتشف كأس سكوتش مراقِباً الأخوين يصطادان مواطِناً. وعندما يلوّح لهما أوتري مرحّباً بهما إلى اللّعب، يتردّد دورن وكوبر في ذلك. وهذا مُتَوَقّع منهما، فعادة هما خجولان مع المولودين ثانية. يشيران له بأنّهما سيأخذان مشروباً آخر وأنّهما قد يعودان، ثمّ يتابعان سيرهما في الكازينو. وبعد ساعة، عندما يخطوان، بالنتيجة، فوق الحبل الأزرق ليجلسا مع أوتري واللّصّيْن، كلٌّ بجانب واحد منهما، يتبيّن بسهولة أنّ هذه المباراة لعبة خاصّة، حيث لن يكون هناك موزّع. لنجابههم يا تكساس؛ هذه هي لعبة الإخوة.

في الجولة الأولى يربح دورن ألفاً. وهذه هي المِصْيَدَة المتوقّعة من الأَخوَين، ويُظْهِر دورن تواضعه، فينحني إلى الأمام بشَعْرِهِ الطويل غير المغسول وابتسامته العريضة. ويبدأ أوتري حواراً ذاتياً حول حال العالم، وهذه الصحراء، وتلك الصحراء المضطرِبة. تتحرّك الأيادي ذهاباً وإياباً لمدّة ساعةٍ، وتلغي الأيادي الجيّدة بالضرورة بعضها الآخر، صعوداً أو هبوطاً بطريقة مألوفة. وكلّما حان دور كوب، يقطع رزمة الأوراق بصدق وأمانة. ويراقب اللاّعبون جميعاً حركة يديه والعادات الدّفينة. ويلاحظ كوب أنّه كلّما قطع اللاّعب الذي بجانبه الورق كان يقطعه تماماً في مكان محدّد. وكان الحديث حول الطاولة مستقرّاً على الأقاصيص والمعلومات المثيرة. لكنّ كوبر ظلّ يفكّر في مقود القيادة. فهو يعرف أنّ

Twitter: @ketab_n

أحداً ما سوف يقوم بخطوة ما سريعاً. وكان مانشيني قد نبّهه "لا تحشو بندقيّتك لمسألة ثانويّة، بل وفّر جهدَكَ لوقت تتصاعد فيه الأمور." ونتيجة لذلك ينتظر كوبر.

تقتضي خطّته، في وقت معيّن، أن يغشّ في البوكر مشكلاً رزمتين كبيرتين خلال عمليّة الخلط - واحدة لأوتري وأخرى أفضل منها لذاتِهِ. ثمّ يضع الرزمة الملغومة من الورق تحت نتوءٍ حيث يقطع اللاّعب الذي إلى يمينه الورقَ عادة. فإذا قطع الرجل على النتوء فلن يكون كوب بحاجة إلى أن يقلب أو يغيّر الرّزمة سِرّيّاً، ويكون بمقدورهم أن يراهنوا بكلّ شيءٍ على القسم المعروف من الورق. وعندما يكون مستعدّاً لفعل ذلك يشير إلى دورن كي يؤمّن تغطيةً كفيلةً بخلق بعض الإلهاء.

بدأت اللّعبة منتصف بعد الظهيرة، والساعة الآن السابعة. يُكمل اللّص الجالس إلى يمين أوتري توزيع لنجابههم يا تكساس. وبعد ذلك بقليل، يقترح دورن أن تُرى الأوراق كي تتضاعف قوّة اللّعبة. هناك خلطتان قبل أن يحين دور كوبر لكي يوزّع مجدّداً. لقد ربح هو ودورن بعض الجولات وخسِرا أخرى، إلاّ أنّهما بالكاد نجيا. فالهجوم الحقيقي ضدّهما لم يكن قد بدأ بعد.

ويَصِفُ دورن الآن شريط أخبار كان قد شاهده عن مذبحة "الصحراء المضطربة" حيث انهالت الطائرات الأميركيّة بعشرة آلاف جولة في الدقيقة على طريق سريع مكتظّ بالجنود الهاربين. وكان يتمتم "هذه هي الأخبار، تماماً كالبارحة. إنّنا نُسْقِط خمس مائة باوند شظايا حادّة بسرعة ٤٠٠٠ قدم في الثانية. وإنّنا نحرق تلك الأجساد من ارتفاعات شاهقة. يقولون إنّ الطّريق السّريع يشبه شاطئ دايتونا خلال

Twitter: @ketab_n

عطلة الربيع". "توقّف"، ينفجر أوتري. لكنّ دورن لا يفعل. "إنّه يوم القيامة... حيث كلّ شيء، كما يُقال، هو فحم حَطَبِيّ. بمعنى أو بآخر". ويُكْمِلُ كوبر دوره في الخلط فيُمرِّر كتلته الصغيرة في أسفل الرّزمة. يحوم الصّمت حول الطاولة. ثمّ يُكمل دورن بتفاصيل أخرى عن الهجوم على الحرس الجمهوري، حتى يرفع أوتري يده مُطالِباً بالصّمت. يستعيد كوبر الرزمة مُظهِراً اهتماماً فَرِحاً فيما يتذكّر أوتري ارتداداً دينيّاً كان قد شاهده تتفوّه به بنتٌ في السادسة بصفحاتٍ كاملة من العهد القديم.

يوزّع كوبر الجولة الأولى من الأوراق ـ ورقتان مقلوبتان لكلّ لاعب. وهذا ما يجري على الطاولة:

دورن	X	أوتري	Y	كوبر
ملك البستوني	٦ ديناري	آس السباتي	٥ سباتي	٧ ديناري
١٠ البستوني	٢ السباتي	آس البستوني	بنت البستوني	٧ السباتي

ويسأل كوبر أوتري أن يُكْمِلَ قصّته ليحوّل انتباهه عن المجموعة الورقية الجيّدة المفاجِئة التي وُزِّعَت له. يراهن دورن فيزيدَهُ أوتري. ويبقى كوبر فيما ينسحب اللّصان. يجلس كوب إلى الوراء الآن مرتاحاً، فلقد تمّ تقرير مصير كامل سلسلة التوزيع خلال جَلْجَلَة الورق وكل ما عليه فعله هو تشغيل يديه. يحرق الورقة التالية مهملاً إيّاها كما يجب عليه أن يفعلَ وذلك قبل توزيع الورقات الثلاث الجامِعة، ساقطة مع وجوهها إلى الأعلى:

دورن	أوتري	كوب
ملك البستوني	آس السباتي	٧ الديناري
١٠ البستوني	آس البستوني	٧ السباتي

Twitter: @ketab_n

آس الكبّا	٧ البستوني	٤ السباتي

لا يمتلك دورن أوراقاً ذات قيمة لكنّه يراهن، ويرفع أوتري الرّهان كونَه يمتلك ثلاثة آسات. ثمّ يبدأ كوبر بالغناء بهدوء "سوف تركض إلى الصخرة طلباً للنّجاة، لكن لن يكون هناك صخرة"، ويلبّي دعوة أوتري للرهان. لفّ دورن أوراقه منسحِباً، وتبدأ اللعبة بالتباطؤ إلى درجة الزّحف.

ثمّ يحرق كوبر الورقة التالية قبل توزيعه الجولة الرابعة. إنّها ورقة غير مؤثّرة ـ الثامنة ديناري ـ إذ إنّها لا تغيّر في قوة ما في اليدين؛ إنّها ببساطة تخلق جولة أخرى من الرّهان.

ـ هل لديك أيّة عائلة؟ يسأل أوتري كوبر، فقد كان يتفحّص إشعاعِيّاً طبيعة الشّاب.

ـ ليس من عائلة، يقول كوبر بهدوء.

ـ وهل لديكَ فتاة؟

ـ ليس لديَّ فتاة. كلاّ يا سيدي. ويطقطق كوبر بلسانه. هل أنت متزوّج؟

ـ نعم، أنا كذلك.

ويراهن أوتري بمبلغ آخر كبير. فيفكّر كوبر ثمّ يخلط فِيَشَهُ. ويفكّر مرة أخرى ويراهن، داعياً أوتري إلى التجاوب. إنّها التاسعة والنصف تقريباً وهناك في الوِعاء مئة ألف دولار وتقريباً نفس المبلغ أمام كلّ من اللاّعبَيْن الباقيَيْن. حتى أوتري يصبح الآن صامتاً بينما يوزّع كوب الورق

Twitter: @ketab_n

الأخير ـ النّهر ـ يهمس له عقله عندما يقلب ورقته الأخيرة. سيُحرق أوتري ويهينه بهذه الورقة المتواضعة، السابع كُبّة:

أوتري	كوبر
آس السباتي	٧ الديناري
آس البستوني	٧ السباتي

الطّاولة

٧ الكبّا	٨ الديناري	٤ السباتي	٧ البستوني	آس الكبّا

ومع الأوراق الجامعة أو المشتركة، السافرة الوجه على الطاولة، يمتلك أوتري الآن مجموعة متكاملة، إذْ لديه ثلاثة آسات وسبعتان. يُستدعى من المدينة ويحرّك كلّ فِيَشه المتبقِّية ويضعها في الوِعاء. يدعوهما كوبَ إلى كشف أوراقهما، فينزل كلٌّ منهما يديه على الطاولة، ويظهر كوب سبعتَيْهِ، قائِلاً" هاكهما".

يلاحظ أوتري أنّ التنّين قد امتلأ سخرية. يسحب كوب نحوه الثلاثمائة ألف دولار ثمّ يقف ببطء.

ـ إجلس يا بنيّ، يهمس أوتري بصوت عميق.

ـ إجلس، يردِّد دورن بِصدى.

يبقى كوبر واقفاً، جامِعاً الفِيَش. ينظر إلى عين السماء التي يدرك أنها تراقبهم ويعلم أنها لم تلتقط أبداً ما كان قد فَعَلَهُ، ثم يلوِّح لها.

Twitter: @ketab_n

ـ"أيّها المعتوه اللّعين، أنتَ مجرّد ولد"، يقول دورن.

يضبط كوبر غضبه الحقيقي وينظر إليه. ثم يمشي نحو"القفص"، ويسحب أمواله، مراقَباً منهم جميعاً. يقف مانشيني في الطبقة الوسطى، ناظراً من فوق الدّرابزين إلى أسفل.

يضغط كوبر على مِكْبَس المصعد ويسافر إلى الطبقة الحادية عشرة. ثمّ يخرج نزولاً عبر الدّرج نحو موقف المرآب، باحثاً عن سيارة دورن. تغمز مصابيحها بصمت فيتوجّه نحو العربة. تنسَلّ روث نحو مقعد الراكب الأمامي قائلة:"هل سار كلّ شيء على ما يرام؟" "أجل". يقودان السيّارة خارج ظلمة المرآب نحو عالم كهرباء الصحراء المنعطفة. وفي غضون عشرين دقيقة كانا خارج المدينة.

طوال اللّيل كان الرّاديو يبثّ أخبار الحرب. وكانت روث تتّكئ على باب الرّاكب تراقبه. أمّا كوبر، وهو عادة شخص ذو أعمال متواضعة، فكان يشعر بحماقة تجاه إسرافِهِ. تُرَبّتُ على كتفه بأصابعها فينتبه لتركيزه على الطريق.

سألَتْهُ:"هل تَعرف خيار صوفي؟ أي الكتاب؟ سمعتُ أنّ شخصاً كتبه، وذلك مرة عبر الراديو. وكانوا يسألونه ما هو فاعله، لكنّه لم يُرد الإجابة.

وخلال إعطائه الأعذار عن عدم قوله ما هو فاعله قال"أتعلم أنّي أظنّ أنّي كَتَبْتُ أكثر الكتب حميميّة وعمقاً ولن أكتبَ مثله ثانية، إذ ليس باستطاعتي الذهابِ إلى هذا البُعد. وسأجرّب الكوميديا من الآن فصاعداً. أعلم أنّها ليست سهلة، لكن على الأقل هي لا تسلك الطريق نفسه. وأحبَبْتُ ذلك فيه وما قاله ذاك الكاتب. ومنذ ذلك الوقت أقرأ له

Twitter: @ketab_n

كلّ ما ينتجه، لكن بالطبع ليس هناك من كوميديا. وأنتَ بالطبع ليس باستطاعتِكَ، العودة مجدّداً.

ـ أعلم ذلك، قالها كوبر بهدوء، حتّى أنّها بالكاد سَمِعَتْهُ.

ما لبثت روث أن نامَت، مدركةً أنّها ستقود عائدةً إلى فيغاس في الصباح الباكر. يدير كوبر زرّ الرّاديو، باحثاً عن تفاصيل أكثر بما يتعلّق بالحرب، لكنّ التفاصيل تافهة. يدرك أنه قد أنهى مهنته في فيغاس وحتى في تاهو وذلك بطريقة ربحه البارزة الوضوح والجرأة والإدّعاء. لقد نَبّهَه اللاّيهودي، في درسِهِ الأوّل، من مَغَبَّة المراوغة واللاإستقامة. وكان آكسيل، كموزِّع، ينتمي إلى المدرسة الطبيعيّة، مع الرغبة في الإيهام أن ليس من جديد يحصل. وما حصل مع الإخوة لم يكن حظّاً. وعلى دورن ربّما أن يُبْعِدَ اللّهيب عن نفسِه وذلك بأنْ يبيت الليلة في الكازينو، متصرّفاً بأسلوب يوحي بأنّه غاضب من كوبر. وهو يعلم بأنّ روث ستعود بالسيّارة متسلّلة إلى موقف المرآب وذلك قبل الفجر بحيث يصبحانِ حُرّين من شكوك الإخوة.

يتوقّفان كي يحتسيا شراباً في حانة طريق. وعندما يعودان إلى السيارة، يقوم كوبر بتوزيع المال إلى أربع حصص متوازية، واضِعاً حصّته في حقيبة قديمة تحمل إسم الخطوط الجويّة الشمال ـ غربيّة. ثم يعاودان القيادة ثانية، وأخيراً، وقد فتحا النّوافذ، بحيث كان نسيم الطريق السريع يمسحه جانبيّاً. وفي إحدى المرّات، يبطئ السيارة حتّى حدود التوقّف، فتسأله روث "ما الأمر؟" فيجيب أنّ هناك بومة على الطريق ترفض كما يبدو أن تتركَ حرارة الطريق السريع، ثم يلتفّ كوب حولها ويتابع سيره. وعندما يَصِلاَن إلى محطة الباصات في توناباه، يبقى

Twitter: @ketab_n

جالساً لمدة أطول ويداه على المقود وكأنّ عليه أن يقطع أميالاً أخرى. ولكنّهما ما يلبثان أن يترجّلا فتقترب روث من باب السائق ويتعانقان. على كوب أن يختفي، ولن يرى هؤلاء الأصدقاء أبداً بعد الآن. يسحب حقيبة الخطوط الجويّة ويمشي بعيداً عن السيارة. تدير روث السيارة وتنطلق بها بعد لحظات، مارّةً مع ضربة خفيفة على الزمّور ويدها الأخرى تلوّح خارج النافذة. لكن كوب لا يعترف بهذا الوداع الثاني، فقد أصبح للتوّ غريباً.

وفي السابعة والنصف من الصباح التالي، عندما وصل دورن ومانشيني لتناول الفطور في مقهى النّهر، كانت روث تجلس وحيدة في المطعم المطعَّم بقليل من الفوضى. تتثاقل أربع نادلات بمشيتهنّ في النهر الإصطناعي الفائض، وقد انتَعَلْنَ أحذية مَطّاطِيّة. وكُنَّ يبحَثْنَ تحت الحجارة الكبيرة عن ماسورة المِضَخَّة التي تعطّلَتْ خلال الليل. "النّهر في حداد" يقول مانشيني. هم يدركون أنّ "وريثهم" كوبر قد اصطبغ بطابة سوداء مدى الحياة وحتماً في كل الكازينوهات الكبيرة. وهم يدركون أيضاً أنّ ثلاثتهم قد أُلصِقوا به جيداً بطريقة ما. وبَدَلَ أن يتحدّثوا عن ذلك، كانوا يراقبون النّادلات اللّواتي بَدَأْنَ الآن بالضّحك والتمتّع من خلال اللّعب والتضارب بالمياه.

Twitter: @ketab_n

الغجري

كانت تمشي متتبّعَةً ممرّاً لنبات شائك دائم الإخضرار يدعى الجَوْلق وكان وجهها وشعرها الفاتِح في ليترٍ من الضّوء ينبعث من أغصان السنديان العالية فوقها. وكانت تتحرّك بخطوات سريعة وذلك منذ تلك الحادثة لأيّام قليلة مضت عندما تلاقَتْ بأربعة رجال مع بنادقهم وكلابهم. كانوا يقفون على مفترق طرق صغير في الغابة يتجادلون، صائحين بوجه بعضهم الآخر، وعندما اقتربَتْ منهم رماها الرجال بتعليقات إيحائيّة باللّغة الفرنسية، فتظاهرَت بأنها لم تَفْهَمها. ولقد هَدّ جوّ التهديد ذاك أعصابها. لكن رغم الحادثة رفضت آنا أن توقِفَ سَيْرها كل بعد ظهيرة، فكانت تسلك ممرّ الغابة لِتَصِلَ إلى العراء ومن ثمّ كانت تَتَبَعُ النّهر حتى تَصِلَ إلى الطريق المعبَّدة على مسافة نصف ميل من قرية ديمو. وكان سيرها على حافة الرّكض. وفي ديمو كانت تشتري البقولات وتضعها في حقيبة ظهرها ثمّ تقفل عائدة إلى المنزل الذي كانت تَصِله، بتلك السرعة، في ساعة ونصف. كان المنزل إرثاً إقطاعِيّاً، وكانت هي مستأجرة مؤقّتة لذاك المنزل. ظنّته في البداية قصراً، لكنّه لم يكن كذلك، فهي لم تكن قد أقامَتْ قَبْلاً في قصر فرنسي، تماماً كما أنّها لم تكن قد رأت من قَبل كلب صيد حتى ما بعد الظهيرة تلك عندما شاهدته بصحبة الرّجال المتحاربين.

Twitter: @ketab_n

كانت آنّا تقضي معظم أيّامها تعمل في الداخل على طاولة مطبخ، قارئة مخطوطات لوسيان سيغورا ويوميّاته المدوّنة بخطّ اليد. وكان هذا المنزل الإقطاعي يوماً بيته، فَوَجَدَت نفسها في نوع من الرقص المتواضع والمتوازي معه، بحيث أنّه عندما كانت تنظر من حيث تعمل إلى أعلى كانت بحاجة إلى لحظات كي تميّز الغرفة التي هي فيها والممرّات المؤدّية إليها ـ إذْ كانت حتى تلك اللّحظة منغمسة في كشف ومقاربة تفاصيل حياة ذاك الكاتب الفرنسي، غائصة تحت سطح أعماله. وسرى تعبير بين زملائها يصف ما تفعله بأنّه "كِناسة لبيت المترجم". وكانت تدرِكُ أنّها إذا صَعِدَت السلالم الحجريّة والتَفَتْ يساراً، فإنّها ستكون داخل غرفة نومه، حيث باستطاعتها النّظر إلى أسفل نحو أغصان شجرة السنديان الكبيرة بالطريقة ذاتها التي من الممكن أن يكون الرّجل الفرنسيّ قد قام بها أثناء اللّباس قرب النافذة لأجيالٍ خَلَتْ.

ومرّة في الأسبوع كانت مدام كيو تأتي مع زوجها. فكانت تنظّف المنزل من الغبار بصمت في حين كان زوجها يستطلع الحديقة جامعاً الأغصان ومنظّفاً مراقِد الأزهار، وكان يعمل أيضاً كساعي بريد في القرية. كانا يبقيان طوال الصباح ثمّ يرحلان. أمّا عندما لم يستوطن أحد المنزل فكان الزوجان يأتِيان بوتيرة أكبر متصرِّفين كمسؤولين عن المنزل بدوام كلّيّ. أمّا مع وجود آنّا، فكانا ينزلان من سيارة الرينو ٤ الزرقاء ليخبراها عن أحوال العالَم وعن السياسيِّين المحليّين وعن الحروب العديدة. وقد ينظر السّيِّد كيو نحو الحقل ليقرِّر أنّ باستطاعته الذهاب وتأجيل العمل به إلى أسبوع آخر. أمّا السيدة كيو فقد حاوَلَتْ أن تعلّم آنّا المبادئ الأساسية لطهو يخنة الأرنب في صحن كبير واحد يوفِّر عليها تحضير الغداء لثلاثة أيّام.

Twitter: @ketab_n

وكان الزوج يمشي استدارة حائط الحديقة، مدخّناً غليونه، ومفكّراً إذا ما نجح جمّ الأشجار. ثمّ ما يلبث أن يدور حول المنزل نحو الباب المؤدّي إلى المرعى أو المرج الخلفي والذي من المفترض أن يكون مفتوحاً. وعِبْرَهُ كان يرى آنّا منحنية فوق الطاولة تكتب أو تقرأ كتاباً ضخماً، غير ناظِرة إلى أعلى وغير مدركة لوجوده على بُعد خطوات قليلة من ممرّ الباب المفتوح. وكان يهزّ رأسه ثمّ يرحل عنها. إنّ تلك المرأة من أميركا، هذا ما قالته له زوجته. وعندما كانت تقف كانت بطوله، مع شعر فاتح اللون متدلٍّ إلى عنقها. وكانت تبدو قويّة وصحيحة البنية، كما كانت قد سألَتْهُ بفرنسيّتها القادمة من العالم الجديد عن الأماكن الجيّدة التي تستطيع المشي فيها، فرسم لها خارطة بأفضل الممرّات والطرّق التي حيكَت في عدة ممتلكات وعبرت النهر. وذكّرها بأنّ عليها أن تغلق كلّ البوّابات. عندما كان صاحب المنزل يأتي إلى هناك ما كان ليمكث طويلاً بل كان يذهب لجمع ترسبّات مستقطرة خمرّية في منطقة أرمناك أو لقضاء مهمة أخرى. لكنّ هذه الزائرة كانت مختلفة، فهي لم يكن لديها الرغبة لتمضية الوقت في المدينة بل كانت مكتفية بالمكوث هنا. قد تُمضي نصف ساعة في التحدّث عندما كانا يأتيان يوماً في الأسبوع، لكنّها لا تلبث أن تعود إلى الطاولة مع كتبها. كان يعلم أنّها كانت تسير في القرية بين الفينة والأخرى. فهو كساعي بريد كان دائم الترحال وكان هذا يجري في دمه. إنّ المكوث في منزل طوال النّهار بدا أمراً غير طبيعيّ. لذا عندما قادته إلى الغرفة الخلفيّة ورافقته عبر ممرّ المنزل الضيّق نحو المطبخ حيث رأى الباب المفتوح والمؤدّي إلى المرج وحيث كان قد وقف يراقب عملها في الأسبوع

Twitter: @ketab_n

الفائت، عرضت عليه الآن ورقة فقام برسم الخريطة لها بوضوح ورقّة. فقد علّمه عمله دقّة المسافات بالكيلومترات وحدود الممتلكات ومجاري الجداول. رسم مستطيل المنزل ودائرة بيضاويّة سريعة للمرح ثم أعاد خلق العالم الخارجيّ، منهياً بالأجمات البعيدة وغابات الغزلان ومستثنياً الأماكن التي عليها تجنّبها والتي يقطنها السّيّاح. وبكلمات آنا، كانت الخريطة بمثابة حارس لها، وقد تقوم في يوم من الأيام ببروَزتها وتعليقها في غرفة جلوسها في شارع ديفيساديرو في سان فرنسيسكو كقلب تذكار خاص. وفي مكانٍ ما من عقلها كانت تشعر أنّه إذا ازدادت الأمور سوءاً فهي تستطيع دائماً أن تهرب مجدّداً إلى هنا.

وحين سارت آنا حملت معها الخريطة، فمنذ اليوم الذي كانت قد التقت فيه الصيّادين الأربعة، وهي تلبس الجينز بدلاً من التنورة كما أنها "تحلق" عشر دقائق من مسيرة التسعين دقيقة. لكن حيث كانت الآن، بمحاذاة سياج نباتات الجولق، فإنّ الطريق لم يكن سويّاً بل مكسّراً بالحجارة ولذلك كانت بحاجة إلى أن تبطئ. وعندما تركت الممّر أمسكها بنات العرعر من قدميها، رامياً برائحته حولها. وكان ضوء الشمس يتساقط عبر الأشجار، وعندما توقّفت لتنظر إلى الأعلى نحو الجمال المبعثر، سمعت الموسيقى.

ما سمعته هو امرأة تغنّي. فلو أنّها فكّرت أنّه كان هناك رجال، لما كانت قد مشت نحو الصّوت. لكنّ الصّوت كان مغرياً إذ كان صوت امرأة ذات لحن يبدو أنّه بلا سُلّم موسيقى بل جاء عفويّاً جدّاً ليخسر من جودته. ورغم ذلك كان الصوت واضحاً كصوت المياه. ووقفت آنا

Twitter: @ketab_n

حيث كانت لبرهة أطول فرأت عصفوراً دوريّاً يقفز من غصن إلى آخر بتثاقلٍ وقلّة براعة. مشت بهدي نحو العراء، متوقّفة مرّة أو اثنتين، ومحاولة تفسير اللّحن.

وولجت الحقل الذي لا تغطيه الأشجار، فرأت امرأة، ثم رأت رجلاً يجلس على كرسي ذي ظهر مستقيم، مرافقاً إيّاها على ما يبدو أنه غيتار. لم يرياها في البدء، لكنهما حكماً قد أحسّا بشيءٍ، ربما بهدوء مباغت في الأشجار فوقها. فاستدارت المرأة، وعندما شاهدت آنّا توقّفت عن الغناء ومشت بعيداً، تاركةً الرّجل وحده في حقل العراء.

عَنَتْ فرنسا لآنّا بأنّها الزّمن الهادئ والمجهول. فبعيداً عن زيارات السَيِّد كيو وزوجته، فإنّها لم تَرَ أحداً. ولم يكن هناك شيء في منزل الكاتب ليذكّرها بأميركا الشماليّة. لقد كانتْ تهرب من نواحي حياتها المهنيّة المتعدِّدة، من معارف، وآمال محدودة وطلبات لكتابة المقدِّمات، وكلُّها واجبات أساسيّة لو أنّها كانت تعيش في عالمها الحقيقيّ. إنّ الشيء الوحيد الذي كان قد أزعجها في الوقت الذي قَضَتْهُ حتّى الآن في منطقة غِرْس الفرنسيّة هو مجموعة الرّجال الذين كانوا على مفترق الطرق مع كلابهم، إذ كانت ألسنتهم تتدلّى في سخرية وقبضاتهم تلوِّح في الهواء حين مَشَتْ بعيداً. شَعَرَتْ بالإرتياح في المنزل المتواضع وبات فضولها بلا هدف، وكأنّها تبدأ حياة جديدة. وكانت تتمتّع بعمليّة ملء المدوّنات بالتعابير وحتّى بالرّسوم، وهذا أمر لا علاقة له بِبَحْثِها. فإذا سمِعَتْ صوت طائر عبر الباب المفتوح قرب طاولتها، فإنّها كانت تُفْصِحُ عن ذلك صوتيّاً على الصفحة. كانت تفعل ذلك كلّما سَمِعَتْ صوتاً واضِحاً كفاية. وعندما كانت تتصفّح مدوّناتها المهووسة،

Twitter: @ketab_n

كانت آنّا تجد سلسلة من أوتار الطّير الغنائية أو تجد رسماً للشَّوْك أو لسيّارة آل كيو الرّينو.

أدار رجل الغيتار رأسه لينظر إليها. وَأَحَسَّت آنّا أنّ عليها أن تقوم بحركةٍ ما لتتجنَّب أن تكون فظّةً، ولذلك تحرّكت إلى الأمام لتقول شيئاً. وشاهَدَ الرّجل العشب غير المتوازي الذي عَبَرَتْه حين كانت تقترب منه.

ـ مرحباً. أنا آسفة.

وكأنّها قدِمَت إلى هنا لتقاطعه ثمّ تقول له إنّها آسفة.

هناك أمر ما، فلقد شَعَرَتْ بالأمان الكلّي، وذلك ليس بسبب الواقع المتجلّي بكونه كان يحمل غيتاراً وليس سلاحاً. بل كان الأمر يتعلّق بنظرتِهِ وكأنّه كان قد أُخِذَ للتّو من الملجأ بينما كانت هي الآن تحثّه على العودة إلى الأرض. وعندما مَشَتْ تلك الخطوات القليلة الباقية نحوه، أيقنت أنّه لا بدّ من أنّها كانت قد سَمِعَتْ عَزْفَهُ عندما دَخَلَتْ العراء، دَنْدَنَةً وخرفشةً باطنيتين، إيقاعاً ولحناً ـ ولذلك لم تكن المرأة بحاجة إلى أيّ من هذه في أغنيتها. فالمرأة هي التي كانت تواكِبُهُ. وبدا الأمر الآن وكأنّ كلّ ما كانت قد سَمِعَتْهُ قد أُعيد عَزْفُهُ في ذاكرتها، واستُعيد بطريقة مختلفة. لقد كان هو الذي جَذَبَها إلى العراء.

كان غيتاراً مُهَلْهَلاً، وعندما اقتربَتْ مِنه كان بمقدورِها رؤية يدَيْه وقد لسعَتهما الحشرات حتّى بدت عليهما النّدوب. أمّا ثِيابه، التي بَدَتْ رسميّة عن بُعْد، فقد كانت غير مكويّة وَمُوحِلَة على الأكمام، فيما خَسِرَتْ سترة الصّدرِ أزرارها. لكنّ اليدين هما اللّتان أَظْهرتا انهماكهما بالحياة واستهلاكها لهما.

Twitter: @ketab_n

ونَظَرَت في الإتجاه الّذي سارت فيه المرأة، فرأت عربانة كرافان في الأفياء، بين الشجر.

وكان هذا العراء نفسه الذي وَقَفَتْ فيه آنا مع صديقتها برانكا في اللّيلة الثانية لوصولهما إلى ديمو منذ أكثر من أسبوع. وبدا العشب حينها موضعاً مسطحاً ومرحاً للقمر. وكانت حينها ترتدي فستاناً بلا أكمام بعد أن تَقَلّبَتْ جانبيّاً على العشب وكأنّ في يدها مكنسة مذهّبة فبدت بلا لون في ضوء القمر ذاك .

ولم تكن قد دَرَتْ وقتذاك بوجود عربانة أو أيّ قاطن في تلك الناحية باستثنائها وبرانكا والتي كانت قد أوصلتها إلى هناك من باريس. ومكثت برانكا، المهندسة المعمارية، يوماً واحداً فقط. وكانت هي التي ساعدَتْ آنا في استئجار منزل الكاتب وذلك من خلال وسيط في شركتها. ومشتا عائِدَتين إلى القصر الصغير متسلّقتين الشّجيرات الواطئة لتجدا فَجَوات في النباتات بدت واضحة في ضوء القمر.

لو اقتربَت آنا أكثر من رجل الغيتار لبَدَتْ تتخطّى منطقته، وإذا بَقِيَتْ أربع خطوات أو أكثر بعيدة عنه لَبَدا ذلك إشارة خوف، رغم عدم وجود شيء كهذا. لقد بدا رجلاً متمالكاً وقد وضع إحدى ذراعيه فوق غيتاره وكأنّه كلب الصّيد المفضّل لديه.

ـ "أنا آسفة لمقاطعتك. لكنّ ذلك كان جميلاً". في الحقيقة لم تَشْعر بذلك. بل إنّ الموسيقى كانت فقط غريبة وهي تأتي عبر الأشجار إلى حيث كانت تقف. كان شيئاً غير متوقَّع وربّما لذلك كان جميلاً. هي لم تكذب كلّيّاً فلقد هدّأت الأوتار الموسيقيّة كلّ شيءٍ، حتى الحشرات أوقَفَتْ شغل صنّارتها. نَظَرَتْ نحو الأشجار الهادئة.

Twitter: @ketab_n

ـ لم أكن أعلم أنّك تعيش هنا. لقد كنتُ هنا مرة في إحدى الليالي.

ومَسَحَتْ أصابع يده اليمنى الأوتار مُبَعْثِرَةً ستّة نوتات باتجاهها كمَرْوَحَةٍ. وابتسم لها لبرهة ثُمَّ غَرِقَ في لحن وبدا وكأنّه يعزف كلّ شيءٍ ـ الأجراسَ والطّبولَ والصَّوت الخفيّ.

وأخبرها في وقت لاحق أنّه كان يجلس في هذا الحقل عندما كان صَبيّاً يعزف بموازاة غناء أمّه. ولم يكن ينظر إلى الأوتار بل إلى وجه أمّه كي يلتقط انعطافات اللّحن السريعة. ولم يكن هناك دليل على سرعة صوته إلاّ من خلال عينيها ـ هذا الطّائِر وتِلكَ السُّمْنَة ـ ورغم ذلك كان يبقى بجانبها، ملتقِطاً النّوتات وكأنّهُ يَعِدُّ سرعة الحجارة بالكيلومترات وهي تطير منحدرة فوق الطريق. وكان يشعر دائماً كصبيّ أنّ دروسه الموسيقيّة كانت شبكة لالتقاط كلّ شيء حوله ـ حشرات الحقل وتقلّبات الطقس في الأشجار ـ وذلك كي يقدّمها كهويّة مجتمعة، كَيَدٍ مقعَّرَة مليئة بالماء البارد ومعروضة على صديق.

عندما انتهى قال: لم تغنّي ولم تشاركيني.

ـ كلاّ، لقد كنتُ الإطار الإحتياطيّ.

ـ للموسيقى عدّة دواليب وهذا ما يجعلها ممتِعَة.

ـ المغنّية الأخرى...

لم تدرِ آنا ما عليها قوله أو ما عليها الإستفسار عنه.

ـ إنّها تأتي من القرية لتأخذ دروساً أُعطيها مرّة في الأسبوع. وأنتِ، هل تأتين من المنزل الذي فيه عِلِّيَّة؟

ردّت بالإيجاب.

Twitter: @ketab_n

حطّت نحلة على رقبة رجل الغيتار فَجَمَعَ شفتيه ونفخها بعيداً، وعندما عادت بعد دائرة سريعة في الهواء، نقفها سريعاً بإصبعه الأوسط، وسقطَتْ مصابَةً على العشب.

ـ إسمي رافايل إذا أَرَدْتِ معرفته.

ـ آه نعم، آه نعم، لقد أخبرني عنك صاحب القصر. قال إنّك قد تكون هنا. ثمّ نَظَرَتْ إلى الوراء وقالت: عليّ الذهاب على ما أظنّ.

عَرَضَ عليها أن يرافقها، لكنّه لم يأخذ طريقاً مباشرةً إلى المنزل. قادَها سائراً فوق النباتات. وكان عليهما مضاعفة انحنائهما لكي يسيرا تحت أغصان الشجر الواطئة. وتجاهل ممراً جَلِيّاً على خطوات قليلة إلى يمينهما، وكأنَّ لديه عقل بقرة، أو لأنه غراب وسط الهواء، مُدْرِكاً طريقاً طبيعيّةً أفضل. على أيّ حال، إنّ سَيْرهما في هذا الدّرب أخذ منهما وقتاً أطول لكي يَصِلا إلى المنزل. والرّاحة التي كانت قد شَعَرَتْ بها في الحقل قد استُبْدِلَتْ بالخدوش وببعض الإنزعاج منه.

سأَلَتهُ وهي واقفةً بباب المطبخ إذا ما كان عطشاناً، وتحت دفق الحنفيّة ملأت قَدَحَيْن وَدَعَتْهُ للجلوس إلى الطاولة التي كانت مغطّاة بالكتب والأوراق. دَفَعَتْ ذراعه اليمنى بعضاً منها جانباً ليعطي نَفْسه مكاناً أرحب، لكنّه لم ينظر إلى محتوياتها.

وَبَحَثَتْ عيناه، بدلاً من ذلك، في الغرفة، كما تفعل عَيْنا اللّص. ليس من المفترض أن تدعو الغرباء إلى الدّاخل من أجل شراب بهذه الطّريقة، لكنَّ آنا لم تكن قد تحدَّثَتْ إلى أحد منذ أيّام. كان ينظر إلى الأثاث والصُّور، مستهلِكاً إيّاها، وبنفس الطريقة التي كان قد نَظَرَ بها

Twitter: @ketab_n

إليها، بفضولٍ أو بِلِذَّة. وهكذا راقب الكأس الحمراء اللّماعة التي كان يحملها بين يَدَيْهِ.

ـ لقد عرفَ البعض والدي كلصّ، قالها وكأنّه قرأ عقلها بما يتعلّق بالطريقة التي كان ينظر بها إلى محتويات الغرفة. لكنّه لم يكن يسرق من المنازل التي كان يُدعى إليها.

ـ هذا تمدُّن. أجابَتْهُ بطريقة تبدو فيها مرتاحة إلى هذه المعلومة.

ـ أعتقد ذلك أيضاً. زيدي على ذلك أنّ مهنته عَلَّمَتْهُ، وقد عَلَّمَني ذلك، حول قيمة الأشياء التي ليس من الممكن أن أمتَلِكَها. بالنسبة لي، مثلاً، ما هو أكثر قيمة في هذه الغرفة هو هذه الطاولة الزّرقاء. لكنّني أعلم أنّ لا قيمة فعليّة لها.

ـ هل يقيم والِدُكَ بالقرب من هنا؟

ـ إنّه ليس فرنسيّاً، لكنّه بعد الحرب لم يذهب إلى وطنه بل التقى والدتي. وكان جُرِحَ في الحرب. ونظَّم بعدئذٍ مجموعة صغيرة كانت تختلِسُ ـ هل هذه هي الكلمة؟ ـ من المنازل التي لم تكن قد دُعِيَت إليها. لقد مرّ بظروف صعبة أثناء الحرب، وأظنّ أنّه كان يشعر بأنّ كلّ من حارب أعطى أكثر مما أُعطيَ.

إذاً كان مختَلِساً. تعبير طريف. قُلتَ أنّ إسمَك ماذا؟

رافايل.

وماذا عن والدكَ؟

لم يُرِدْ لي أن أكون لصّاً.

Twitter: @ketab_n

وأمُكَ؟ هل كانت لِصّة أيضاً؟ ضَحِكَ منها متشدِّقاً. هل التقيا أثناء عمليّة سطو؟

تقريباً. حصل ذلك في السِّجن. كانت تعمل بنصف دوام في مقرٍّ للشرطة، وأظنّ أنّه سحرها، رغم أنه أكبر منها. هل أستطيع أخذ المزيد من الماء؟

نعم، بالطّبع. تحّركت نحو المجلس بكوب أحمر، ثمّ قالت: لقد التقيت بعض الصيّادين الغرباء هنا في الغابة ذاك النّهار.

هناك أناس مرعبون في كلّ المكان. مثلي تماماً. ضَحِكَتْ حينها.

هنا حديقة كبيرة، أَلَيْسَ كذلك؟ أودّ مشاهدتها. إذْ أستطيع طَهْوَ شيءٍ لكِ.

إنّها خارج ذلك الباب. التَقِط ما شِئْتَ.

وَقَفَتْ آنّا أمام المرآة المرقّطة تغسل وجهها وذراعَيْها ثمّ تمسحُ ساقَيْها بمنشفة رطبة بارِدة. وحين مَشَت في الحديقة بعد ذلك، رَأَتْهُ يدخِّن سيكارةً، ناظراً صوب أثلام الخضار.

من هم هؤلاء الصيّادون؟ هل هم من القرية؟

لا أستطيع مساعدتِك، فنحن نبقي الأمور ضِمننا.

أظن إذاً أنّكَ لن تخبرني حتى لو عَلِمْتَ. لقد كنت خائفة، لا أخفي عَنك الأمر.

وحين كانت تتكلّم، سحب قطعة قماش خضراء من إحدى جيوب سِترته الدّاخلية:

Twitter: @ketab_n

أربطي هذه حول ذراعكِ عندما تتنزّهين، وسوف تكونين في أمان.

أخذَتْ قطعة القماش بيديها.

هل كان والدُكَ إنكليزياً؟ فأنت تتكلمها بكثيرٍ...

كان والدي يتقنها.

هل يأتي إلى هنا؟

لم يأتِ من زمن.

حسناً، إذا ما قَدِمَ فسأدْعوه بالتأكيد إلى الدخول.

قرْفَص رافايل، وبدأ يَقْطِف الفاصوليا، ويرميها في قطعة القماش التي كانت تحملها مفتوحة.

ألديكِ قطعة لحم صغيرة من العِجل؟

سآخذ هذه إلى الدّاخل وأحضِر القليل من اللّحم المُقدّد لنا.

بعد دقائق قليلة، دخل إلى المنزل، ثمّ أَفْرَغَ نَبَتَة إكليل الجبل وأربع حبّات تين من جيبه.

وبدأ بصنع السَّلَطَة قاطِعاً شرائح صغيرة من الثّوم فيها.

- إذاً كيف تخلَّصْتَ من حياة الجريمة ومن والدِكَ السَّاحر؟

كانت آنا تتكلّم معه وكأنّه صديق قديم من أيّام الطّفولة لكنّه بَدَّلَ مَنْظَرُه لِيُصْبِحَ هذا الرَّجل السّمين. وكانت أصابعه الموسيقيّة تلاعب حبات البندورة، أمّا العينان اللّتان كانتا تُسرِّحان النّظر في أرجاء الغرفة فكانتا الآن تحدّقان بها بسهولة. ولم يَعُدْ يبدو بتاتاً غامِضاً أو متشنّجاً بسبب وجوده في المنزل. لقد بدأ يتصرف معها على سجيته. حتّى أنّه

Twitter: @ketab_n

عندما مارسا الجنس لأوّل مرّة، وذلك أيّاماً قليلة بعد هذا الغداء، كان تردّدة مفاجِئاً. لم ينسحب بعيداً، لكنّه بالكاد تقدّم نحوها. وما كان قد بدا ألوفاً إلى طاولة المطبخ أصبح الآن خَجَلاً وربّما عَجزاً، وكأنّه كان قد تعرَّضَ في الماضي لِجرْقٍ معيّن. لم يفعلا شيئاً سوى معانقة بعضهما، وبدا الآن وكأنّه مكتفٍ بِنَفَسِها على كَتِفِهِ. أمّا الشّامَة على ذراعها الأعلى فجعلته ينام مفكّراً بهذه النقطة السّوداء الصغيرة.

لم يكن، حُكْماً، مغروراً بل اعترف بسهولة باستدارته الوَسَطِيّة السّمينة وبصحتّه غير المكتملة.

وبعد أن انتهيا من ممارسة الحبّ باكتفاء (على قَدرِ ما تستطيع افتراضه لكليهما)، وَقَفَ وامتحن بطَّتَيْ ساقَيْهِ بالقفزِ عارِياً، ثمّ مشى نحو النافِذَة وَفَتَحَها، ودخّن سيكارة هناك، محدِّقاً نحو الخارج وغير مكترثٍ كيف يبدو في وضعيّة الجسم تلك الّتي أضاعتها الشّمس. وسيذكُر لاحقاً أنه لم يكن مهتماً بجسده. ولم تكن آنّا قد التقَتْ بشخص مثله، فلم يظهر أيّ ذكرى قاتمة فيه، رغم أنّه أخبرها لاحقاً عن علاقة سابقة كانت قد أَخْرَسَتْهُ تماماً ولم يعد بإمكانه تقريباً الخروج منها. وكان في الواقع يبوح بما لديه لأول مرةٍ لها. فقالت له آنّا حينها: هناك حَتْمًا أناس مثلنا في كلّ أنحاء العالم مجروحون بطريقةٍ ما بسبب وقوعهم في الحبّ الذي هو على ما يبدو أكثر الأفعال طبيعيّة.

وأخبرها عن أغنية لم يعد يعزفها وتتعلّق بكلّ ذلك. وكانت تَتَمَحْوَر حول امرأة نهضت من سريرها في منتصف اللّيل وهَجرتهُ. وكان يسمع عن وجودِها في قرى الشمال، لكنّها كانت ترحل قبل وصول شائعة حضوره إليها. كانت أغنية البحث اللاّمتناهي، يغنّيها هذا الرَّجُل الذي لم

Twitter: @ketab_n

يكن حتّى ذلك الوقت قد كَشَفَ بالكادِ عن نَفسهِ. وكانت أصابعه القويّة تَنزَعُ القلب من غيتاره، فكان يغنّي هذه الأغنية لِمَنْ ترعرعوا على موسيقاه عبر السنين ولِمَنْ أَلِفوا مهارَتَهُ في تجنّب الضّوء السّاطع. عرف سمعته المتعلّقة بالخجل والحيلة، لكنّه أقرّ بنَفْسِهِ المشوَّهَة لأصدقائِه "إذا ما رآها أحدُكُم في ترحالِهِ ـ لِيَصْرخ لي، ليصفّر..." كما كان يغنّي. وأصبَحَتْ عادةً لدى مستمعيه أن يصرخِوا ويصفّروا إستجابة لتلك الأسطر. ولم يعد لَهُ أيّ مكان ليختبئ فيه ومعه تلك الأغنية بكلّ أبوابها ونوافذها المفتوحة. حتى أنّه كان يمشي خارجها بلا فنٌّ فتمتزج الإستجابات اللاّصوتيّة أو الضّوضائية معه وكأنّه لم يَعُدْ على خشبة المسرح.

في الأيّام التي سَبَقَتْ نوم آنّا معه، لم يكن يتوقّع أيّ بادرة اهتمام منها، فَبَدَتْ غَدَواتهما خالية من المغازلة. وكان أوّل بعد ظهيرة لهما في الغرفة العُلْوِيّة من المنزل لطيفاً كذلك، فلم يكن قد أحبّ أحدهما الآخر بعد. إذن لم يكن في علاقتهما شيء مصيريّ أو مميت عندما استيقظا في ذراعَي بعضهما، وجهاً لوجه، على مسافة نَفَس. وَعَبَقَتْ في ذاك الفضاء الصّغير بينهما رائحة نبتة السيلانترو. وكان لديه شغف بها فاستعملها بعد سحقها في سَلَطَتهما لساعات قليلة خلت. وكانت جيوبُه دائماً تَحْمِلُ أعشاباً كالنعنع والحَبَق، وهكذا باستطاعته مَزْقَ كسرة خبز ليقيم وجبة أينما كان.

في ذاك اليوم الأول عندما صَعِدَتْ آنّا لتستَحِمّ، بقي خارجاً لفترة، نصف حالِم بين أثلام الحديقة الخضراء، ثمّ مشى في حفرة عميقة في الأرض أو بركة كانت تُستعمل منذ مائة عام لتجميع المياه للقطعان.

Twitter: @ketab_n

وقف هناك وقد غَلَّفَه الظّلام في ظلّ السنديانة الهائلة التي كانت منتصبة فوق. وسرعان ما استلقى على العشب لدرجة أنّه بدا مختفياً عندما نَظَرَتْ آنًا من النافذة.

وكان انطباعها الأوّل عن رافايل أنّه لم يَرَ شيئاً حوله مُسْتَحْوَذاً بالكلّيّة. لقد نَزَعَتْ أصابعه أوراق النّبات بذات السهولة التي لفّ بها أصابِعَه الغامضة حول معصمها منذ ثلاثة أيّام، وبالكاد كان "يرعى" جلدها فأكمل نبضها توقّفه وتدفّقه في قبضته الرّخوة. ونَظَرَتْ إلى الأسفل نحو نَدْبَةٍ وسط مفاصِل أصابعه، وأكْمَلَتْ نَظَرَها غير مرسلة أيّة استجابة لعمله هذا، فيما أكمَلَ النَّبَضُ المأسور ضَرْبَهُ السريع من دون أيّ شكّ. وكانت تفكّر في الألحان الموسيقيّة التي كانت قد انبعثَتْ من هاتَيْنِ السيدَتَيْنِ المصابتين بندوب كهذه. ولم تُرِحْ وجْهَها في صدره وفي كمشة الحَبَقِ ضمن طيّات جيب قميصه إلاّ عندما أطلق سبيلها. وقالت حينها: تعال معي وراقب خطواتك. ثمّ صعدا الأدراج الحجريّة العريضة بما يكفي ثلاثة أحصنة، وسارا عبر الممرّ المؤدّي إلى داخل غرفتها الصّغيرة، حيث انحنَتْ لتدير المدفأة الكهربائيّة وانتظرَتْ ظهور القضبان الحمراء الثلاثة.

وضَحِكَتْ عندما أَغْلَقَ الباب وراءهما بطريقة رسميّة. فَنَفَضَ كَتِفَيْهِ.

ـ هل هذا ما تسمّيه مصطلحاً غالِيّاً؟

ـ ثومِيّاً؟

ـ بل غالِيّاً أو فرنسيّاً قديماً. ألا تَعْلَمُ هذا المصطلح؟

ـ "هذا المصطلح؟" وهزّة أخرى من كَتِفَيْهِ. نحن الآن في أصغر غرفة في منزل كبير جدّاً، قالَ لها. هل هناك من سبب لذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ ألا تحبّ ذلك؟

ـ كلاّ، أجابها. علينا البدء بأصغر فضاء ممكن، شرط ألاّ يكون فضاء صغيراً جدّاً.

ـ إنّني مُحْرَجَةٌ بالنِّسبة إلى حجم الغُرف الأخرى.

جلس رافايل على السرير طويلاً ومنتَصباً، ومراقِباً شريط طاقتها. الجينز القاتِم، القميص الأزرق، والكِمّ المطوي على ذراعها السمراء. ولاحظ مرآة موضوعة في أسفل الحائط، ومغسلةً واطِئة.

إنّ هذه الغرفة هي لطفل أو ولد صغير.

تودّ آنا أن تكون الآن في "الفضاء الأصغر المُحْتَمل الوجود". فحقيقة حياتها تظهر فقط في أماكن كهذه. وهناك أوقات تحتاج فيها أن تختبئ في أراضٍ غريبةٍ، وذلك كي تتذكّر اضطراب شبابها وعنف نَفْسِها العارية المُدَمّاة (العنف لم يخفّ بعد ونَفْسُها عالِقة بين والدها وكوب). لحظة العنف تلك قد شوّهَتها، وها هي تعود إلى كلّ هذه الأمور بالذّاكرة. وتبقي آنا نَفْسَها بعيدة عن كلّ من يظهر غَضَباً أو عُنفاً، تماماً كما أنّها خائفة من الحميميّة الحقيقيّة. إنّ ماضيها مخبّأٌ عن الجميع. وهي لم تلجأ أبداً إلى حبيبٍ أو صديق عندما يتكّلمون عن العائلات (وهي دائماً تستفهم عن عائلاتهم) ولم تتكلّم عن طفولتها. وحتّى الآن لا تستطيع دخول قصّة بعد الظّهيرة تلك بأمان: ضرب كوب المُرَوِّع والسّلاح الزّجاجي الداخل في كَتِفِ والدها عندما حاولت قَتْلَهُ. إنّ جداراً من الضّوء الأسود يُبْقيها بعيدة عن كلّ ذلك. لكنّها تعلم أنّ ذلك قد دَمَّرَهم جميعاً، بمن فيهم كلير. وهي تستطيع تخيّل أختها راكبة حصانها في جبال السِّيرّا، وهي تضع أجراساً صغيرة حول معصمها

Twitter: @ketab_n

لتحذّر الحيّات البرّيّة من اقترابها، وهي مدركة لكلّ احتمالات الخطر. وهي كذلك تعمل في الأرشيفات لتكتشف ماضي كلّ أحد باستثناء ماضيها، أيضاً وأيضاً، لأنّه سيحتوي دائماً كلّ ما ذُكِرَ آنِفاً.

تُبقي ورافايل بينهما شكلِيّة رسميّة تجعلهما حَذِرَيْن من بعضهما. فلقد وَلجا هذه الصّداقة بطريقة المُسْتَوْحِدين في العصور الوسيطة الذين قد يجتمعون معاً أثناء اللّيل قبل رحلتهم نحو مصير من الزّواج أو الحرب. كلّ ذلك وآنا لم تُدرِك أنّ ما تشاهده من عفويّة في رافايل تتناقض مع طبيعته (باستثناء تلك الدّقة المناطقيّة التي نَقَفَ بها النّحلة عن قيثاره في حضورها منذ أيّام قليلة). أمّا هو فبالكاد يعرف عنها شيئاً. من هي هذه المرأة التي قادَتْهُ إلى هذه الغرفة الطّبّيّة حيث توجد معظم ممتلكاتها من كتب ومذكّرات وجواز سفر وخريطة ملفوفة بعناية وتسجيلات أرشيفيّة وحتّى الصابون الذي جَلَبَتْهُ معها من عالمها الآخر. وكأنّ هذه المجموعة المنظّمَة من الأشياء هي ماهيّتها. نحن إذاً نقع في حبّ الأشباح.

في بداية إقامتها في ديمو، راقَبَتْ آنا ثلاثة صقور تطير على مستوى منخفض فوق الحقول، نصف مغطّاة بالضّباب، وهي تصيد من أجل الحياة. ولاحَظَتْ كيف كانت أشجار الصّفصاف تقي طيور السّمّن والشحرور، وكيف نما نبات السّمّاق بجانب حائط المنزل. وأثناء عبورها حقلاً في أحد الأيّام، شقّت طريقها قرب غسيل الجيران وكان ينشف على العشب، فرأت عربة على دولاب خاوية لا بُدّ أنها حُمّلَتْ الثّياب المبتلّة إلى هناك، وبعد ذلك، مشت سحليّة خضراء على كفّ يدها أثناء غفوها على كرسي المطبخ. وقرأت مخطوطة قديمة تقول إنّ

Twitter: @ketab_n

الشُّعراء القصّادِين في تلك المنطقة كانوا مشهورين بقدرتهم على تقليد أو محاكاة أصوات الطّيور ونتيجة لذلك ربّما غيّروا العادات الطبيعيّة لهجرة هذه الطيور. كما قالت لها مدام كيو إنّ زوجها في بداية الشّتاء المبكرة يلفّ مضخّة الماء بالقشّ والخيش، ويفعل الشيء ذاته بجذوع الأشجار وأغصان شجر اللّوز الواطئة الموجودة على السُّطيحة.

وهذه تفاصيل تساهم في تركيب خلفية جزئية لحياة كاتب ما. وهي تعلم أنّ كلّ شيء هنا في أوروبا قد لامس التاريخ أو الأدب. فلقد أصبحت بيزانسون معروفة لأنّ جوليان سوريل حضر إلى إكليريكيّتها في رواية الصّلب الأحمر والأسْوَد. وما زال البناء الحجري موجوداً، كما أنّ الغَسَقَ حولها ما زال كثيفاً وهو يعبق برائحة شجر الزّيزفون. كما أنّ هناك كلّ المدن والقرى الأخرى التي نَقَشَها بلزاك صفحة تِلْوَ صفحة: أنغوليم، سان لانج، سو. وَكَتَبَتْ كوليت "لقد وُلِدْتُ في بلزاك ـ فهو كان مَهْدي وغايتي وتِرحالي... لقد اخترع كلّ شيء، "كَتَبَتْ كوليت وهي تَرْمُقُ ذكريات شبابها. تماماً كما أنّها هي ذاتها خَلَقَتْ مساحات أرضها في سان سُوفور في بيساي. وهنا في غاسكوني حيث وُلِدَ البطل الخرافي دارتَنْيان، عاش الكاتب لوسيان سيغورا وَأَلَّفَ قصائده الغريبة ورواياته ثمّ اختفى.

سَحَبَتْ آنا وجهها من أمام زنبقة برتقالية مدركة لقاحها الأصفر والنحلة المحوِّمة. لا بُدّ أنّ أسلافها فعلوا الشيء نفسه، مُرَفْرِفين أسفل جذع هندباء أحد أيّام ١٥٦١، هنا أو قرب الكنيسة البعيدة. ولاحظَتْ دورة الحرّاس وهم يهمّون لفتح أبوابها. وحتماً كان هنا دائماً نحلة لِتسمع الموسيقى الكاثوليكيّة ولتشهد وصول القَنْدَلَفت. يُحْمَلُ الماضي

Twitter: @ketab_n

دائماً إلى الحاضر من خلال الأشياء الصغيرة، فتنوء الزّنبقة بِحِمْلِ استمراريّتها. وقد يكون ريتشارد قلب الأسد قد دَاس الوردة نفسها أثناء رحلته الصَّليبيّة ولربّما تنشقّ الحضور ذاته كما تفعل آنّا وذلك قبل ركوبه جنوباً نحو لوبرون.

وفي غضون أيّام قليلة من لقائه، أدركت آنّا معرفة رافايل المدنيّة أو الدّنيويّة لكلّ حقل. فمنذ كان طِفلاً وهو يعلم ارتفاع صفّ أشجار الزيزفون المؤدّية إلى المقبرة، وهو قد مشى بينها حينها وكأنّها كانت عمالقة. تماماً كما أخذها مرّة إلى منتصف المرعى حيث التقيا لأوّل مرّة، قائلاً لها: هُنا غَرِقَ الكاتب العجوز، ففي الأيّام الماضية كانت هنا بحيرة صغيرة".

عندما كان صَبيّاً، كان رافايل يتسلّل من عربانة والدَيْه قبل شروق الشمس ليقف على عربة خيل ويشاهد ضوء الحقول المُرْتَحِل. وعندما نام مع آنّا في أوّل أمسية، نَهَضَ من سَريرها وغادر الغرفة الصُّغرى ثمّ نزل الأدراج في الظّلام وشقّ طريقه عبر حقول اللّيل. وفي المرعى الصاخب حيث كان كلّ شيء غير مرئيّ، صَفَّ نَفْسَهُ مع حفيف الأشجار وسار في خطٍّ مستقيم نحو المقطورة.

ـ أين تذهب؟ سَأَلَتْهُ لاحقاً. أتعود إلى منزِلِكَ؟

ـ لن تنامي جيّداً في ذلك المرقَدْ الضيّق.

ـ أنام خارجاً إذاً.

ـ ربّما في يوم ما.

ما أعطاه اللّيل لِرافايل "كان اللاّشكل حيث لكلّ شيءٍ غاية، وكأنّ للظلام لغة موسيقيّة خفيّة. وكانت ليالٍ لم يزعج فيها نفسه لإنارة قنديل

Twitter: @ketab_n

الزّيت المعلّق على مدخل المقطورة. توصَّلَ إلى قيثارته ونزل خطوات السّلّم الثلاث نحو الحقل، حاملاً كرسيّاً في اليّد الأخرى. "لا أعمَلُ بل أظهَرُ، مستذكراً سطر دجانغو راينهارت ومتخيّلاً رجلاً عظيماً يتسلّل خارج الظّلال بعظمة ويختفي بقدرة ماهرة في حِرْفَتِه. أمّا الخيار الآخر فهو الوصول، كما يفعل معظم الموسيقيّين، كَمَلِكٍ قادم من القرن الثامن عشر وهو يدخل مدينةً، مسبوقاً بنيرانٍ عظيمة فوق التّلال لتشير إلى أنّه قد عَبَرَ الحدود، ومسبوقاً أيضاً برنين الأجراس. لكنّ رَافايِل لم يكن حتى لِيَظْهَرَ. بل كان يذوب ربّما، وهو مدرك لحشرات اللّيل، في النّهر الكامن على حدّ سَمَعِهِ. وَعَزفَتْ كفّ يده المفتوحة وَتَراً كان استجابة، مجرّد استجابة. ولم يكن قد تقدّم بعد. كان الصّيف المتأخّر من حياته، في السنة التي التقى فيها آنا، ولم يكن لديه أيّة فكرة إذا ما كان باستطاعته العودة إلى العمل المحظّر الذي هو الفنّ، لكي يحصل على ما يحتاجه ليصنع أغنية بسيطة. الذّوَبان في الظّلمة كان كافياً حتّى الآن، أو العزف من الذّاكرة أغنيةً قديمة لسيِّدٍ معلّم، أغنية أحبّتها أُمُّهُ أو صَفَّرَها والده عندما كان يصحبه في مشوارٍ. وكانت هناك أغنية محدّدة واحدة يُتَمْتِمُها والده أو يُصَفِّرُها. كما كان رافايل في الماضي قد سافر من قرية لأخرى، مجادلاً في المعاش ومؤلّفاً ألحاناً وسارقاً أوتاراً وشاطِباً أزجُل أغنية قديمة لِيَسْتَخدِمَ منها الجذع فقط.

لكنّه بدأ يحبّ الآن فوق كلّ شيء عزف الموسيقى حيث لا يكون أحداً. هل بمقدورِكَ هَذرَ حياتِكَ من أجل موهبة؟ وإذا لم تستعمل موهبتكَ، فهل هذه خيانة؟

وباكراً ذاك النّهار كانت آنا قد أَتَتْ خَلْفَهُ وَوَضَعَتْ سمّاعتَي مُشغِّل

Twitter: @ketab_n

القرص المُدْمَج (السي دي) بلطف فوق أُذُنَيْهِ. وَيَذْكُرُ أَنَّهُ كان ينظِّف الكلى، وكانت الموسيقى تقريباً هيكليّةً، لائحةً عارِيَةً، رسماً. عرف من نَظَمَها لكنه لم يعرف ما كانت المقطوعة الموسيقية. فقالت له "إنّه باخ، باخ في خواتيمِهِ". إستمع، مراقِباً النّصل يبطئ في حركته، قاطِعاً الأحشاء ثمّ الفطر. ومشى السكين في نومه، وصبّت يداه رشّة براندي وخردل جاف في قلب المقلاة، بينما كان غارقاً في فيض الموسيقى الزائد. وكأنّ عاطفة الموسيقيّ وإشاراته شبه النّاطقة كانت أحاديث متقطّعة لحِمَام الغابة.

وَمشَّطَ الآن أوتار قيثاره باعثاً الحياة في باطن كَفِّه مستمعاً إلى ما أَصْدَرَهُ. ما هو محاذٍ للموسيقى هو موسيقى. ولفّ هواء اللّيل كلّ شيء، ضاغطاً على معطفه ووجهه.

ـ أخبرني عن والدِكَ، قالت له آنا.

ـ أوه...

ـ هل كان ظِلاً كبيراً في حياتِكَ؟ أَقُلْتَ لي إنّه التقى والدتك أثناء سطوِهِ على مقرّ للشّرطة؟

ـ لم يكن تماماً يسطو على مقرّ الشرطة، بل كان يحاول أن يأخذ شيئاً من رجل مسجون هناك، وكان الأمر أصعب.

ـ أراد أن يسرق سجيناً؟ لم يكن المسجون إذاً صديقاً له.

ـ كان لدى السّجين شيء مهمّ يخصّ صديقاً لوالدي. ولا أعلم لماذا.

ـ وأين كان هذا الصديق ولماذا لم يفعل هو ذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ كانت امرأة وكانت سجينة هي الأخرى في المقرّ ذاته. هو عادةً يحوي الرّجال.

ـ طبيعيّ.

ـ إلاّ أنّه في بعض الأحيان تكون النساء أكثر من الرجال. ليس هذه المرّة.

ـ وكانت أمّكَ تعمل في مقرّ الشركة.

ـ نعم "كانت تأتي لساعة أو ما شابه عندما كان يخرج السجّان في استراحة الغداء. ولم يكن من المفترض بها أن تقترب من السجناء، لكنّها أُعْطِيَتْ المفاتيح.

في حال حصول حريق، وكان ذلك في مدينة صغيرة بالقرب من الحدود البلجيكيّة. ولم يكن هناك مجرمون كبار، وكان والدي بحاجة لأنّ يسرق واحداً منهم. وكان الأمر بمثابة تحدٍّ.

ـ وبعد ذلك؟

ـ أتى إلى مقرّ الشرطة مرتدياً نوعاً من بذلةٍ ما ـ كان قد اخترعها في الواقع ـ مع نربيش وخزّان صغير مُعَلّق في ظهره. وقال إنّه آسف على تأخّره: "من المفترض أن أكون هنا باكراً. عليّ فعل ذلك بسرعة لأنّ لديّ ثلاثة سجون أخرى. ولم يكن لدى أمّي الجالسة إلى المكتب، أيّة فكرة عمّا كان يتكلّم، فلم يكن قد قال لها أحد أيّ شيء عن زيارته. وأضاف "عليك توقيع هذه عندما أنتهي". وأرفَقَ ذلك ببعض الأوراق التي يجب تعبئتها مع ورقة كربون بينها. وكان ذلك بعد الحرب مباشرة وكان من الصّعب عليك التحرّك حينها مع الشّريط الأحمر. "كُلّهم

Twitter: @ketab_n

رجال، أَلَيسَ كذلك؟" سألها، فأخبَرَتْهُ أنّ هناك امرأة واحدة، فتظاهر أنه قَلِقَ من ذلك. "إذاً ربّما عليكِ مساعدتي".

وأخبرها أنّ ما عليه فعله هو رشّ الزنزانات بمبيد الد.د.ت. بالنربيش، وفعل الشيء ذاته بالسجناء، وهذا يعني أنّ عليهم دفع أغراضهم وثيابهم خارج الزنزانات كي لا تُرَوّى. وسألتهُ معنى "تروّى"، "رطِبَة، رطبة، مبتلّة، كأن تفيض". "آه فَهِمْتُ".

ـ فَهِمْتُ، قالَتْ آنا، مستلقية قربه على السرير.

ـ فشرح والدي كلّ هذا للمساجين الذكور فيما شَرَحَتْ والدتي المستقبليّة ذلك للمرأة. وكان على الرِّجال أن يخلعوا ملابسهم كليّاً ويدفعوا بها إلى خارج القضبان. وأخذ والدي (الذي لم يكن بعد والدي) الثّياب وحملها إلى المكتب الأمامي ثمّ عاد ورشّ المبيد أساساً ضدّ القمل والحجن (الملتصق بالجلد والذي يمتصّ دم الإنسان). وأخبرهم والدي أنّ هذه قد انتشرت بجدِّيّة وتوزَّعتْ في المنطقة، حتّى أنّ سجينَيْن في سجنٍ آخر قد ماتا. وبعد رشّ الزنزانات التي خَلَتْ من الشّراشف والكتب والأوراق، رشّ أجساد الرجال من الأمام ومن الخلف. ثمّ طلب منهم أن يقفوا ثابتين لمدّة عشر دقائق قبل أن يلبسوا ثيابهم.

وأثناء ذلك كان على أمي أن تُخْلِعَ المرأة ثوبها ثمّ تجلب ثيابَها إلى المكتب الأمامي ـ فعلى والدي أن يتفحّص هذه الثياب بحثاً عن الحجن والقمل ثم يرشّ بودرة الد.د.ت. عليها، وليس على المرأة التي لن تُغْسَل بالنّربيش، لأنّ والدي قال إنّ الحشرات هذه، ولغرابة الأمر، لا تلتصق بالنّساء ـ وهذه "الحقيقة" وَجَدَتْها أمّي فريدة، لكن بما أنّ الرّجل

Twitter: @ketab_n

قال ذلك فهو يعلم. عَرَبَ والدي إذاً الثّيابَ وأخذ قطعة الورق المهمّة أو أيّ شيء آخر من جيب السّجين المعنّي ووضعها في حذاء السجينة، ثمّ عاد الجميع إلى زنزاناتهم. شكر السّجناء، وأخبر المرأة أنّه وجد ثلاثاً من الحشرات في ثيابها، ثمّ شَدَّ على يدِ أمّي وَرَحَلَ.

وكان قد جعل أمّي توقّع على الأوراق. ومن الواضح أنّه كان عليها أن تكتب عمرها وَمِهْنَتَها ومكان إقامتها. وأخبَرتْهُ حينها أنّها "مسافرة"، أو مِمَّنْ كانوا يُسَمَّون بالنَّوَرِ أو الغَجَر. لقد كانت غجريّة. وبالطّبع لم يعرف الحراس في مقرّ الشرطة بهذا الأمر، وإلاّ بالكاد كانت ستعمل هناك لو عرفوا. ولم يكن لديها عنوان في الواقع بل موقِعاً دلّت عليه، قرب الطرف الجنوبي ـ الغربي للمدينة. وعاشت عائلتها في عربانة متنقلة. وبهذه الطريقة التقى والدي ذلك اللّغز المسمّى آريا.

لم يدرك أحد ما قد حصل. أمّا السّجّان العائد فقد سدّ منخارَه بسبب رائحة ما بدا أنّه معقّم. وربّما بعد أربع وعشرين ساعة صدرت صرخة شكوى من أحد المساجين. لكن حينها كان والدي قد أتى مغازِلاً، سائِلاً عن آريا والتي عرف اسمها من الورقة المعبّأة. وكان والدي في تطواف من إيطاليا بعد أن وضعت الحرب أوزارها فوجد نَفْسَهُ في بلجيكا حيث كان من السهولة له أن يحصل على المال بالطريقة التي اعتادها. كان قد جُرِحَ لكنّه يبدو الآن وقد عاد إلى أنشطته الإجراميّة القديمة.

ـ إذن هل بقي معها وتزوّجها؟

ـ لم يتزوّجا قطّ لكنّها كانت زوجته، نعم. فلقد مكث وعاش في العربانة معها. لقد قالت لي أمّي إنّه سبق وكان له زوجة أخرى قبل

Twitter: @ketab_n

الحرب، لكنّها ذَكَرَتْها مرّة واحدة فقط. لقد كانت الحرب حدّاً فاصِلاً للكثيرين، فكانت هناك حياة قبل وحياة بعد، وكثيرون قرّروا عدم العودة إلى ما كانوه قبلاً.

ـ كانت عذراً جيّداً، الحرب.

ـ نعم، وفي هذه الحالة حدث ذلك بسبب كون والدي قد فُتِنَ بوالدتي. وكانت تصغره بعض الشّيء. لم يكن أبداً رجلاً غيّوراً ـ فهو بالنتيجة لصّ يؤمن أنّ المُلكيّة مشاع عمومي ـ لكنّه تخلّى عن كلّ شيء وبدأ العَيْش معها بالطريقة التي أرادَتْها. وكان هناك عُرْفٌ أخلاقي قاسٍ في محيطها.

ـ إذاً آريا...

ـ نعم آريا ووالدي.

ـ إستَدِرْ وواجهني.. هل كلّ هذا حقيقيّ؟

ـ ربّما مرّ الزّمن عليه، لكن هذه هي الطريقة التي التقى بها والدي، فاحص الد.د.ت.، بوالدتي.

ـ وأظنّ أنّ هناك قِصَصاً أخرى أكثر عنه.

ـ إي نعم، فخلال شهر كامل، عندما ارتاب رجال الشرطة بمجتمع العربات، ارتدى ثياب النّساء. فعل ذلك طوال تلك المدّة حتى ترك رجال الشرطة الأمر. ولقد كان في السّجن أثناء شبابه، ولهذا لن يعود إلى هناك أبداً.

ـ إذن أنتَ لا تستطيع لَوْمَهُ.

ـ كلاّ، لكنّ السبب الحقيقي وراء خوفه من العودة إلى السّجن هو

Twitter: @ketab_n

كونه كان غيّوراً من الرّجال الآخرين المهتمّين بوالدتي. رغم أنّها كانت مخلصة له باستمرار، على ما أعلم، ولكن من يعلم...؟

ـ آريا. قالَتْها ثانية، وكأنّها كانت نكهة على لسانها.

وبعد التّعقيم لاحظ والده أنّه بقي خمس عشرة دقيقة قبل أن يحين موعد عودة السّجّان، فجلس مقابل المرأة الشابّة متسائِلاً بصوتٍ عالٍ إذا ما كان بمقدورهما اللّقاء ثانية. وكانت هي تنظر إلى أسفل نحو بعض أوراق اللّعِب. راقب يَدَيْها تلتقط الأوراق بهذا الإتجاه وذاك. وكان شعرها القاتم مربوطاً إلى الوراء بإنشات قليلة من ربطة خضراء. وبدون كلام قَوَّسَتْ مجموعة ورق التاروت على الطاولة أمامه. فقطع المجموعة وسحب ورقة وودعها ناحيةً، ولم يعرف أيّ شيء، عمّا عناه الورق، فراقب وهي تحرّك الأوراق الأخرى حولها. ثُمَّ جَعَلَتْهُ يسحب ورقة أخرى. ونظر إلى الساعة الموضوعة فوق رأسها الجميل. "لا أريد أن أكون فظّاً، لكن عليّ الرحيل الآن". لم تَقُلْ شيئاً بل تابَعَتْ تحريك الورق من جانبٍ لآخر، وكأنّه دليلٌ ما، ثُمّ اعترفت به وذلك عن طريق انحناءة بسيطة من رأسها حين كان يفتح الباب هامّاً بالرحيل.

وعَلِمَتْ أنّها ستراه ثانية، وما كان على الطاولة أمامها كان أهمّ بكثير من الحاجة لأنّ تنظر إلى الأعلى لترى وجهه أو يديه السمراوين الغريبتين ثانية. وعندما مرّ بالنّافذة، نظر إلى الداخل فرآها محنيّة أكثر على الطاولة، فاحِصَةً الأوراق.

وفي اللّيلة التّالية زار عَرَبَتَها، فتفحّصَتْهُ من أعلى إلى أسفل لتتأكّد من أنّ هذا ما تريده. وَرَأَتْ احتمال غيرة في طبيعته؛ لرُبّما جَعَلَتْهُ الحرب يرغب بالكثير من الأمان.

Twitter: @ketab_n

ففي اللّحظة التي كان فيها يَهْجُرُ زوجته ويخونها مع آريا، بدأ يُصِرُّ على اللاّخيانة من جهة آريا. وكما كانت أمام مكتب السّجّان بَقِيَتْ صامتة وغير ملتزمة بهذا الإصرار. ورَفَضَت أن تتنكّر للصُّدَف والقدر من أجل اتّفاق دائم، فليس هناك من شيء كهذا. وهو نفسه لم يكن على صهوة الأخلاق كي يفاوض في الأمر. وعبر كلّ سنواتهما معاً رَفَضَتْ أن تقدّم الرّاحة المطلوبة حول إخلاصها لهذا الرّجل الذي أصبح فجأة مدركاً لِقُدْسِيّة التملّك.

لم يخبر رَافايل آنّا كلّ قصّتهما. فحتّى عندما كان في السابعة من عمره، مستلقياً قرب أمّه، كان واعياً من أنّ آريا هي الكائن المحوريّ، وكانت ذراعاه تلفّها كما يغمر الصّبيّ كلباً بكلّ حقّ في العالم. وعندما أصبح في العشرين بقي يَخْلَع ملابسه ويسبح معها في الأنهار. فالعُرْيُ أضحى طبيعياً له، كما عندما شاهَدَتْهُ آنّا يقف قرب النافذة الشّماليّة مُرَكّزاً فقط على تدخين سيكارته ومستَمِعاً إلى هديل الحمام الذي كان قد وَجَدَ ملجأً في الجدار المخرّب للمنزل. ولو أنّها سألَتْهُ لربّما شرح أو لم يشرح كيف حافظَتْ أمّه على سرّ إخلاصها، والذي كان يشبه خَنْدَقاً حصيناً لا يستطيع أحد أن يعبره بيقين، فلقد كان فيها مزيجٌ من الحذر والرّغبة المفتوحة. كانت تهمس شيئاً في أذنه ثمّ تقبّلُها لتحبسها في الداخل كي لا يعطيها أبداً لشخصٍ آخر.

ـ أنْتَ محظوظٌ لأنّه كان لكَ أمٌّ كهذه.

ـ أعلمُ ذلك.

وأحسّ رافايل أنّه بعد أن كان يريح رأسَه على آريا لسنواتٍ مَضَتْ، فإنّه يضعُه الآن في دفء آنّا.

Twitter: @ketab_n

إستيقظت آنّا في الصباح الباكر لتبدأ ترجمة نصوص لوسيان سيغورا القليلة الموجودة على الطاولة. بقي الرجل مجهولاً معظم حياته باستثناء كونه شاعراً ثمّ كاتباً عن فجيعة الحرب العظمى. وفي السنوات التي تلت موته، غَرِقَتْ المعرفة عنه في نسيج هذه المنطقة وتربتها، فأضحى منسِيّاً بين أهله. وتحبّ آنّا هؤلاء الغرباء عن التاريخ، فهم بالنسبة إليها أساسيّون كأنهار ما تحت الأرض. وتستيقظ في هذا البيت الأخير الذي عاش فيه لوسيان سيغورا، وحيدةً في سريرها، فتحضّر القهوة وتعمل منذ الثامنة. ويغيب رافايل عن أفكارها حتّى بداية بعد الظهيرة، عندما يعبر الحقول مع خطّةٍ للغداء. هو غريبُها المغالي الذي يقودها، وربّما هي كذلك بالنسبة له. وبعد الظّهر، يحضنان بعضهما في غرفة نومها الصغيرة، ثمّ بعد ذلك، وهو نصف عارٍ وما زال فضوليّاً حول داخليّة المنزل، يدخل الغرف الأخرى، ويرمُقُ اللّوحات ويفتح ما كان يوماً خزانات الألبسة، وينظر من النافذة العُلْوِيّة ناحية طريق الأشجار.

وأثناء إحدى استطلاعاته يسمع أصواتاً في الممرّ تشبه خرير النّهر. ويلاحظ أنّ الصوت يصدر من الأعلى، من القسم المغلق فوق السّقف. يتوه ثمّ يعود مع سُلّم فيصعد عبر باب علوي في السّقف إلى غرفة حيث الهواء كثيف بحرارة الطيور، وحين يلجُ إليها من دون قميص يلتصق ريَش الطيور بظهره. عندما كان رَافايل صبيّاً علم أنّه كان هناك بيت حمام ملحقٌ بالمنزل، لكن عِبر السنين يبدو أنّ الحائط الفاصل بين بيت الحمام والعِلّيّة قد انهارَ، بحيث أنّ الطيور الآن تنقضّ إلى الداخل وتتجمّع وتتوقّف عند الباب لبرهة ثمّ تطير خارجاً. إنّها غرفة مليئة بالمداخل والمهارب. لم يرغب أبداً في أن يكون حمامة، لكنه تمنّى عدّة مرات أن يصبح طيراً يسبح فوق الأراضي، متحرّكاً بانزلاقة طويلة

Twitter: @ketab_n

نحو شجيرات، حيث يَظْهَرُ مدخلٌ سريّ عالٍ، غير مرئي للبشر، وفي اللّحظة الأخيرة، ممرٌ عبر الغابة. ما تختبره في أعالي الهواء هو الحياة الصَغيرة على الأرض وانسياق الأصوات وصرير عربة ودويّ ودخان بندقيّة بين أشجار اللّوز. وهذا شبيه بالموسيقى التي عَزَفَتْها له آنّا في المطبخ على نوتات الحياة الأساسيّة والتي تَصِلُكَ عبر مسافة الهواء.

ويقف رَافايِل بهدوء وسط الغرفة، عارفاً ما باستطاعته رؤيته من المدخل، من هذه الفتحة التي هي بحجم علبة خبز. يستطيع النَّظَرَ إلى الوادي المكسوّ بالأشجار شرق ديمو، وهو غابة مازيريس، حيث تَمَّ الدَّفْنُ الصامت لوالِدَتِهِ منذ سنين عديدة... حفر ووالده بينما راقبهما أربعة آخرون. وبعد أن انتهى التزام أمّه بالأرض، مَشَوا جميعاً بعيداً عن القبر وذهبوا في طُرُقهم الخاصّة كما تفعل قضبان دولاب العربة. وكلّ منهم يحمل نسخته الخاصّة عن آريا، ولا يرغب أيّ منهم في مشاركتها مع أحد أو يُذيبها في جماعة. لم تُحْكَ كلمة، وعندما طُلِبَ منه أن يعزفَ رفض. رغب في العزف لاحقاً، عندما تسْكنُهُ أكثر وتستوطنُهُ. عندما يستطيع أن يمثّلها، تماماً كما كان يعلم أنّ والده سيتمثّل في داخله صِفات آريا التي ربّما كان قد حاربها في لاوَعْيِهِ في الماضي. وبهذه الطريقة ستبقى معهما. يستطيع أن يرى العراء في الغابة حيث أخذوها ذلك الصّباح. أنزلوها في الأرض خلال ثلاث ساعات، فعاشت أقصر موت على الكوكب، وكأنّ الأرض قاربٌ يُجْبِرنا على الإبحار السريع. لقد أعادوها إلى بسطة الأَرض الطبيعيّة التي أُغْرِمَتْ بها كلّ الغرام. وكانت الساعة الخامسة صباحاً كما كانت حياة الطيور متجلّيَة حولهم ومتناغمة مع رحيل والدته.

Twitter: @ketab_n

يدور رافايل ويمشي على دعامات العِلّيّة، مفكّراً أنه سمع آنا تدعوه. لقد أَبْعَدَت السُلُّم وها هي تقف عاريةً، ضاحِكَةً عليه عندما أطلّ برأسه عِبر الفتحة المستطيلة. وما لبث أن أنزل ساقَيْهِ عبرها متعلِّقاً بِيَدَيْهِ. وعندما ترى أنّه لن يسألها عن السّلّم، تستجمع نفسها لتقدّمه، لكنّه سرعان ما يقفز الخمس عشرةَ قَدَماً نحو الأرض.

تقف مترنّحة وكأنّ عُرْيَها قد اكتُشِفَ على خشبة المسرح والسّلّم بين ذراعَيْها. ويدور في حلقات بطيئة حولها، ثم يُطبق عليها.

ـ عليكَ ريش الطيور.

ـ عليّ ريش، على الأقلّ فإنني مُرْتَدٍ ملابسي جزئياً.

ـ لنأخذ حمّاماً.

ـ كلاّ. لنذهب إلى النّهر، كما أنتِ. فليس هناك أحد. عليكِ فقط عبور المَرْج ثم تصبحين بين الشَّجَر.

وَتُطْبِقُ أصابعه على معصمها مجدّداً، فَتَنْزِلُ معه إلى المطبخ ثمّ إلى الخارج من الخلف.

ـ لا تحرّكي السّلّم في المرّة القادمة.

ـ بل سأحرّكه في المرّة القادمة.

ولم يكن سوى جدول لسمك التّرويت، فيستلقيان على ظهرَيْهما فوق الحصى لكي يكونا غاطسَيْن كلّيّاً. وَرَأَتْ كومة ماء تزيِّن شعره وكَتِفَيْهِ وكأنّه يتحوّل. تفكّر أنّها في المرة الأولى، ثمّ تُذرِكُ أنّ هناك الكثير من المرّات الأولى معه، كركضها عارية في أعلى الممرّ وأسفله، كقبضَتِهِ الرّخْوَة كما الآن على معصمها، وكرغبتِهِ الجنسيّة المُشْبَعَة

Twitter: @ketab_n

بالنّعاس وحيث لا يبدو من حدود بين الشّهوة والفضول والحميميّة. وهذا مختلف عن أحد عشّاقها الأوائِل الذي كان مُتّقِداً ولكن أنانيّاً.

ورغم ذلك فهو يُبقي بعيداً عنها كلّ شيء آخر يتعلّق به، وكأنّه يبغي بطريقةٍ ما أن يبقى غريباً. فلماذا يحصل هذا... مع شخص هو في الأصل كريم ومعطاء؟ إنّ هؤلاء الرّجال الفنّانين، كعلماء النّبات في القرن التاسع عشر، يَدَّعون، رغم حِكْمتهم وَهَوَسِهِم، عاطفة مِهَنيّة فقط نحو العالم المحيط بهم.

وفي اليوم الثاني، يدعو آنّا، واقفاً في المرج، إلى زيارة المقطورة، فَتَتَرَدَّد، ظانّةً العرض كنوع من الإلتزام من قِبَلِهِ أو حتى كتجربة إختباريّة. فهو يتضمّن معرفة معمّقةً للآخر ـ فمنزله قد يكون حُوَيْصَلة هلامية عن الماضي أو عن المستقبل المُرْتَقَب. أمّا رافايل فقد فَسَّرَ تردّدها في كَسْرِ الرّسميّات بينهما كخجل أو تواضع أو رغبة في عدم تطوير العِلاقة. وهذا بطريقةٍ ما ليس سوءَ فَهْم لآنّا، فهي أيضاً قد عاشَتْ حياة الغرباء، وَلَدَيْها طبقات من السّريَّة الإجْباريّة المتعلّقة بها. هي تَعْلَم أنَّ هناك قطيعاً من آنّا. فآنّا التي بجانب نهر رافايل اللاّمُسَمّى هي غير آنّا المحاضرة في بيركلي عن أحد المتعاونين مع ألكسندر دوما أو أحد الباحثين في قِصَصِهِ. وهي غير آنّا السائرة في سان فرنسيسكو نحو محلاّت توسكا أو المتناوِلة طعامها في مطعم تاديش للشّواء في شارع كاليفورنيا.

تَقِفُ ناظرةً إلى رافايل وسط ذلك المرج. لِمَ لا ترغب في زيارة بيت حبيبها؟ فهي فضوليّة بطبيعة الحال. لكنّها تعلم أنّ هذه العلاقة الغرامية هي غرام وليست بأيّ حال إتّفاقاً نحو الثّبات. ورغم ذلك فالكثير منها يرغب في رؤية إطلالته تتحرّك ضمن هذا المنزل ـ الحقيبة

Twitter: @ketab_n

والذي كان ينتمي يوماً إلى الغامضة آريا. وهي ترغب في الصّعود إلى سريره الضّيّق معه وتغمر بذراعيها حافة الشّباك وتنظر إلى وجهه المتعب ثُمَّ تلقي برأسها ببطء على تلك البقعة من جسده العابقة بالحَبَق، قرب قلبِهِ.

إنّ إحدى أهم الممتلكات العزيزة على قلب آنّا هي خريطة قديمة وقد سُمِّيَت بِرِقَّة "خريطة البلاد العاطفيّة"، وهي عن المشاعر التي تتناسب مع شكل فرنسا. ولقد رَسَمْتها نِسْوَةٌ من القرن الماضي خلال حقبة من الإكتشافات وصنع الخرائط الذّكوريّة. لقد كانت خريطة عن الأشواق لكنّها تَجَنَّبَت بلباقة العِشق الجنسي، باستثناء منطقة قاتمة كثيفة منقوشة في الشّمال وقد أُدرِجَتْ تحت إسم "أراضٍ مجهولة". حسناً، الأزمنة تتغيّر. ففي الوقت الذي جَمَعَت فيه المال ووفّرته لكي تدفع عن دراساتها الجامعيّة باللّغة الفرنسية، أخبرها العميد أنّ أفضل طريقة لتعلّم الفرنسيّة هي اتّخاذ عشيق فرنسي.

بالرّغم من كلّ ما جرى بين كوب وآنّا خلال هذين الشّهرين في مزرعة بيتالوما، فإنّهما بقيا غامِضَيْن عن بعضهما. فلقد كانا في الحقيقة يكتشِفان ذاتَيهما، فبهذه الطريقة يستطيعان الإنتماء إلى العالم. ولكن بعد سنوات ولم تكن قد تزوّجَتْ ولم تكن قد عاشت مع أحدهم علاقة ثابتة، كانت ما زالتْ تنسَلُّ بجانب عشّاقها وكأنّها على سقيفة كوب، تَشِعّ بالسِّرِّيّة مع اكتشاف ذاتها. فلقد كان هناك دائماً وربّما سيكون هناك على الدوام متاهَةٌ من الطُّرقات غير المُرْمَزَة بينها وبين الآخرين.

وما زالت تلك الخريطة العاطفية لفرنسا صالحة في الوقت الرّاهن،

Twitter: @ketab_n

وهي مليئة بالنّصوص الإضافية والحبكات الإجتماعيّة وموازين القوى غير المحكي عنها، وعلى المرء أن يُبقي تحرّكه ضمنها حَذِراً ومتردِّداً.

تجلس على مرقَدِهِ قرب القيثارة المقدّسة.

ـ إذن هذه هي.

ـ نعم.

ـ بلا كتب.

ـ لا.

ـ ولا صُوَر.

يجلب لها صورة آريا، فتنظر آنّا إلى الشّخص الذي قُطِّرَ في ذهنها نتيجة لحكاياته. وهناك نزوة في وجه أمّه لم تتوقّعها آنّا.

ـ وماذا عن والدكَ؟ هل لديك صورة له؟

لم يجبها عن هذا السؤال في البداية.

ـ في مكانٍ ما أملكُ صورةً له، لكنّكِ لن تريها واضحةً، فهو لم يحبّ أن يتصوّر، وكان يقول "تدخل إلى كتبهم ولا تستطيع الخروج." وإذا كان بحاجةٍ إلى جواز مرور فكان يستعمل صورة أحدهم، شخص تقريباً من نفس العُمر وذات لون الشَّعر، لا أحد يشبه صورَتَه في جواز السَّفر. هل تشبهينها؟ هل لديكِ أخت؟ تستطيعين استعمال جواز سفرها إذا احتَجْتِ إلى ذلك.

ـ ليس لي شقيقة.

ـ ليس لديكِ؟ ظنَنتُ أنَّ لكِ واحدة.

وهزّت رأسها بالنّفي.

Twitter: @ketab_n

ها هي تكذب ثانية على حبيب لها. لديها أختٌ ؛ وَلَدَيْها ماضٍ. لكنّها لن تخبرهُ، ربّما لاحِقاً إذا كان لَدَيْها الشجاعة الكافية. قد تخبره عن والدها الذي وَجّهَ صوب كوب ما يشبه الفأس، وعن صلاتِها لنَفَسٍ يصدر عنه وهي بجانبه، وحتى عن حركة صغيرة في صدره. ولقد تبعْثَرَتْ حياتها في تلك اللّحظة لِتُصْبَحَ مخلوقاً بمئات الأصوات والطّبائع، مع إسم جديد. إنّها تحسد هذا الرّجل بجانبها والذي هو قريب منها، تماماً كما كان كوب على أرض الكوخ. إنّ حياة هذا الرّجل بَدَتْ بريئة. وهي حَسَدَتْهُ على مغامرات والِدَيْهِ الممتِعَة. وربّما هي بحاجة إلى رجل مُكْتَفٍ كهذا لتخبره عن ماضيها.

- أخبرْني يا رافايل كلّ قِصَصِكَ. ألم يكن هناك شيء مرعب؟

- أوه، عِدَّة أشياء. لقد غيّرتني أشياءُ عديدة. كان هناك علاقة حبٍّ مع امرأة أخرستني. وكان هناك الكاتب الذي سكن في المنزل الذي تَمكُثين فيه الآن. وهناك الحمير...

- أترى؟ هذا أعنيه!

حصل أوّل لقاء لرافايل بفتاة عندما كان في السابعة عشرة من عمره. ففي مساء نهار جمعة كان عليه السّير أميالاً قليلة نحو المدينة حيث سيقوم بنزهة معها قرب الجسر ومن ثمَّ يذهبان إلى السينما. إلتقط بعناية بعض الأقحوان وبعدما قرّر أن يأخذ الأوتوستوب لأنّه كان متأخّراً. شعر أنّه يجب على الأمسية أن تمرّ بطريق واحد فقط وهذا يعني ببساطة أنّه لا يجب عليه إحراج نفسه مع شخص من الجنس الآخر. فإذا حصلت هفوة صغيرة، فهو محتّمٌ عليه أن يموت وحيداً. وكان باستطاعته مُسْبَقاً

Twitter: @ketab_n

أن يَعُدّ حوالي المئة من مواقع الخطر. فنحن نكون في السابعة عشرة مثاليّين.

سار في طريق الأشجار، ماذاً يده كلّما سمع صوت سيارة، لكن ما من أحدٍ توقّف له.

أخيراً توقّفَتْ شاحنة سيتروين صغيرة لنقل البضائع وفي مقدّمتها رجلان وامرأة. مشى إلى مؤخرة العربة وفتح الباب الخلفيّ وخطا في الظلام الدّامس بقميصه الأبيض وسِرْواله المكويّ. وما أن انطلق الفان حتى بدأت ثلاثة أشكال غير واضحة بِلَكْزِهِ، وتبيّن أنّها حمير. لقد كانت أطول رحلة في حياته. وتُصِرّ آنّا أن يعيش كلّ ثانيةٍ منها كي يخبرها عن الموعد الذي تلى ذلك.

ويقول "الموعد، لم يتمّ". لقد رَمَقَتْهُ الفتاة بنظرة واحدة سريعة عندما أنزله الفان قرب نبع البلدة وهو يتهادى بقميصِهِ المُفَضْفَضْ وحذائه المُبْتَلّ والمُتَّسِخ، يداه كانتا تحمِلان ـ في محاولة نبيلة ـ حوالي سبعة جذوع كانت تحملُ وروداً. ولقد أمضى معظم وقته في السيترون محاولاً تخليص باقة الورد عن طريق حملِها عالياً، لدرجة أنّ هيكله قد تُرِكَ للبهائم التي كانت موصَدَة في الفان منذ بداية الرّحلة في مونتريكو.

ـ إذاً ما هو أسوأ شيء حول هذه القصّة؟ سألَتْهُ آنّا.

ـ أسوأ شيء حصل هو أنّه عندما وَصَلْتُ إلى المنزل، بَعْدَ أن تركَتْني الفتاة قائلة "والدي مريض، وعليّ الذهاب"، وبعد أن غَسَلْتُ ذراعَيَّ ورقبتي ونظّفتُ الوسخ عن حذاءَيَّ في النبع، وبعد أن ذَهَبْتُ إلى السينما وشاهَدْتُ "غابين" بمفردي وفي طريق عودتي إلى المنزل عبر الطريق المُظْلِمة والسماء الليليّة مُشِعَّةٌ حتى أنني بدأت أشعر بالتحَسُّنِ

Twitter: @ketab_n

مجدّداً ـ فلقد كنتُ قد اشتَرَيْتُ بعض الخبز والأعشاب، إذْ كنتُ جائِعاً، وكنتُ أسير بهذا الطعام مع نوع جديد من المتعة يتعلّق بالهرب ـ أسوأ شيء حصل هو أنّه عندما وَصلْتُ إلى المنزل كان كلّ شخص في قرية ديمو قد عرف ما حصل لي. وحتّى الآن، إذا سألْتِ عن "صَبيّ الحمير" أو عن "قصّة السيتروين"، سَيَعْلمون عمّن تتكلّمين.

ولقد أضاف رافايل، في السنوات العديدة التي تَلَتْ، طبقة من السخرية العفويّة إلى صدمة الحدث. فهو يقول: أحاول أن أتخيّل يدي المفعمة برائحة الحمار تحاول أن تَلْمُسَ خصرها العاري أو كتفها ذات السبعة عشر عاماً خلال عرض الوحش الإنساني. وأصبحْتُ معتاداً على النّهيق عند دخولي الصفوف، وَصَهَلْتُ فجأة بواقعية خلال امتحان آخر السّنة ممّا جعل التلامذة ينفجرون ضحكاً، ويهتفون مستحسِنين، وما استدعى ابتسامة الأستاذ العارِف.

ولم أعُدْ أُوَاعِد الفتيات لمدّة أربعة أعوام ـ وبعد ذلك، عندما أدْرَكْتُ أنّ أسوأ ما قد يحصل قد حصل بالفعل، بَدَأْتُ أتنفّس لقاءات معهنّ بغير اهتمام، فَبِتُّ أكثر طالبي القرب استرخاءً في عمري. لكن خلال تلك السنوات الأربع كنتُ في منفًى مركِّزاً على القيثارة. أنا مدين بموهبتي لباقة أقحوان وثلاثة حمير.

وهكذا اكتشف رافايل خِلوة الموسيقى، وأوتارَها الخفيّة وكلّ حكاياتها المَخْفِيّة. ومنذ ذلك الوقت أَضْحَت كلّ الصّراعات ضمن سياق فَنِّهِ. وبما أنه كان محاطاً بحميميّة والِدَيْهِ، أدرك أنّ عليه حماية ذلك، فهو ما زال الإبن المحبوب واللّعوب. إلاّ أنّ أمّه لاحظت أنّه كان ينأى بنفسه بسهولة عن الأحاديث الجارية في المقطورة. فلقد وجد ما يسحره

Twitter: @ketab_n

وما هو "طارئ" له، وأصبح لديه مهرب من العالم، وكأنّ الكرسي الذي كان يجلس عليه أصبَحَ حصاناً يَثِبُ به إلى مسافات غير معلومة.

من علّمه هذا السر؟ مرّة حين كان موسيقيّاً صغيراً، شاهد اثنين من الرّاقصين يُجريان تدريباتهما على هَواهِما، وقبل أن يتناول أحدهم آلة موسيقيّة، ولكن مع تسجيل لموسيقى البيانو سحباها كستار بينهما والآخرين الموجودين هناك. لقد كانا وحدهما أصلاً أثناء تحضيرهما الحميميّ. ثمّ سَألْتُهُ آنّا إذا كان قد عَرِفَ الكاتب، فقال إنّه يَتَذَكّر أنه كان يُمضي فترات بعد الظهر طويلة معه في الحديقة وذلك عندما كان صبيّاً يعيش بالقرب من منزل الكاتب. وكان الرجل العجوز يجلس إلى طاولته في الحفرة العميقة والتي كانت مرّة بركة، وكان أمامَهُ دفتر ملاحظات وقلمٌ ومحبرة، لكنّه لم يكن ليكتب. وكان رافايل يجد كرسِيّاً آخر فيسير به نحو الحفرة ويجلس معه. كما يَذْكُرُ كيف كانت تتساقط أغاني الطيور من الأشجار. وكان الكاتب يسأله عمّا كان يحدث في الحقول، فكان رافايل يردّ ـ مخيّم نار، فِلاحة، صَيْد غربان، ثم يشرح كيف أنّ والده كان ينحت غراباً كبيراً من الخشب ويضعه على السّياج، وبصرخاتٍ متعطشة للدّماء يهاجمه بعنف بواسطة سكين، مدّعياً أنّ هذا يبعد الغربان عن حديقتهم. يقول الرجل الجالس إلى الطاولة "إنّي أفهم"، ثمّ ينظر إلى ما وراء البحيرة نحو موقع النشاط ذاك. وعادةً ما كان رافايل يزوره وهو إلى الطاولة الزرقاء في ظلّ السنديانة العملاقة.

ويقول الرجل: عندما كنتُ أكتب كان هذا هو الوقت الوحيد الذي كنت فيه أفكّر، إذْ كنت أجلس مع قلم ودفتر ملاحظات وكنتُ أتوه في القصّة. وهكذا كان الكاتب العجوز وبسلامٍ ظاهري يقترح بعفويّة على

Twitter: @ketab_n

رافايل المسار الذي ربّما يأخذه خلال حياته، كما يعلّمه كيف يكون وحيداً ومكتفياً، ومحمياً من كلّ من يعرفهم، حتى من الذين يحبّهم، وبطريقة غريبة يَفْهَمُهُم كلّياً. وكان هذا بمنحىً ما إقتراحاً مروِّعاً من السِّرِّيَّة المتعلّقة بما قد تَفْعَلُهُ بحياةٍ تنفصل فيها عنها كلّ تلك الساعات، ممّا قد يؤدّي بطريقة ما إلى الحميميّة. ولقد ضرب الرجل نفسَه مثالاً على ذلك. فهو المُسْتَوْحِدُ في عالمه المنشَغِل والمزدَحِم بالإبتكارات. ولقد كان ذلك أحد آخر الأشياء التي تحدَّث عنها الكاتب إليه.

كان الوقت الثالثة قبل بزوغ الفجر. سَحَبَ رافايل القنديل من المكان المعلّق به وذهب خارجاً. وكان في المرعى كرسيّان فوضع القنديل على واحد منهما وأضاء الفتيل، ثمّ سحب كرسيَّه بعيداً كي لا يكون في مرمى الضّوء. وجلس هناك ويداه مكوّرتان على حضنه.

وكان قبل أن يخرج يستمع إلى تنفّس آنّا في المقطورة المُعْتِمَة. وكانت قد سحبت ذراعها إلى الخلف خلال اللّيل واستَرْخَت على كلّ السّرير. كانت أضعف منه لكنّها كانت معتادةً على المساحة الأميركيّة. وأثناء نومها كانت آنّا تختفي في عالمها حيث كانت حتى هي نفسها غريبة، ووجد رافايل نفسه مرّةً أخرى وحيداً. كانت تلك ساعة الليل خاصّته، حيث يكون بالكُلّيَّةِ مستيقظاً، مدركاً حياة تلك الأشجار المحيطة بالحقل ومدركاً القمر الخافت. ورغم ذلك كان وحيداً. وكانت آخر مّرة رأى فيها رافايل والده ذاك الصّباح حين شاهده يمشي بعيداً عن قبر آريا. واحتاج إليه رافايل في الأشهر التي تَلَتْ كي يعيدَه إلى العالَم، إلاّ أنّه لم يجد أيّ اتّصال به أو أي دليل على مكان وجوده. فهو قد يكون موجوداً في متاهة من القرى وحتى المدن. لقد أصبح رافايل

Twitter: @ketab_n

يتيماً، وكأنّه لم يكن بإمْكان أحد والديه أن يكون موجوداً بدون حضور الآخر. لقد خسر جناحَيْ حمايته.

أَتَتْ آنّا من خلفه بصمت ووضعت يديها على كَتِفَيْه.

ـ ذَهَبْتَ بعيداً مجدّداً.

ـ لا. ما زلتُ هنا.

ـ حسناً، أريد إخبارَكَ عن شيء.

ـ يتعلّق بنا؟

ـ ليس بنا، أجابَتْ. بل عن شيء يتعلّق بي.

وفجأة توقَّفَت آنّا عن التفكير واختفى تردّدها. وأمامَهما كان أرنب برّي يسترق النّظر من حدود العَتْمَة. فانتظرَتْهُ كي يقفز نحو الضّوء. الفضول والشجاعة هما ما تمنّاه كلاهما تحت خفق ضربات قلبيهما.

Twitter: @ketab_n

من رحم الماضي

عاشت كلير حياتَيْن متمايزتَيْن لمدة سنتين. فخلال أيّام الأسبوع كان لديها عمل في سان فرنسيسكو مع محامٍ يدعى فيا، في مقام رئيسيّ بمكتب المحامي العامّ. وكان العمل بمجملَه بحثاً دؤوباً، ولقد أرشد فيا كلير عبر المهنة ومسارها، ملاحِظاً وجود هَوَسٍ حاذرٍ لدى هذه المرأة التي كان بمقدورها إدراك معلومة صغيرة على بعد أميال. وبعد ذلك في عطلة نهاية الأسبوع كانت كلير تختفي، سائِقَةً سيارتها بعيداً عن المدينة نحو المزرعة جنوب بيتالوما حيث كانت تقضي ساعة أو ساعتين مساء الجمعة مع والدها.

جلسا وتناولا العشاء وجهاً لوجه ولاحظت كم بدا متقدِّماً في العمر. كما أدرَكَتْ أنّ ثيابه الآن بَدَتْ مفضفضةً عليه رغم أنّه ما زال يبدو رجلاً قاسِياً ودَقيقاً كآلة في طريقة حَرَكَتِهِ وطريقة كلامه على مائدة المطبخ. وهو الذي نَظَّفَ معظم الأرض عندما كان في العشرينات من عمره، كادحاً أيّاماً طويلة وطارداً الذِّئب والغُرَيْر والمفترض فيهما أن يكونا متوحّشين كالحيوانات الشَّرِهَة اللّحومة. وكانت كلير وآنّا قد سمعتا أنّه في إحدى المرّات تقفّى أَثَر فهد أميركي لعدّة أيّام بزوج من كلاب الصّيد المرقّطة والتي استطاعت اقتفاء أثر البهيمة الوازنة حوالي المئة كيلوغرام ممّا جعله يقتنصها من بين الأغصان. وكانت الفتاتان تَرْجُوانه أن يُمَسْرِح

Twitter: @ketab_n

هكذا أحداث ويحوّلها إلى مغامرات عظيمة من أيّام شبابه. لكنّه كان يرفض، دائماً مقتضباً أو صامتاً بما يتعلّق بمسرح ماضيه. وحتّى اللّحظة يدور وكلير حول الحدث الّذي أدّى إلى غياب آنّا عن حياتهما، غير متكلمَيْن عنه بتاتاً، وكأنّ خسارة آنّا كانت قد استَنْفَدَتْهُ ثمّ أَنْهَكَتْهُ حتى أنه بطريقةٍ ما ختم عاطِفَتَهُ كما كان قد فعل بعد موت زوجته عندما كانت ابنتاه صغيرتين جدّاً لمعرفة ذلك. ولِنَفْتَرِضْ أنّ الألَمَ وحبَّهُ القويّ لآنّا ما زالا طليقَيْنِ تحت جِلْدِهِ، فإنّهُ وابنته الباقِيَة معه يودّان الآن الصَّمْتَ عن الموضوع. فعندما تَكَلَّمَتْ كلير لآخر مرّة عن آنّا، رَفَعَ والدها كَفَّهُ في الهواء راجِياً منها بِهَوْلٍ أن تتوقّف. ولم يعد هناك من تقارب بينه وبينها؛ فأيّ حميميَّةٍ كانت قبلاً موجودة، كانت آنّا قد هَنْدَسَتْها.

خلال هذه الزيارات كانت كلير تراه لِلحظات قصيرة خلال الصّباح التّالي قبل أن تركب حصانها نحو التّلال مع لباس واقٍ من المطر وطعام ومياه كافيين لمدّة ستّ وثلاثين ساعة وموضوعَيْن في جانبي الخُرْج. وكانت وحصانها يصعدان نحو التّلال حيث كان يعتقد جزء منها أنّه منزلها الحقيقي. فهنا لا تعود مقيَّدَة بحياتها العائلية، وقد تصبح هي ذاتها خطراً على نفسها، شاعِرَةً بالإثارة عند وصولها إلى موقع مخيّم في الليل بعد أن يكون ضباب الأرض قد حاصرها. وفي حالة الوجود الإلهيّة هذه تكون نصف تائهة ونصف مندهشة، واعِيَة لخيط دخان يتصاعد من نار المخيّم.

وكانت تخاطر بكلّ شيء هناك، متّبعةً بسرعة ممرّات ضيّقة في ضوء القمر وسابحة في تيّارات النهر المضطربة وراكبة بِخَبَبٍ فوق جسر اللاّيَدَيْن، مُفْلِتَةً اللّجام ومادّة ذراعَيْها. وبالكاد يستطيع زملاؤها في

Twitter: @ketab_n

العمل معرفتها، وحتى والدها قد لا يستطيع ذلك رغم أنّه كان قد شاهد لديها حبّ الهرب هذا منذ صِغرها. (وكانت قد عَرِفَتْهُ دائماً كرجل ساكن، نادراً ما يقودِ السيّارة أو يركب الحصان). وافترَضَتْ كلير أنّ أحد أسلافِها من دمها اللّقيط كان رجل خيول. وكانت تنهض من استرخائها إلى المهماز وبلحظة تكون حرّة. فبهذه الطريقة كانت تكتشف المساحات الشاسعة لديها.

وفي المرّة الأولى التي دخلت فيها كلير سباق التّحمّل رماها حصانُها وَنَزِلَ يتمايَل في منحدر صَخْريّ. ثمّ وَقف الحيوان هناك بِصَبْرٍ في غمامة من الغبار الأحمر، بينما استطاعَتْ هي أن تَرْكَبَهُ مُجَدّداً وَبِكَتفٍ مخلوعة. وتابَعَتْ لميلين آخرين قبل أن تستسلم وتعود بذكاء غير متناسب مع دمها، وهذا أمر يتعلّق بالعقل وبقاء الحياة، فاتَّبَعَتْ العلامات الصّفراء عائدةً إلى المخيّم في "روبنسون فلات". وكان الحصان قد عَرْقَلَها فيما كان ينزل بها في الوادي وكانت قد سامَحَتْهُ على ذلك. فللأحصنة أيضاً شياطينها الفُجائيّة. وَقدّمَ أحدهم لها سيكارة، فَدَخّنتها قبل أن تهاتف والدها.

وصل بعد ساعة في شاحنة للأحصنة. وذهب إليها ورأى في عينَيْها نظرة كلب هارب وَوَحْشِيّ ومُؤْذٍ نفسه مع نَقْص في معرفة كم يتطلّب الأمر منه أو الإنجاز. أخبَرَتْهُ أنّ الأمر ليس بذي أهميّة، لكن في المزرعة عندما نَزِلَتْ من الشاحنة بالكاد استطاعَتْ أن تمشي فَحَمَلَها إلى المنزل. وكانت هذه المرّة الأولى التي يلمسها فيها منذ عام. أَنْزَلَها على طاولة المطبخ الطويلة وضغط بمنشفة ساخنة حول كَتِفها، ثمّ وضع ركبته على

Twitter: @ketab_n

ظهرها وَفَتَل الكتِف إلى الأعلى فانفجرت بالبكاء. وعندما فَعَلَ ذلك مجدّداً غابَتْ عن الوعي.

وعندما استيقَظَتْ كلير كانت ما تزال حيث تركها. وكانت هناك وسادة تحت رأسها وَرَأَتْهُ جالساً على الكنبة ذات القماش الصّوفي وهو يراقبها ليطمئنّ على سلامتها. وحاولت أن تتحرّك يمنة ويسرة. وأخيراً استطاعت الوصول إلى سيّارتها وساقتها لمسافة أربعين دقيقة وصولاً إلى سان فرنسيسكو حيث من المفترض بها أن تبدأ العمل في اليوم التالي.

أمَّنَ مكتب المحامي العام الدِّفاع القانوني لمن لا مال لَدَيْهِم. وكانت كلير قد عَمِلَتْ لديه لمدّة خمس سنوات. وكان لدى ألدو فِيا، محامي الولاية، معاونتان تساعدانه في الأبحاث، وكلير إحداهُنَّ. وكان فِيا يلتقي كلير وشون كلّ صباح في مقهى يقع في شارع "غِيري"، فكانتا تأكلان فيما كان فِيا يناقش القضايا العالِقَة. وكان ذكيّاً في عرض الإحتمالات مبتكراً وشارحاً زوايا الدِّفاع. وبحلول التاسعة والنصف كانوا ينغمسون في هواتفهم متحدّثين إلى أيِّ شخص على علاقة بماضي المتَّهم ـ أصدقاء الدراسة والأحبّة وأرباب العمل. ثمّ كانوا يحقّقون مع الضّحيَّة، فلربّما كانت هناك إشارة إلى عنفٍ ما في ماضي الضّحيّة قد تساعد في تغيير القضيّة. وكانوا يحملون بوضوح دفتر ملاحظات بينما يخبّئون الميكروفون. فكانوا أفضل من الشرطة، كما قال فيا. وكانوا عائلة، فقد كانت كلير تعرف كلّ شيءٍ عن شون وعن فِيا وعائلته. وعندما مَرِضَت زوجة فِيا، كانت كلير تُقِلّ الأولاد في سيارتها بعد المدرسة وتجلبهم معها في ملاحقاتها. وعندما كَسَرَتْ شون صمتها

Twitter: @ketab_n

حيال انجذابها المتزايد نحو النّساء، تناول فِيا وكلير معها العشاء وقدّما لها خطّة مطاردة لمن تحبّ.

وكانت كلير تظهر دائماً كلّ صباح اثنين مرتَدِيَةً فستاناً ملوّناً بأقلام الرّسم. إنّ الصورة المشغولة منزليّاً والإحساس بعدم القدرة على الدّفاع كانا مهمّين، حسب قول فِيا، لكنّها تظنّ أنّه كان يحبّ ذلك أيضاً. كما كانت تضع خاتماً تحوّله من إصبع إلى إصبع، طِبْقاً لمن كانت تقابلهم. وكانت فساتينها توحي للرّجال باللّطف والكياسة؛ فلم تكن تبدو وكأنّها الآمِرة. وإذا تقرّب منها أحدهم فإنّ الخاتم في إصبعها كان ليظهر بوضوح وكانت تعلن بنعومة أنّها كان حبلى. (وعندما أجابها أحد خَطِرٌ باستهزاء "مع طفل؟"، حَنَتْ رأسَها لتخفي ابتسامتها. والآن سوف تعامَل كسيِّدة محترمة). وكان من المفترض بها أن تكون إنسانةً متماهِيَةً بحيث لا تظهر موقِفاً أخلاقِيّاً بل تساهلاً وتعاطفاً. وكانت تعرف أفضل الأوقات كي تجعل الناس يتكلّمون. وكانت النّسوة أفضل الناس على الهاتف لأنّهن كان باستطاعتهنّ عمل شيءٍ آخر في الوقت نفسه. وخلال الملاحقات إذا دقّ أحد الجيران الفضوليّين على نافذة سيارتها سائِلاً عمّا تفعله، كانت تشير بغموض إلى أحد المنازل "إنّ صديقي في الدّاخل سكران، وكان عليّ الخروج، وأنا بانتظاره". "هل أُحضر لكِ شيئاً يا عزيزتي؟" "كلاّ شكراً" رغم أنّها قد تكون مُتَعَطِّشَةً للقهوة أو قد يكون عليها الدخول إلى المرحاض. أثناء الملاحقات يعيش المرء في حالةٍ من التّيقّظ وفي نهاية النّهار يكون مُنْهَكاً.

وفي معظم الأيّام كانت كلير تحقّق في منشأ خديعة تأمين أو قضيّة تحرّش. وتكمن وظيفة مكتب المحامي العام في الدفاع بصورة أساسيّة

Twitter: @ketab_n

عن أيّ مُغوزٍ تُساق ضدّه تهمة جنائيّة. وقبل حصول القضيّة الفصل والمتمثِّلة بِجِدعون ضدّ واينرايت، كان الأغنياء فقط يحصلون على محام. وكان على مكتب المحامي العامّ التّجاوُب مع الشّرطة ومع "حفلة الأدلّة الجماعيّة" والتي تحصل بعد حدوث الجريمة. ويعتقد رجال الشّرطة أنّهم إذا لم يستطيعوا حلّ الجريمة في ثلاثة أيّام، فإنّهم لن يستطيعوا ذلك أبداً. ولهذا هم نادراً ما يعطون القضيّة وقتاً أكثر من ذلك، فهم لا يريدون تعقيدات أو تفاصيل. ويُسمح للمحامين العامّين أن يشاهدوا الأدلّة بعد اليوم الثالث فقط، كما عليهم أن يَجِدوا بسرعة الشّهود والأخطاء كي يثْبتوا أنّ المتَّهَم لم يقترف الجنايَة أو أنّه لا يستحقّ الموت. والحالة الأخيرة تُطَبَّقُ على مرحلة العِقاب، وهو الوقت الوحيد الذي يُسمحُ فيه للمحامي أن يحاول التأثير على النتيجة. ومرّةً بَحَثت كلير في تاريخ رجل محكوم عليه بالإعدام فاكْتَشَفَت حالة اعتداء سابقة كان قد اقتَرَفَها في الماضي، عندما كان في العشرين من عمره، وَوَجَدَتْ أنّه هاجم رجلاً كان قد ضرب بوَحشيّة كلبَهُ. عظيم، بينغو! فَلَقَدْ تبيّن أنّ هذا التّفصيل جَلَبَ له السِّجن المؤبّد وَخَلَّصَهُ من الحقنة المميتة. وكما قال فِيا في ذاك الحين: لو اكتُشِفَ أنّه كان قد قَرأ كلّ مؤلَّفات هيرمان ميلفيل، لما كان لهذا الأمر أيّ تأثير، إلاّ أنّ "المُغَفَّل" كان قد عاد ليخلِّصَهُ.

وكانت كلير بعد العمل تلتقي أحياناً بِفِيَا ليأخذا شراباً في "مدينة الضّباب"، مُراقبةً ذاك الزّيت القليل الزَّلِق في كأس الفودكا مارتيني خاصّته مُتَلَوِّياً بخطورة. وكان ألدو فِيا أكثر الرجال الذين عَرَفَتْهُم كلير أخلاقاً، كما كان قد عَلَّمَها كيف تحيا في مهنة الجريمة والعِقاب هذه، وكيف تَقْبَل الحاجز المغلوط بين السَّبَب والنتيجة، وكيف ترى الحاضر

Twitter: @ketab_n

وهو يغيِّر بطريقة متواصِلَة الماضي، تماماً كما أنّ الماضي هو إرْثٌ غريب وقد انقلب على رأسه في حياة المرء كصورة مأخوذة من كاميرا طامِسَة للحقائق. وكانت الأخلاق تتجلّى في كلٍّ ما هو ثابت. وكان فِيَا يقول"عليك الإيمان بالمبدأ إذا كنتِ لا تستطيعين الإيمان بالرَّجُل. تلتقين بالوحوش وعليكِ الدِّفاع عنهم. فعليكِ الإيمان بمبدأ العدالة الكاملة. وعندما يواجه المجرم عقوبة الإعدام، فهو ليس الشّخص الذي يسأل أن يُسَامَح وهو لا يَسْتَحِقّ أن يَسأل. بل نحن مَنْ يَسْألون". لقد خَدَمَ فِيا في فيِتْنام بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة من عمره ولقد شاهد الوحش وعرف كيف يَسْتَحْوذ الوحش على المرء.

وكانا يتناولان ذلك المشروب في"مدينة الضّباب"في آخر النّهار، وكانت تمنعه من تناول كأسٍ أخرى. فإذا شرب المزيد كانت تترك الحانة، أمّا إذا لم يشرب فكانت تبقى لتصغي إليهِ. وكان بحاجة لأنّ يُفَضْفِضَ، دائماً. فكان يتحدّث عن فيتنام. وعندما كان يتكلّم عن القضايا التي كان يكافح من أجلها، كان بالحقيقة يتكلّم عن فيتْنام. وفي أحد الأيّام بَدَأَت تخبره بما حدث في تلك السنوات الماضية بين والدها وكوب وكيف اختفَت شقيقتها في ذاك الوقت."حسناً، هؤلاء ليسوا وحوشاً"، أجابها وهو يلوّح بيده وكأنّه يطرد هُدْبَةَ عينٍ."هناك دائماً أضرار تتجمّع في الطّفولة". وكان فِيا الشّخص الوحيد الذي أَخْبَرَتْهُ كلير عن مسقط رأسِها."وهل أعادَت الإتّصال بكِ؟" "كلاّ"."إذاً ما زال هناك حزنٌ في حياتها. هل كنتِ تغارين من أختِكِ؟" "لا. مرّة واحدة فقط". إذا كان من شخصٍ قادرٍ على تهدئة كلير ونزع فتيل ماضيها فهو فِيا، وكانت تتساءَل إذا كانَ والدها وكوب وآنّا يبدون طرفاء بالنّسبة إلى شخص مثله.

Twitter: @ketab_n

وإذا ما وَصَلَتْ متأخِّرة جِدّاً إلى "مدينة الضّباب" وكان قد سَكِر تِجلس معه. إنما تأخذُ مفاتيح السّيارة من جيبه وتنتظِرُ حتّى يكافح كي يخرج من الحانة الضيّقة بعد أن يكون قد دفع الفاتورة. فتجد سيارته وقودها متوجِّهةً به إلى منزله، ومخابِرَةً زوجته في الطريق كي تُعْلِمها بقدومهما. وعند رَكْنِ السيارة كانت تَضَعَ المفاتيح في جَيْبِهِ وتمشي لملاقاة التاكسي المنتظر والذي كانت قد طَلَبَتْهُ. ثُمّ تلوِّح لزوجة فِيا الواقفة أمام باب المنزل والتي كانت تصيح بها، "أحبُّكِ يا كلير" فيما كانت كلير تهمّ بركوب التاكسي. فيَنْام.

وكانت كلير تشعر أنّ فِيا قد زرع فيها قضيّة، وهي مبدأ يدلّها على ما عليها فِعْلُهُ في حياتها، ولِذا كانت مستعدَّةً لفعل أيِّ شيءٍ من أجلِهِ. وهو لم يقترب منها أبداً إلاّ كمواطِنَة، بالإضافة إلى شَرَفِ مِهْنَتِهِ، ورغم ذلك فالله يعرف ما هي خفايا عواطفه وظُلُماتِهِ. وكانت تعرف أنّ زوجة فِيا تستطيع دراسة خريطته بتفاصيلها. فكانت تأخذ كلير إلى الحفلات السيمفونيّة ورقص الباليه، وهي أمور لم يكن باستطاعة فِيا الجلوس فيها هامِداً. فلا تملك الباليه الكلمات الكافية لإبقائه مستيقِظاً. إنّ أقرَبَ ما كان إليه من الرّسميات هو ثيلونيوس مونك إذ كان يقول إنّ موسيقاه في التسجيلات المهمَلة كانت تشبه أغاني الطيور السّجينة. وعندما كانت تذهب لتناول العشاء في منزل آل فِيا كان في طور إعادة بناء جهاز الصوت المصنوع محلّيًا، وكان ذلك يؤدّي إلى مناقشة أحدث جهاز استرقاق سمع موجود في الأسواق. وكان يقول "هناك جهاز لايزر باستطاعته قياس الذّبذبات على زجاج نافذة في الناحية الأخرى من الشّارع ومن ثُمّ يقوم بترجمتها إلى أصوات. ومن هناك تبقى خطوة

Twitter: @ketab_n

واحدة لنا كي نستمع إلى محادثة تجري في تلك الغرفة. ولقد كنّا نحن من هُزِمَ في الحرب...".

واستيقظَتْ كلير فجأة. كانت في غرفة فندق في تاهو وكانت قد قادت سيّارتها فترة بعد الظهيرة تلك من سان فرنسيسكو فكانَت بحاجة إلى النوم لساعات قليلة. في الأيّام التي سَبَقَتْ ذلك، كانت تناقش مع فِيا قضيّة مجلس أمناء مدرسة فَأَعْلَمَها أنّ عليها الذّهاب إلى تاهو. وعندما نَهَضَتْ وَنَظَرَتْ خارج النّافذة نحو المدينة المحاذِيَة للبحيرة، رَأَتْ كُلّ الكازينوات مضاءة وهي تستدعيها. لكن عندما نَزِلَتْ اقترح عليها موظّف الإستقبال الذّهاب إلى نادٍ يُدْعى ستندال والذي قد يكون أكثر إثارة من أيّ تسلية في قاعةٍ لِلَعِبِ الورق.

وفي وقتٍ ما أثناء عَشِيّتها في ستِنْدال عَرَضَ أحدهم على كلير حَبَّةً. "ما هذا؟" سَأَلَتْ الشّخص الجالس قربها، فتلفَّظ بشيءٍ لم تفهمه. فَقَسَمَتْها إلى نصفين وابتَلَعَتْ أحدهما بسرعة، بعد أن اختارت الجرعة الأصغر.

وكان نادي الستِنْدال مدينة صغيرة من الأمزِجة. فكانت هناك غرف للصّمت وأخرى للموسيقى الصّاخبة، وغرف لعصير الفاكهة والخضار الطازجة، وأخرى للمسّاج أو التدليك، وغرف لعرض أفلام مبنيّة على النّبات أو على الكوكب ـ كفيلم بَرَكَة أو فيلم كويانِسْكاتسي أو ذاك المتضمِّن مقطعاً صغيراً لمؤامرة في فيلم إثارة، وكان يُعاد عرضه بالحركة البطيئة حتّى لتبدو ذراع امرأة تلتقط حقيبة مُشِعَةً كدودة الشرنقة في زمن التحوّل. وَوَقَعَتْ كلير تحت تأثير مشهد صغير من فيلم سايكو أي المريض النّفسي والذي كان يُعْرض ببطءٍ، وفيه كان أنطوني برْكينز

Twitter: @ketab_n

يمشي ببراءة نحو جانيت لِيه حامِلاً صينيّة عليها كوب حليب وسندويشات. وشاهَدَت كلير هذا المقطع مباشرة بعد تناولها الحَبَّة وكنتيجة لذلك لم تكن متأكِّدة إذا كان تمدُّد مشهد الخمس والأربعين ثانية لِيُعْرَض في تتابع يدوم لمدّة عشر دقائق هو موهبة الحَبّة أو موهبة الفنّان. على أيّ حال، لقد أصبح بمقدورها أن تقرأَ كلّ النَّظَرات البريئة التي أعيد بثّها عدّة مرّات، وأن تعرِفَ ما قد يحصل في المستقبل. وعندما ابتعدت عن الفيلم رأت غرباء يتحرّكون بِحَذَرٍ حولها كما رأت رجلاً يمشي ببطءٍ أليم نحوها حامِلاً كوب حليب على صينيّة وكان الكوب شديد البياض كأنّ مصباحاً كهربائيّاً يشعّ داخله.

وَوَجدتْ قاعة الرّقص فَبَقِيتْ هناك لمدّة ساعة أو اثنتين، كانت أثناءها وحيدة أحياناً، وفي أحيانٍ أخرى كانت تُحْشَرُ بين أجساد عدّة تتحرّك معاً وكأنّها ذرّات موجة مائيّة. لقد كانت في تاهو من أجل أمرٍ ما، لكنّها لم تعد تتذكّر ما هو. كان عليها أن تقوم بعملٍ ما، لكنّها لم تعد تدرك موقع هذا العمل في ذاكرتها. عليها الذّهاب إلى غرفة الصّمت خلف الأبواب الثخينة والمنفوخة بالهواء، حيث عليها حلّ معضلتها هناك، بحيث يتدحرج سبب وجودها في تاهو باتّجاهها وكأنّه "كِلَلُ" الأولاد.

وبعد ساعات عدّة استَيقَظَتْ، ومشت عائدة من النادي إلى فندقها. وكان الصباح غائماً وزخّات المطر آتيةً من ناحية البحيرة. وتعرّجت الطرق الضيّقة نزولاً صوب وسط المدينة. نَظَرَت إلى الخلف لتُحدِّد ضجّةً ما فرأت أحدهم يوشك أن يتجاوزها على مِزلاجين. إلتَقَطَت عيناه نظرتها فاتّخذ قراراً سريعاً فوصل إليها والتقطها حامِلاً إيّاها على اللّوحة

Twitter: @ketab_n

أمامه. وبالكاد كان يُمْسكها بينما أمسَكَتْ هي باللاّشيء، فلقد كانت مجرّد واقفة ومحاطة بذراعَيْهِ وكانت عيناها شاخِصَتَيْنِ. وسابَقا فوق نتوءات الرصيف زخّات المطر، وبصعوبة كانا يَرَيان الأَوْجُهَ وهما ينزلِقان قربها. لقد كان كلّ شيء لوناً ومطراً. وبدأت ترتاح، وفي تلك اللّحظة رفعها ووضعها على الرصيف ثمّ أسرع بعيداً عنها. ونَظَرَتْ كلير لترى المسافة التي قطعاها وَوَقَفَتْ لبرهة بلا حراك أمام المنازل الخشبيّة. كانت بحاجة لأنّ تَجِدَ فندقها وتنام.

وأثناء "سيرها في النّوم" هذا أو سَرَحانها اللّيلي دخلت حانة طعام واستقرّت في إحدى حُجَرِهِ. طَلَبَتْ ماءً معدنياً وثلاث بيضات ومقانق وفطراً. وهل لديكم بندورة خضراء؟ نعم. ضاعفي الطّلب إذن. وَجَلَبَتْ النّادلة لها الطّعام فَبَدَأَتْ بتناوله، ملتقطة إيّاه، ومتثاقلة وَتَعِبَة وغير قادرة على إمساك السّكين والشوكة. وحينها رأت أحدهم يشبه كوب داخِلاً إلى المطعم.

ـ كوب؟

لم تَقُلْها عالية ولم تكن متأكّدة إذا كانت قد استَدْعَتْهُ من الظّلمة. وقفت فقط في زاويتها وكان هو ينظر عبر الغرفة بحثاً عن مقعد فرآها. وكانت هناك ابتسامة مندهشة. ذَهَبَتْ نحوه وعانقته. لقد كان هو فلم تُفْلِتْهُ لأنّها كانت تجهش بالبكاء. وكان السّببَ تَعَبُها أو البخار الباقي من الحَبَّةِ. كما لم تكن تتوقع هذه المفاجأة فاجتاحتها عاطفة رؤية كوب.

جلس أمامها وكانا صامِتَيْنِ. وبقي ينظر حوله ثمّ خلفه وعاد لينظر إلى كلير.

ـ إذاً هنا تسكنين؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلاّ لا أسكن هنا بل في سان فرنسيسكو. ولم يقل شيئاً بل راقَبَها.

ـ إنني أعمل لدى محامي دفاع. أقوم بأبحاثٍ وتحقيقات. أعمل لدى ألدو فِيا. هل سَمِعْتَ به؟

ـ وهل يحقِّق في القمار؟

ـ هذا من نطاق الإدِّعاء. أنا في الدِّفاع.

وفجأة أدركت ما كانت تلبسه.

ـ لقد كنتُ في النّادي الليلي. وهذا ليس من عادتي. وَبَرقَتْ عيناها، فلقد كانت الإثارة والإرهاق يضربانها في اللّحظة نفسها.

ـ إسمع يا كوب. أريد أن أتكلّم وأسمع كلّ شيءٍ، لكنّني بحاجة إلى...

ـ دعينا نذهب، قال لها. وعلم أين فندقها، فاقترح عليها المشي لالتقاط الهواء المنعش. وما إن أصبحا خارجاً حتّى أخبرها أنّه يعيش من المقامرة، وسألها عن طبيعة عملها. وبقي يمشي إلى جانبها كي يبقى ناظِراً إليها. هل تحقّقين في شيءٍ ما هنا؟

ـ لفترة وجيزة. إنّي أبحث في قضيّة لِرَئيسي... إنّكَ تتحرّك كرجل عصابات يا كوب.

ـ أنا لاعب ورق.

ـ أرى ذلك.

ـ وأعيش على بعد ساعات قليلة شمال لوس أنجِلِس في مدينة صغيرة تُدْعى سانتا ماريّا. أسكن هناك منذ عِدّة سنوات. وأنا في تاهو أبحث عن أحدهم.

Twitter: @ketab_n

ـ هل لديك منزل؟ أعني في سانتا ماريا.

ـ أعيش في فندق.

ـ يا إلهي.

ولوّح لسيارة أجرة.

ـ ماذا تفعل؟

ـ أنتِ تَعِبَة. لا أظنّ أنّ باستطاعتكِ السَّيْر نحو فندق الفُلِزْ (اي الممتلئ).

وقف في مدخل الباب بعد أن دَخَلَتْ غرفتها في الفندق وسألها عن زمان رحيلها عن تاهو.

ـ إجلس وخذ شراباً يا كوب. أستطيع البقاء مدّة كافية كي أراك مجدّداً إذا كان لديكَ الوقت. رَمَتْ نفسها على الأريكة وخلعت حذائيها وهي تراقبه.

مشى كوب إلى النّافذة التي عَرَضَتْ أضواء تاهو النابِضَة.

ـ إن لعبة ورق ضخمة ستجري في الأسفل هناك في الأيام القليلة المقبلة. وعليّ بطريقةِ ما الإنسحاب منها. أحتاج لبعض المساعدة، من صديق قديم. واستدار كوب ليرى كلير وقد انسلّت جانبيّاً على الكنبة، وهي نائمة. ذهب إليها ووقف ناظراً إليها.

سحبها ورفعها في مواجهته ووجهها على عُنُقِه. فاشتمّ رائحة بقايا عطر ولم يكن قد فكّر من قبل بكلير كشخص مع عطر. فهي كانت الفتاة التي علّمها صيد الأسماك وركوب الخيل وقيادة السّيّارة. واستطاع رؤية الدفء ذاته في وجهها وهي قريبة منه، ووجد نفسه يبتسم لها. لقد مرّت

Twitter: @ketab_n

سنوات منذ أن رآها آخر مرّة. "تعالي فأنت تحتاجين للنّوم." دَفَعَتْهُ بِيَدَيْها بعيداً عنها وهيِ نصف مستيقظة "لا بأس يا كوب، هذه أنا. وأنا أساعدُكَ فقط".

وخلال اليومين التاليَيْن عَمِلَتْ كلير على قضيّة مجلس أمناء المدرسة وانتظَرَتْ من كوب أن يهاتفها. كما حاولت الإتّصال به على الرّقم الذي كان قد تَرَكَهُ لها ولكنْ لا جواب البتّة. فَلَرُبّما كان قد غادر المدينة. وذهَبَتْ إلى عدّة قاعات للعب الورق لكنّها عندما كانت تسأل اللاّعبين عنه كانوا يستديرون بعيداً أو يتجاهلونها. لقد بدت المجهوليّة أَدَب سلوك في هذا العالَم. فهي قد تكون زوجة أحد المقامرين الجوّالين. ولم تكن لديها معلومة عنه أو عنوان، فقط رقم هاتفه المُخَرْبَشْ. وبعد كلّ هذه السنوات، خسرته مجدّداً.

إتّصَلَتْ بفِيَا وَأَعْلَمَتْهُ أنّها باقية لفترةٍ أطول قليلاً، ثمّ سَأَلَتْهُ إذا كان باستطاعته تَتَبُّع عنوان معيّن من خلال رقم هاتف بِحَوْزَتِها... يتعلّق بشخصٍ تعرفه جيّداً، بقريبٍ لها نوعاً ما. وهي بَدَأَتْ تشعر أنّ خَطْباً ما قد حصل. هذا إذا كان هذا الشّخص موجوداً في المقام الأوّل، إذ رُبَّما اختَرَعتْهُ نصف الحبّة التي كانت قد ابْتَلَعَتْها، هَدِيّة صغيرة تنهي بها ليلة طويلة جدّاً.

خلال السنوات التي كان يقطن فيها كوب في سانتا ماريّا على التّلال الواقعة على مسافة ساعات قليلة شمال غرب لوس أنجلوس، كان يقامر طويلاً أثناء اللّيل، ثُمّ يعود إلى غرفته في الفندق حوالي الثالثة أو الرّابعة صباحاً. وكان يعيش وحيداً وفي معظم الأحيان غير معروف ضمن مجتمع المدينة. وكانت مقاطعة سانتا بارْبَرا في جيل سابق مأهولة

Twitter: @ketab_n

بمعظمها من العمّال المهاجرين من مكسيكيّين وكولومبيّين وفيتناميِّين وأميركيّين من أصلٍ إيطالي، وهم كانوا يعملون في مزارع تربية المواشي ومزارع الخضار المنتشِرة على الأرض المنبسطة وراء الطريق السّريع. لقد عاش الأغنياء على التّلال، وهناك كان المرء يلتقي بالصّبية الهائمين والمحبّين للمقامرة. وبهذه الطريقة أَخَذَتْ الديموقراطيّة لها موطئ قدم في الوديان. وكان كوبر أحياناً يقود جنوباً مخاطراً باللّعب في مبارَياتٍ كبيرةٍ للهواة على طول الشّاطئ، لكنّه كان مرتاحاً بصورة أساسيّة في هذه المدينة الصغيرة الواقعة على الطّريق السّريع. ومنذ ذاك الفصل في فيغاس حيث كان قد خدع الإخوة، كان من الأفضل له أن يبقى مختبئاً. فكان يذهب لحضور الأفلام في فترة بعد الظّهيرة كما كان يقرأ الروايات القانونية المثيرة. وكان يبتاع المومسات عندما كان يحتاجُهُنّ، أمّا في الليل فكان يجلس إلى طاولات الورق. فكان من البديهيّ أن يستيقظ متأخّراً في اليوم التالي ثمّ يذهب راكضاً ليُخْرِق البَلادة المتأتّية من اللّيلة السّابقة. وكانت الحيلة تكمن في وجود توازن لحياة الوفرة هذه. ولم يَعُدْ يذهب إلى فيغاس أو تاهو، كما كان مجهولاً بالنسبة إلى الغرباء الذين كان يلعب معهم الورق. ولم تَكُنْ لَدَيْهِ الرّغبة أن يخطو عائِداً إلى الماضي.

وفي المساء الباكِر كان كوبر يقود سيارته إلى مطعم شِواء على طريق تافت حيث كان يقف أمام العارض الخشبيّ ليشرب المارغريتا السّيئة ثمّ يجلس أمام طاولة بمفرده. وكان عادةً يخرج من مطعم "جوكو" قبل قدوم حشد العشاء الرّئيسي، إذ كان يفضّل أن يتناول الطّعام بمفرده. ولاحِقاً أثناء اللّيل كان مُحاطاً بصحبة ثرثارة على طاولة اللّعب. لكنْ هنا كان يراقب بصمت روّاد المطعم الآخرين القلائل

Twitter: @ketab_n

وحكايات الأزواج أو الأقران. وأَشْغَلَ نفسه بامرأة كانت تأتي كلّ اثنين وجمعة مع رجل ملتحٍ. ولم يكن مطعم "جوكو" معروفاً بخدمته السّريعة، وبينما كان كوبر ينتظر حاول أن يتخيّل حِرْفة ذاك الرَّجُل. هل هو مسّاح؟ أم هو سائق شاحنات شبيهة بالحشرات تتنقّل بين الطائرات في المطارات؟ أمّا المرأة، بتنورتها الصوفيّة المرقّطة بالأبيض والأسود والتي كانت ساقاها بالكاد تَسَعُ تحت الطاولة، فهي كانت بطول ستّة أقدام، أي بطول كوبر، وكانت تَضُجُّ بالطّاقة. فقد كانت تقفز لتتكلّم إلى الموظّفين أو لتتحقّق من اسم أو تاريخ على إحدى اللّوحات الملصقة بالحائط ثمّ تعود بالمعلومة إلى شريكها.

وكان لديها عادةً كتب بجانبها على الطاولة. وظنّ أنّه رأى عنوان إحداها، الكيمياء. وكانت هي في أوائل أو منتصف الثّلاثينات من عمرها. وكانت تظهر دائماً هناك في الساعة نفسها مع الرَّجُل. ربّما يكون أستاذها الجامعيّ، أو أخاها. فلم يكونا يلمسان بعضهما أبداً، رغم أنّهما كانا يتكلّمان باستمرار بينما كانا يتناولان الطّعام. ومثل كوبر كانا دائماً يجلسان إلى الطاولة ذاتها. وفي بعض الأحيان كان يَصِلُ قَبْلَهُما وفي أحيانٍ أخرى كانا يصِلان قَبْلَهُ. وكانت المرأة أحياناً تنظر إليه مُعْتَرِفَةً بوجوده - مَرّةً نَظَرَتْ بسِحْرٍ وَسْط ضحكتها حول شيءٍ ما، فابتسم لها في المقابل. لقد كانت إذاً بينهما هذه اللّحظة الصغيرة الّتي لَفَّها بعنايةٍ بعيداً. في منتصف الوجبة كانت تُمَدِّد ساقيها خارجاً، فهي لم تكن تتناسب مع ذلك المطعم الخشبيّ الحائط والصّغير، حيث كان الضّوء يوضِّح تجاعيد رقاب المقامرين القدامى وشُرَكائِهِم طول الفصل. ومهما كان من أمر الضّوء في "جوكو"، كان يفكّر، فمن الأفضل لو كان

Twitter: @ketab_n

موضوعاً في قنّينة ترحل مع هذه المرأة لبقيّة حياتها ولا تفارقها إلاّ بعد مراسم الدّفن.

وما أراده هو ببساطة النّظر إلى ذاك الوجه الذي لم يكن باستطاعته قراءته. ذاك الوجه وذاك الشّعر الأشقر. ولم يكن الأمر يتعلّق بالجمال بل بالتنوّع. ربّما في فيينّا قد لا يلاحظ المرء هذه المرأة، لكن في سانتا ماريّا هي هذا الفهد الذي قَدِمَ هنا حاشِرةً نفسها بطريقةٍ ما بين ذاك الكرسي وتلك الطاولة قربه كلّ اثنين وجمعة، مواجهة رجلاً هو ربّما ساحر هاوٍ في هذه المدينة الكاليفورنيّة النصف واقعة في الضّواحي. وهذا الرّجل كان يَنْشُرُها نصفين أمام عارضة خشبيّة غير صحّيَّة تقع أسفل الطريق. وَانْحَنَتْ إلى الأمام لِتَهْمِس في أذُنِ صديقها أو أيٍّ يكون هو.

وعاد كوبر إلى غرفته في نزل سانتا ماريّا، وهو ما زال فضوليّاً حول اهتمامات المرأة تلك. وكان عليه أن يعترف لِنَفْسِهِ أنّه لا يعرف شيئاً عنها. ولم يكن قد التقط حتّى خاصّيَّة صوتها. وكان يَصِلُ إلى العشاء بأمانة في الثامنة قبل أن يقود إلى مباراة الورق. فكان يأكل لحوم سبنسر مشواة على شاوية خارجيّة بحجم بركة سباحة وتقع في الفناء الخلفيّ لمطعم "جوكو" - مشهد ينتمي إلى القرون الوسطى، وكان الموظّفون اللاّبسون للتيشيرتات أو القمصان القصيرة الأكمام يحرّكون اللّحم بملاقط عملاقة. وبعدها كان يلعب الورق حتى الثالثة صباحاً، في حين كانت قطعة الستِيْك ذات الإثنتي عشرة أونصة تُهضَمُ ببطءٍ في أحشائه.

وفي إحدى اللّيالي ألقى نظرة فَوَجَدَها جالسة لوحدها. وحين رَفَعَ رأسَه التَفَتَتْ إليه، وبعفويّة لَوّح لها بِيَدِهِ مُحَيِّياً. وإذْ لاحَظَتْ هي ذلك،

Twitter: @ketab_n

جَلَسَ لا يدري ما يفعل. فهو كان بالعادة يَرْمُقُ الإثنينِ بنظرتِهِ بينما كانا هُما مستغرقين في الحديث غير مُدْرِكَيْنِ لوجوده. أمّا هي فقد حَرَّكَت شوْكَتَها حول الرُّقعة التي يوضع عليها الصَّحن، وقد كُتِبَ عليها للزَّبائِن تاريخ المطعم. وقرأ كوبر بعينيه رُقْعَتَهُ. تبدأ الملحمة عام ١٨٨٦ حين افتتح إميري نوتس حانة، وكان أحد أبنائه الثمانية يدعى جوكو كانت زوجته أوّل عاملة هاتف في المنطقة. وكانت أسماء أولادِهما بوكي وجِسي ونوني وبيغِل. ولقد حصلا على "الصّاعقة البيضاء" أثناء فترة منع الخمور، وعلى الآلات البيّاعة خلال فترة الأربعينات ثمّ على قاعة ورق للعب البوكر." ولقد سُمِعَ أنّ الناس كانوا يسافرون مئات الأميال كي يصلوا إلى محلاّت جوكو"، تقول الحصيرة. "ولسنوات عدّة كان قِرْدٌ في الحانة على العارض الخشبيّ...".

- إذاً - هل أستطيع الإنضمامَ إليكَ؟ وَقَفَتْ تَنْفُضُ تنورتها. ولم يقل شيئاً وهي تجلس أمامه.

- أين صديقكِ؟ سَأَلَها.

- أه، من يعلم. فمن المحتمل ألاّ يأتي إلى هنا. وكانت ما زالت تستقرّ، وأصبح صوتها الواضح على بعد إنشاتٍ منه. وكان هناك غياب للعطر عليها، فكان ردّ الفعل الأوّليّ غريباً إذْ أنّه في معظم قاعات اللّعب كانت النّساء مغلّفَة بالعطر كما كان للرّجال مسحوقهم ورذاذهم.

وكانت تُتَمْتِم شيئاً لِنَفسِها، صلاة صغيرة أو ربّما أغنية. وكان لِيَكْتَشِفَ أنّ هذه بمثابة عادة. أمّا الآن، في المرة الأولى، فقد جلس نحو الأمام وعليه علائم التساؤل وكأنّ شيئاً قد فَاتَهُ ممّا قد تكون تحاول

Twitter: @ketab_n

أن تخبره: "وبينما كنت مندفِعاً فوق التّلّة... رأيتُ "مايبيلين" في سيارة صغيرة...".

ـ عفواً؟

ـ تِشاك بيري...

ـ لَعِبْتُ الورق معه مرّة، أخبرها كوبر حين عَرَّفَت عن مصدر أغانيها.

ـ وهل هَزَمَكَ؟

ـ كلاّ. وتوقّف لينقل لها الخبر بلطف. لا، بل أنا من نَفَّرَهُ، فهو لم يكن ذكِيّاً كفاية في اللّعب.

ـ ومن غَيْرَهُ؟

ـ من غيره من المشاهير؟

وهزّت رأسها إيجاباً.

ـ آه، لا أعلم، ليس من أحد. فهو لم يَلْقَ أحداً في قاعات اللَّعب بِمِثْل أهميّة مغني أغنية "مايبيلين" ومؤلّفها وحسب ما يعرف، هو لم يُمرِّر زوجين من الآساسات إلى ألفرَدْ برِنْدِلْ.

وتحادثا بتوقّف، غير قادرَيْن على إيجاد موضوع يخوّلهما الولوج إلى مساحة واسعة من المحادثة. فلم تَقُلْ هي شيئاً عن علاقتها مع شريك عشائها الدائم، رغم أنها ذكرت أنّه يمتلك متجراً للخرضوات. وقالت إنّها تقرأ كتباً عنِ العلوم لكنّها أضْحَتْ بعيدةً عن الإرتباط الجامعيّ، كما أنّها كانت تسافر كثيراً. وكان والدها في الماضي

Twitter: @ketab_n

عسكرياً، لكنّها لم تَعُد تراهُ."أريد من لحم سبنسر"، أَعْلَمَتْ النَادِلة. وهل ترغبين في كأسٍ من النبيذ؟

هزّت رأسها بالنَفي، فهي لم تشرب الخمور. وكان كوبر قد سبق ولاحظ هذا. ثُمّ رميا لبعضهما بعض الدّلالات عبر الطاولة حتّى حوالي التاسعة والنّصف، عندما أعلن نيّته في الذّهاب.

ـ أوه.

ـ مباراة ورق في "كثبان غوادالوب" الذي يقع إلى الغرب من هنا، وذلك مع عدد من علماء الآثار.

ـ أوه.

لقد كان يشاهدها بطريقة أوضح عندما كانت تجلس إلى الطاولة الأخرى، على زاوية معيّنة منه. أمّا على هذه المسافة القريبة فكان عليه مجاراتها في الحديث، كما عليه التفكير أيضاً قبل عرض أجوبته. بهذا القرب وُجِدَت أشياء أخرى كثيرة بينهما.

ـ وهل سأراكَ مجدّداً؟

ـ كلّ اثنين وجمعة، أجابها. ثمّ نهض ليدفع الفاتورة بينما بَقِيَتْ جالسة.

ـ بْرِيدجِتْ. مَرَّرَت له اسمها بينما كان يغادر.

وحنى برأسِهِ قائِلاً، مرحباً بْريدجِت.

لو أنّ بْريدجِت لم تكن مُدْمِنَةً أو مُتعاطِيَةً أو أنّ حياتها لم تكن مرتبطة بآخرين كُثُر، أو أنّ هذه الصّفات كانت غائبة بين الأدلّة التي استَنْبَطَها كوبر خلال لقائهما الأوّل، لكان ربّما قد تجنّبها ولما كان

Twitter: @ketab_n

ليتناول العشاء معها مرّة أخرى في مطعم "جوكو" يوم الجمعة التالي، ولما كان ليمشي معها إلى شقّتها. تماماً كما في قرنٍ ماضٍ، لَمَا كان لِيَلْتَقِطَ الكَفّ المُزمِيّ بعناية كي يعيده إلى المرأة المتنزّهة. إنّ معرفة جميع ما افترَضَهُ جَعَلَهُ يشعر بالأمان. وَبِما أنّ بريذجِتْ كانت تمتصّ الدّخان الحليبيّ البياض عبر الأنبوب أو تغرز الإبَر في عروقِها، فإنّها كانت تجد لِذّةً في هذه الأمور أكثر منها في العلاقات الغرامِيّة، مِمّا يعني أنّه لن يكون مهمّاً بالنّسبة إليها. وهو سيبقى مجرّد جزءٍ من أسبوعِها. وفكّر أنها قد لا تتذكّره بعد أشهر قليلة من الآن. وكونه مقامراً كفوءاً، أخْبَرَتْهُ غريزتُه أنها لن تكون خطراً عليه.

مشيا إلى شقّتها، وَتَبِعَها إلى المطبخ الكبير ـ وقد ذُهِلَ لأَبْعادِهِ ـ وراح يراقبها وهي تطهو الهيروبين. ثمّ جَلَسَتْ على السّجادة وتنورتها المخطَّطَة مرفوعة فوق فَخذَيْها. وكلّ ما كان يفكّر فيه هو كونها مليئة بالصحّة، وكأنّه من المحال للصّحة أن تكون جزءاً من حياة كهذه. هزّ رأسه بالرّفض عندما عَرَضَتْ عليه بعض المادّة. وكان ذلك مجرّد لطف منها سريع ـ عليكِ عرض الملح على الآخرين قبل استعماله؛ فهي فتاة رُبِّيَتْ على قوانين الجيش. لقد كانت نَهِمَة، وهو في الجوهر قد اضمحلّ بالنسبة إليها. وبعدها تحرّكت نحو الوراء، بعيدة عنه، وتَسَمَّرَتْ نظرتُها بتوازن على شجرة بعيدة غير موجودة في هذا العالم. وَفَكَّرَ أنّ إفراطها هذا في اللّذّة هو كمِثل جمال لا يمكن وصوله إليه أو معرفته، وهذا يتخطّى أيّ مبلغ مالي رَبِحَهُ أو أغترفه بين ذراعَيْه على طاولة الورق. إرتاح كَتِفاها ورأسها أمام الموقدة. ثُمّ عادت نظراتُها إلى الغرفة. "تعال وأمسِك يدي"، قالت بهدوء. ولم تستعمل اسمَه.

Twitter: @ketab_n

أسْتَلْقَتْ على ظهرها وركبتاها عالِيتان، فَمَرَّرَ رأسَه فوق قميصها الأبيض نزولاً حتّى مَعِدَتِها فتنّورتها. وبدأت ذراعها بدفعه بعيداً ثمّ سحبه نحوها وكأنّه قطعة خشب أو كأنّه شيءٌ تحاول إفلاته ومن ثَمَّ امتلاكه. ولم يكن يتوقع منها قوّة أو طاقة كهذه، فقد كان يتخيّل إغواءً واهِناً. وتسلَّقَتْهُ قائلةً "كوبر" وكأنّها أخيراً وَجَدَتْ اسمه فكانت تحمله كسيف مسحوب من بحيرة وكأنّه هو ذاته، منهوك القوى وعلى ظهره، ينتظر إعادة إحيائِه بواسطة قواها المحيطة به وهي مُتَسَرْبِلَةٌ بقميص أبيض وواضعَة ساقَيْها الذّهبيّتين فوقه.

ولم تكن لِتَدَعَهُ يَلِجُها إلاّ عندما تكون مخدّرةً وذلك بعد وصولها قِمّة التحشيش وعودتها من حُمْرَة أُفُقهِ. وكان ذلك يتمّ مرّتين أو ثلاث مرّات في فترة بعد الظهيرة من كلّ أسبوع، ودائماً بعد الظهيرة في ثنايا ضوء الشّمس وغبار شقَّتها. وكانت أحياناً تسأله أن يساعدها، وهي باردة، كَي تتقيّأ في المجلى. وفي أحيانٍ أخرى عندما كان يعود من عمله عند الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً كان يجدها في ردهات أوتيل سانتا ماريّا، نائمة على أريكة جلديّة، تاركةً له رسالة على مكتب الدخول وذلك لأنّ ردهات النّزل كانت مفكّكة وفوضويّة وَمُرْبِكَة بحيث كان هناك عدّة فجوات - واحدة للألعاب والكلمات المتقاطعة، وأخرى للبيانو، وثالثة للصُّوَر الفوتوغرافية التاريخيّة - فكان من السَّهل إضاعة شخص ينتظرك. وكان يسحبها ليوقفها على قَدَمَيْها، وكان يبدو منهكاً، ورغم أنّها كانت تعرض عليه حبوبها، إلاّ أنّه لم يكن يأخذ منها شيئاً البتّة.

وفي تلك اللّيالي عندما كان كوبر يشعر بأنّه مستيقظ كلّياً، كانا

يدلُفان إلى سيارته فيملآنها من محطة لِتِكْسَكو ثمّ يقودها عبر نيفادا، والنوافذ مفتوحة، فيما موسيقى فرقة الكلاش تصدح كمسامير صغيرة على الطريق السريع خلفهما. وَتَعْمَدُ بْريدجيت إلى إضاءة النّور الداخلي فيبدوان كَكُرَة ناريّة أو مضاءة تَنْزَلِقُ عِبْرَ أرض الأشجار الخفيضة. وكانت تفتح مُغَلّفاً أبيض مستطيلاً يحتوي على الكوكايين الذي كانت تمزجه وَتَخُضّهُ مع مادة الصوديوم هايذْرُوكسايد حتّى يُصبح حليبيّ البياض، فتضيف إليه مادة الإتير - سائل ملتهب مخدّر - وذلك فوق صَحْفَةٍ. ثمّ تعْمَدُ بعد ذلك إلى إطفاء ضوء السيارة الداخلي وتتابع في الظّلمة عملها مستعينة فقط بمعرفة يديها. فكان يراها بصعوبة، على ضوءٍ داخليّ خافت، وهي تلتقط الحبيبات من الصّحيفة لِتُسْقِطها في أنبوب صغير يُصَفِّرُ مع حريق الحبيبات، ثمّ يراها تَسْتَنْشِقُ الدخان، ثمّ تجلس وقد أَصْبَحَت مطرقة ثقيلة مليئةً بالنّشاط ومواجِهَةً للنافذة المفتوحة.

وكانت ظلمة السيارة تلفُّهما. فكان يشعر وكأنّ جسد بْريدْجِيتْ، مع ما يحتويه من مخدِّرٍ مُشِعّ ومُضَخّ، يقودهما بسهولة عبر مدن دَنْكِن وإريكا. وكانت تَضَعُ قَدَمَيْها العاريتَيْن فوق لوحة القيادة وكأنّها تُسَيِّر السيارة، فيما كان رأسها يتّكئ على حافّة النّافذة المفتوحة، وضربات الطّبل تصعد من جانب الباب إلى عُنُقِها. وتوقّفا، فاتِحَيْن باب السّيّارة حتّى تملأ الموسيقى مساحات ليل الصحراء. وكانت تنحني فوق غطاء محرّك الكرايسلِرْ، فتضرب حرارَة المحرّك قميصها. وكان بالكاد يستطيع أن يُمْسِكها بسبب العَرق المتصبّب على كَتِفَيْها، وكان يعلم أنّه حتى في لحظات طائِشَةٍ كهذه لم يكن يلمس ندوب ذراعَيْها.

لقد كانت هي المرأة التي جَلَبَتْ معها كتاب كيمياء إلى المطعم

Twitter: @ketab_n

الّذي كان قد جَذَبَهُ إليه لُغزُهُ ولا محدوديّتُهُ وذلك قبل هذا الشّهر المضيء، وكان يعتقد في البداية أنّه سيتذكّرها كشخص في أغنية. "كان شعرها أصفر جدّاً وكان الخمر أحمر جدّاً". وكانت تنام بجانبه مع أسرارها الطفوليّة وحواسِّها المضاعَفَة بالمواد التي كانت تهزّ لها ذراعَيْها باستمرار. فلم يكن يستطيع رؤية ما كَمَنَ خلفها. إنّ عالَمها موجود هنا فقط والآن فقط. ولم يكن يعرف حكاية واحدة من الماضي أو من مكان آخر يستطيع أن يسألها أن تعيد روايتها أو توسيعها. وإذا تَمْتَمَتْ ـ وسط فيضانات أنهر نشوة تخديرها ـ فذلك كان حول ما تستطيع المخدّرات فعله، وما تستطيع الرّغبة فعله، ويتمّ ذلك بطريقة غير مُسَيْطَرٍ عليها وغير مفهومة. وكان أحياناً يستيقظ قبل الفجر فيراها منحنيةً على السّجادة فوق لَهَبٍ أزرق غير مستقرّ. ومرّة فتح عينيه ليراها على بُعد خطواتٍ منه تراقِبُهُ، وخاف لِلَحْظَةٍ أن تكون تشبه آنّا. ولم يكن يعرف إذا كانت عدسة تركّز على الماضي أو ضباباً يمحوه.

"أحبّ الغناء. عندما كنتُ صغيرة، كان والدي يغنّي أثناء قيادته السيارة". كانت بريدجِتْ تنظر فوق كتف كوبر. وبدا الأمر له وكأنّ صَيْداً ما رُمِيَ على باب صغير أو كأنّها تناوله شيئاً ما. وحتّى بدون نظرتها المباشرة، بدا الأمر حميمياً. كان لحن والدها ينساب نحو المقعد الخلفيّ للسيّارة حيث كانت تجلس كطفلة وحيدة. ولم يُحِدْ كوبر بناظِرَيْهِ عن وجهها المُتَذَكِّر، مراقباً شعرَها الأشقر يتهدّل على وجنتيها وظلّ الضوء تحت قميصها. اقتصّ تلك اللّحظات والأنسجة، وكأنّه يتحضّر لجفاف حتميّ. وكان صوتها الهادئ يفسّر حركة سير الأشياء الصغيرة حولها. وهنا تكمن أهميّة الأمور، ضمن هذه السماء الصغيرة الّتي تحرّكها مراراً بين يديها، بجانب كلام الشيفرة السريع المتعلق بمخدّرات

Twitter: @ketab_n

الحدود ـ "الببّغاء"، "الدّيك" "الماعز" ـ المنبعث من صوتها العذب ـ أجل ـ والهادئ.

وفي بعض الأحيان كانت سيّارة تُقِلّ موسيقيّين تأتي لتأخذ بريدجيت. وكانت تغيب كلّ المساء لتعود في الصّباح الباكر في الوقت الذي كان يعود فيه كوبر من مباراة الورق. وسألَتْهُ مرّةً، "لِمَ لا تأتي معي؟ إنّ الغناء هو متعتي".

وكان متردّداً، فهو معتاد عليها فقط في الأماكن المُغْلَقَة والحميمة. أمّا أن يشاهد طريقة سلوكها مع الآخرين فهذا قد يُعْتِقُهُ مّما عَرِفَهُ وأرادَهُ. فهي كانت حبّه الإراديّ والمضْني حتّى حين كانت تحقن نفسها وتفلت الأنبوب الشّاحب من ذراعها. فهي كانت أصلاً متعدّدة الجوانب بالنّسبة له، حتّى من خلال عاداتها. وفي بعض الأيّام كانت تركض بنشاطٍ متساوٍ لتعودَ بعدها إلى المنزل لِتَفُكَّ أغراضها من قطرات العين ومادّة الصوديوم هايدروكسايد وأقراص شبيهة بالعدسات اللاّصقة، ومن ثُمّ كانت تنتظر بصبر كي تظهر الحبيبات الكريستالية. أو كانت تقرأ بلا هوادة طول اللّيل. إذاً عندما سألَتْهُ بريدْجِت أن يرافقها مع الموسيقيِّين، هزّ بيده بما معناه، "إنّها ليست فكرة جيِّدَة" مفترِضاً أنّ عدم الكلام كان أمراً أكثر تهذيباً. ولم يُظْهِر فمها تكشيرة كاملة، بل كآبةً شديدة والقليل من الإمتعاض. فكان التبادل بينهما تعبيراً من يده وتشدُّداً في تعبيرها. وعندما تَرَكَت الغرفة، تَبِعها إلى غرفة النّوم حيث كانت تنظر من النافِذة نحو حركة السَّير البطيئة عبر الخطوط المجمَّعَة لطريق سانتا ماريّا الرئيسي. وبعد ثلاثين دقيقة قدم أصدقاؤها وأخذوها معهم. وكانت دائماً في مزاج جيِّدٍ ومرح عند عودتِها.

Twitter: @ketab_n

وفي المرّة الثانية لذهابهم، إنضمّ كوبر إلى بريدْجِت وأصدقائها. وكان قد اتصّل في اليوم السابق ليلغي مشاركته في مباراة. وعندما قَدِمَ الموسيقيّون، رافقها ببساطة إلى الأسفل. وكانت تنتظر منه أن يعود أدراجه.

هل أنت قادم معنا؟

أظنّ ذلك.

عظيم يا كوبر، لكن عليك أن تخلع ربطة عُنُقِكَ. هيّا، أعطني إيّاها.

وكان "الوريث الفرنسي" قد عَلّمَه أن يلبسَ جيّداً ولم يعد باستطاعته أبداً أن يغيّر تلك العادة. وكان "الوريث" يقول، إنّ شيئاً كربطة عنق أو قميص مع أزرار فرنسية تعطيك أسلوباً رفيعاً، حتّى ولو كنت في خطّ الهزيمة.

وَجَلَسَتْ بريدْجِت في الأمام قرب السّائق، بينما جلس كوبر قرب عازف الغيتار ـ الباس والذي شرح أثناء الرحلة أنّه كان محرّراً في مجلّة كاليفورنيّة متخصّصة في الطبيعة يَمْلكها ثنائي من البارونات أو أمراء اللّصوص. وأضاف العازف، "المحافظون يحبّون كاليفورنيا. وهم يستميتون كي يضعوا أيديهم على ما تبقّى منها". وأَمْضَت بريدجِت الوقت تُثَرثر، وبالكاد كان كوبر يسمعها. وكانت قد أخبرَتْهُ أنهم كانوا يعزفون في حانة على الشّاطئ. وبعد ساعة وصلوا إلى منزل يقع على جانب طريق سريع ذات وجهين. خرجت بريدجِتْ وَنَفَضَتْ تنورتها بِيَدَيْها نحو الأسفل، وكانت هذه تنورة أخرى لم يكن قد رآها تَرتديها. وجعل ضوء النّيون فوقهم وجهها يحمرّ. وقالت، "سأتركك هنا، وسأراك لاحِقاً". أوكي؟" "حسناً".

Twitter: @ketab_n

وافيني بعد العرض". "أوكي". وبدا البناء مجهولاً، أحد الأشكال المستطيلة الأساسيّة، ويمكن بسهولة أن يكون بيت بغاء مع إمكانية الوصول إليه للمقعدين على كرسي جوّال. لكنّه في الظاهر كان قاعة ملاكمة وحانة. وكان هناك حوالي الأربعين سيّارة وعدد من شاحنات النصف طنّ وعربة عسل، مركونة على الحصباء حول المبنى.

كانت ليلة حيث كان كوبر جزءاً من الهواء المرِح لأجندة بريدجِتْ، وكان مرتاحاً معها. فمشى حول البناء ليقتل الوقت. وكان جزء من البناء غير مُضاء، وما وراء ذلك تقع حقول غير مرئيّة، يوحى بها فقط عندما تقوم سيّارة بحركة دائريّة داخل موقف السّيّارات. وتخيّل بريدجِت في غرفة الملابس خاصّتها تحضّر نفسها وتغيّر حذاءها أو تطلي أظافِرها بلون التّرَسينا المحروق. وأحسّ بعاطفة قرابة تجاهها، فهو فعلاً لا يعلم شيئاً عن النّساء. وفُتِحَ باب في الظّلام، فَحَطَّ قَبَسٌ من الضّوء على الأرض مسافة عشرين قدماً منه. وخرجت مع رَجُلَيْن. حَدَّقوا في السوّاد ثم تحرّكوا قرب بعضهم. وكانت يَدُها على أحدهما، شدّها نحوه فوقَعَت عليه. ثم ابتعدت عنه فرآها كوبر تسحب ما بدا كربطة عنقه الزّرقاء وذلك من ذراعها العارية. وكان قد رأى رجلاً يجمع السّمّ في تاوُس، فاتحاً بقوة فكّي الحيّة مقابل كأس صيدلة وعاصِراً السّمّ من أيّ غدّة تحمله بحيث قطّرَهُ في الوعاء البلاستيكي الصّلب وبصوت صغير من سنّ المخلوق يكاد لا يُسمع، كاحتجاج صغير. راقب كوبر بريدجِت والرّجلَين، غير متحرّك من مكانه. وعندما فتحا الباب أكثر ليعودا إلى المبنى، وصل مجرى الضّوء إليه في الواقع، لكنهم حينها كانوا قد أداروا ظهورهم له.

Twitter: @ketab_n

وكان العارض الخَشَبي - البار يمتدّ في جانب واحد من ردهة الإنتظار، فيما كانت بريدجت على خشبة المسرح في الطّرف الآخر. وكانت قد غيَّرَتْ ثيابها لتلبس فستاناً بلون الكريما مع ياقةٍ واطئة، كما كانت تضع ربطة عنقه حول حَلْقِها بليونة. ما كان "الوريث" ليرضى بذلك. وعندما بَدَأَتْ بالغناء لم يفاجِئه قوّة صوتها أو مداه من القساوة إلى الطّراوة، بل فاجَأَتْهُ ثقتها بنفسها هناك في الأعلى، وكأنّها ممثلّة عظيمة تَنْحَتُ الهواء بذراعيها وهي تتشدّقُ ككرسيتي هايند. ولم يكن كوبر قد رأى هذه الشخصيّة طوال الوقت الذي أمضاه مع بريدجتْ.

إنّ رقصها اللاوعيّ وصراخها للجمهور وترجمتها لأغنية "فصل السّاحرة" إلى نمط من الغناء الحزين والخطِر والقاسي جَعَلَهُ يتحلَّلُ من كلّ شيءٍ عَرِفَهُ عنها. إنّه لم يلتقِ بهذه المرأة من قبل أبداً. وكلّ ما عرفه هو ربطة عنقه المفلوتة على عنقها. والشيء الوحيد الذي راقبه تلك الأمسية هو هذه المرأة، إذ إنّها كلّما قارَبَتْ أغنية كَشَفَتْ جانِباً جديداً من طبيعتها. وحتّى عندما رآها تزداد تَعَباً، بقي لديها التركيز والحضور. وكانت تتنقّل بين أعضاء الفرقة مرتطمة بالضّوء الذي يحتويها ومنخرطة ببنية الأغاني، وتقوم ذراعاها بالتقاط وهج الإضاءة فيما ينكح خصرها الجمهور. لم يكن من شيءٍ قد حُضِّرَ أو بُرْمِجَ قبل العرض الأدائي. فَكَبِرَتْ عزيمتها.

وعند إنتهاء الوَصْلة شاهَدَها تنزل عن المسرح مع الفرقة. وَقُدِّمت لها كأس كبيرة من البيرة فشربتها على ما يبدو جرعة واحدة. وتحوّل العزم أثناء أداء الأغاني إلى سعادة طفولية بعده ناتجة عن مديح الأصحاب وعناقهم. وكانت بين الحين والآخر تنظر إلى ما وراءهم لترى

Twitter: @ketab_n

إذا كان كوبر هناك، لكنّها لم تستطع رؤيته. بقي في الخلف يراقبها من طيّ الظّلمات. وكان فضولِيّاً حول كلّ تفاصيل اللّحظة، فيما كانت ما زالت منغمسة جزئيّاً بما كانَتْهُ على خشبة المسرح. ولم يكن يريد من ذاك الشّخص أن يذوب في الهواء في حال ظهوره له.

وكانت عيناها تسرّعان النّظر فوق الأكتاف بينما كانت تغرق. وتقدّم كوبر نحو أضواء المسرح (هذه هي إذاً أضواء الشّهرة)، ورأى ابتسامتها غير المؤكَدة والتي نَفَضَتْها عنها من أجله. تعانقا، وأحسّ بالعرق يتصبّب على ذراعيها، كما استشعر فستانها الرَّطِب وشعرَها المبتَلّ على خَدِّهِ.

وفي اللّيلة التّالية ذهب إلى مباراة ورق، وعندما عاد لم يستطع إيجادها، إذ لم تكن في غرفته في نزل سانتا ماريّا، ولم تكن نائمة في الرّدهات ولا في شِقَّتِها الّتي كانت قد نُظِّفَت كُلّياً وَدُفِعَ ما عليها بغية الخروج منها. وأدرَكَ أنّ لا صِلَة له بها ولا فكرة عن كيفيّة الوصول إليها، باستثناء الرّجل الذي يحضُرُ إلى مطعم "جوكو" وهو لا يعرف حتّى اسمه. وفي الصّباح قاد سيّارَتَهُ إلى كلّ متجر خرضوات ضمن مسافة عشرين ميلاً من سانتا ماريّا. وكان قَلِقاً على بريدجِت فقد لا تكون بأمان، أينما كانت، رغم أنّ غُرَفَها كانت قد أُفْرِغَتْ بعناية.

وبدأ بالجلوس في المقاهي والحانات في مساحة الثلاثة أميال التابعة للمدينة، كما بدأ بالمشي حول سانتا ماريّا، آمِلاً أنّه بهذه الطّريقة يستطيع إيجادها. وتابع عادته في الرّكض صباحاً، ولكن الآن بجنونٍ أكثر كان يرمي نفسه ما وراء الضّواحي. وأصبح واعِياً، بعد كلّ السنوات، لجنسانيّته المستيقِظة. وانخرط في جيمنازيوم حيث بدأ مزاولة تمارين ملاكمة مُسْتَعْمِلاً نظام الحبل والكيس الثقيل. وكان ذاك أقسى

Twitter: @ketab_n

وخلاصاً أفضل لِعَقْلِهِ في الرَّكِض. وشعر بقوَّته التي ازْدادَتْ، كما كان يعلم، من ضعفِهِ. وعندما عاد إلى فندقِهِ في أحد الأيّام نظر إلى نفسه في مرآة الرُّدهة تحت الضّوء الخافت باحِثاً عن دليلٍ ما. وَصَعَقَتْهُ مَعْرِفَةُ أنّه هو من كان المدمنَ.

وَأَعْلَمَهُ موظّف الإستقبال أنّ لديه بريداً. كانت بطاقة بريديّة من تاهو مع رسالة أو توقيع، واسمه فقط مع عنوانه بخطِّ يَدٍ عَرِفَهُ. وعلى الجانب الآخر كانت صورة لكازينو هارّا يَلْمَعُ في ضوء الغسق. إنّها بريدْجِت تُعْلِمُهُ بمكانها.

وفي غضون ساعة كان يقود شرقاً بعيداً عن الشاطئ، وعبر الطّرق نفسها الّتي كان يسلكُها معها في تلك اللّيالي المتأخّرة حيث كانا يتوجّهان نحو نيفادا. وعند نُصُب سهل كاريزو، انعطف شمالاً وتابع صعوداً عبر وادي القدّيس يواكين على الطريق السريع ٩٩. فيساليا، فريزنو، موديستو ومن ثَمَّ سَكْرامِنْتو (السِّر المقدّس). وفي "كارميكايِل" تناول طعامَهُ. وعندمَا حَلَّ الظّلام كان في طريقِهِ صعوداً عبر جبال السِّيِرّا حيث كان المطر والضّباب حتى أنّ مُدُناً كسيلفِر فورك وستروبيري، وهي مستوطنات كان قد ساق عِبْرَها مئات المرّة في الماضي، مَرَّتْ بسرعةٍ قربَهُ وبغموض. وَقُبَيْل وصوله إلى تاهو دخل إلى موتيل حيث حَلَقَ واستحمَّ مُسْتَعْمِلاً صابون الحلاقة الخفيف الذي قُدِّمَ له. ثُمَّ لَبِسَ قميصاً نظيفاً وربطة عُنُقٍ. وكان الوقت الثانية فجراً عندما قاد سيّارته بعيداً.

وانحدر إلى تاهو وأضوائها وعالمها الخاضع المحيط بوهج البحيرة. نزل من سيارة الكرايزلِر لينظر إلى الجبال الّتي كان قد قَطَعَها. وكان قد

Twitter: @ketab_n

بدأ يحسّ بتغيّر الإرتفاع. وعاد بذهنه إلى الماضي حيث الوعي بالمخاطرة وحيث يستطيع كلّ شيء أن يتغيّر. ثمّ قاد سيّارَتَه إلى مرآب "سيزار بالاس" ومشى إلى "هارّا". كان يعلم أنَّهُ يجب عليه ألاّ يركن سيّارته حيث يقوم بِعَمَلِهِ.

وحال دخوله القاعة الكبرى لَفَحَهُ الأوكسيجين المُضَخ. وكان قد قاد كلّ بعد الظهر ومعظم اللّيل، لكن أزيز التّعب ذاب فيه الآن. لقد أحاطه الديكور الفخم فجلس على أريكة جلديّة بطول عشرين قدماً ومدّ ساقَيْهِ. وعندما عرض عليه النّادل مشروباً، ناولَهُ كوبر ورقة العَشرة دولارات سائِلاً إيّاه أن يجلب له شراب القهوة الإسبرسو. وحمل الكوب الطويل متوجِّها إلى الطّاولات، ولم يكن قد رأى، حتى تلك اللّحظة، شخصاً يعرفه، إلاّ أنّ ليل تاهو كان في بدايته. منذ خمس عشرة ساعة كان ينهك قلبه بالملاكمة وتمارينها في الجيمنازيوم المفروش بالسّجاد.

وكان كوبر يدرك أنه إذا أظهر نفسه فستجده بريدجِتْ. وبدأ بالحِراك عبر الغرف الفخمة وشلاّلات الضوضاء والمصادَفَة البطيئة الحركة. وفي النهاية جلس ليلعب، فخسر الجولة الأولى عَمْداً كما يفعل دائماً. وكانت اللّعبة أسرع من مثيلاتها في الجنوب، إلاّ أنّ هؤلاء اللاّعبين حوله كانوا هواة. كانت الساعة الرّابعة فجراً وما زال مُسْتَيْقِظاً كلّياً.

وبعد ساعة نظر إلى الأعلى أثناء توزيع الورق فرآها. تحرّك شيئاً في جسده. كم من الوقت كانت واقفة هناك من دون حركةٍ تراقبه؟ إنّها أطول من كلّ المشاهدين. أنهى الجولة وَمَسَحَ الفِيَشَ. لقد جَمَعَ ما يكفيه اللّيلة، على أيّ حال، كي يَسْتَأْجِرَ شيئاً جيِّداً على الشاطئ الجنوبي إذا كانا (هو أو هي) بحاجة إلى ذلك.

Twitter: @ketab_n

كوبر.

أَمْسَكَتْ ذراعَهُ عند شبيكة القبض، فَوَضَعَ وجهَه على رقبتها البيضاء الشبه ذهبيّة وحيث كانت العَضَلَة مشدودة، ربّما كمركز لِثِقَتِها.

ومشيا على السجادة بخطى عريضة. وما إنْ هَرَبا من القاعة الكبرى كانا أحراراً من ضوضائها وَراوَدَت عقله ذكريات عن نفسه عندما كان صَبِيّاً يجذِّف على منعطفٍ لجَدْوَل سان أنطونيو ويخسر في الحال هدير مجموعة من المنحدرات المائيّة. وَتَبِعَ بريدجِت بخطوة أو خطوتَيْن. إستدارَتْ وقالَتْ لَهُ "لقد عُدْتُ للتوّ من السّباحة". وكانت تَنْسَاقُ على قَدَمٍ خفيفة، ولم يَبْدو على أحد في هارّا أنّ لديه قُوَّةً عفويّة كهذه. كانت لديها مقدرة لم يَرَها من قبل. وفي المصعد أبْعَدَتْ عنها غَمْرَتَهُ.

إنتظِر.

وكأنّ تلك الكلمة شَرَحَتْ كلّ شيء.

أنتظر ماذا؟

علينا أن نتكلّم. هل حَجَزْتَ هنا؟

كلاّ.

لأنّكَ لا تستطيع المكوث هنا، في هذا الفندق.

لم يُجِبْها بشيءٍ على هذا. وركِبا السيارة بقيّة الطريق في صمتٍ. كانت سيارته في "سيزارز"، وكان باستطاعته المكوث هنا.

وكانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف، وجلس الإثنان ليتناولا الفطور. نظر إلى الخارج من نوافذ الطبقة الثّامنة عشرة وكانت السماء حمراء مظلمة فوق كلّ الأضواء. ولم يتطرّق كوبر إلى الموضوع المتعلّق

Twitter: @ketab_n

بسبب عدم مكوثه هنا. بدا لَهُ وكأنّ بريدجِت كانت متسلّحَةً بطريقةٍ ما، فكان عليه أن يحيطَ بِها بعناية. كان عليه أن يعرف ما هي مقاصدها. وإذا كانت تُدَبِّرُ أمراً فَمِنَ الحكمة أن يبقى هادئاً في بناية يمكن أن تكون فيها "عين السّماء" في أيّ مكان. وأدركَ أنّها تَمَلَّقَتْهُ إلى مكانٍ حيث لا يستطيع الجدال أو الإتّهام. وَبَدَلاً من ذلك تَطَرَّقَ إلى شريكها القديم في العشاء عند "جوكو". "مالك مخزن الخرضوات ذلك..." سألها. هَزّت رأسها من جانب إلى آخر وذلك كإجابة. "ما اسمُه؟ لم تخبريني قطّ. هل يعيش في تاهو؟ ألِهَذا السّبب أنتِ هنا؟" إستبْعَدَتْ كلّ شيءٍ باستثناء الإعتراف بأنّ رَجُلَ "جوكو" كان هنا.

في المرآب السّفلي لسيزارز بالاس، فَتَحَ قِفْل الكرايسْلِر وجعلها تجلس في مقعد الرّاكب. وكان هناك إحساسٌ أليف بأنّ الجوّ والإضاءة غير المؤكّدَة في المرآب السُّفلي هما بقايا حَقَبَةٍ زمنيّةٍ سابقة. مشى ببطء حول السّيّارة وَدَلَفَ بجانبِها.

عليّ العودة إلى سانتا ماريّا.

هه؟ وانتفض رأسُها نحوه.

لماذا رَحَلْتِ؟ بماذا تدخلينني يا بريدجِتْ؟

دَعْني أقود خارج هذا المكان.

لا.

هل نستطيع القيادة...

لست مستعِدّاً بعد لتلك الشّمس؟

أوكي. ومرّرت ببطءٍ يدها على ذراعه. حسناً، لم تذهب لنثر البذور.

Twitter: @ketab_n

آه، أضرب الهدف. لا تقلقي.

وَقَبَّلَت عَيْنَهُ اليمنى ثمّ جبينَهُ ومن بعدِهِ فَمَهُ. وَقَبِلَ بكلّ شيءٍ. بِيَدَيْها عليه. ولم يكونا يقبّلان الآن. أصبح الأمر أكثر حَميميَّةً ووجهاهما يحدّقان بِبَعْضهما، ويكادان يتلاصقان. ألنَّفَسُ، لا الكلمات، كان يُصاحِبُ كلَّ ذلك. وهما فقط يراقبان التجاوب العاري للآخر. وكانت عيناه المُتْعَبَتان تَنْبَعِثان حياةً بالنَّظَرِ إليها.

وبعد عشرين دقيقة، على طريق فندق نيفادا قالت له: "سآخذكَ لتلتقي صديقاً لي. أريدُ منكَ أَنْ تقوم بعملٍ ما..." وَبَدَأَتْ على الطريق تخبره عن صاحب متجر الخرضوات وكيف عرف كوب منذ اللّيلة الأولى في "جوكو". إنّ اسمه جيل، وهي مدينة له بالمال وتعمل لديه. "وهل هو حبيبكِ؟" فقالت إنّها كانت تعرفه منذ مدّة طويلة. وهو لاعب ورق، وهناك أيضاً صديقان له يلعبان الورق معه. وهم يعرفون كلّ شيء عن كوبَر، فقد سمعوا عنه قبل أن يجلس ليتناول طعامه في "جوكو". وكان كوبر صامِتاً، يتكلّم بهمس مع ذاته، وكان يريد أن يلطم ظاهر يده عِبر زجاج السيارة الأماميّ، وكأنّ الأمر هو غباء منها. لقد كانت جزءاً من مكيدة، لِتَجْلُبَهُ إلى تاهو.

رَكَنا السيّارة ومشى معها إلى منزل بإيجارات قصيرة الأمد. وكان ثلاثة رِجال يجلسون في إحدى شِقَقِهِ الفسيحة وغير المؤثّثة. عرّفتهم على كوبر، وفوراً بدأ الرّجال يتحدّثون عن قصّته مع الإخوة، وحتّى عن حركته السّيئة السّمعة باتّجاه "عين السّماء" الّتي لم تستطع توثيق أيّ دليل على غِشّهِ. وكانوا منبهرين بالبراعة التي تمتّع بها. ونظر نحو بريذجِت الّتي كانت تحدّق في يَدَيْها وكأنّ لا علاقة لها بكلّ هذا. ثُمّ ما لَبِثَ جيل

Twitter: @ketab_n

أنْ شرح الخطَّة، فكانت خطَّةً بارعة ومعقَدّة، لكنّ كوبر رفض ذلك مباشرة. وَقَفَ والإرهاق يمتلكه. إلاّ أنّ الرجال أكملوا إعطاءه تفاصيل أكثر حتّى أنَّهُ شعر بنفسه محاطةً بشياطين ثرثارة. وابتعد عن الضوء المنبعث من النوافذ الكبيرة مستعيداً باستمرار تلك اللحظة في السيارة عندما اعترفت بريدجِت بطريقة طبيعيّة بارتباطها بهؤلاء الرّجال، ولم تكن لَدَيْهِ فكرة عَمَّنْ يكونون. هم جُدُدٌ وأكبر منه، لكنهُ لم يكن قد سَمِعَ بهم. وَلَوَّحَ لهم بالرحيل عندما لم يستطيعوا تقبّل رفضه. لقد ارتكب هذا الخطأ مرّة في حياته ولن يعاود ذلك مرّة أخرى. وبدأ بالخروج من الغرفة، فَلَمَسَ أحد الرّجال ذراعَهُ. استدار كوبر وكاد يضربه. أدركوا ذلك. وعندما وصل كوبر إلى الباب، اقْتَرَبَتْ منه بريدجِت واضعة يدها عليه، تماماً كما كان الرجل قد فعل قبلها، وكأنّ على كوبر أن يُدْرِكَ الفرق بين اللَّمْسَتَيْنِ. وعندما استدار وجد الرجال الثلاثة وراء كتف المرأة في آخر الغرفة الكبيرة وهم يراقبونه.

هل تستطيع مساعدتي يا كوبر؟ يجب أن يحصل هذا الأمر لأنّي أريد استعادة حياتي.

هذه الحياة؟

أحتاج المال كي أُسَدِّدَ لَهُ... وهو مبلغ كبير. إنّها مجرّد لعبة ورق.

وضحكَ منها.

هل تستطيع فعل ذلك؟ تَقَدَّمَتْ منه فتراجع. هو لا يريد أن يُلْمَسَ. فلقد تذكّرَ كم كانت مرتاحة مع صديقها في "جوكو" إذ كانا يتكلّمان دائماً وكانا دائماً مهتمّين بِبَعْضِهِما.

تستطيعين الإنسحاب من هنا، قال لها.

Twitter: @ketab_n

أنتَ لا تفهم كوبر. عليكَ مساعدتي في الخروج من هنا.

أخبريني.

هناك هذا الحلم. لا أعلم، فهو حلم طويل.

تمشي في غرفة وتمتدّ أمامَكَ خطوط بيضاء أو تتشكّل حبيبات من الكريستال. فتفكّر بأنّ عليكَ الرحيل ولا تضرب ضربَتَكَ لأنّكَ إن فَعَلْتَ ذلك، فستشعر بسوء ما. لكنّ المدمن لا ينسحب أبداً، بل يضرب دائماً ضربَتَهُ. تطير مُخَدّراً نحو الأعالي، حتّى في حُلْمِكَ، وَتُدْرِكُ في الوقت ذاتِهِ أنّ الأمر سيؤذيكَ. وتتمنّى لو أنّكَ سِرْتَ بعيداً.

لماذا تَهْمِسين؟

لماذا برأيكَ؟ هذه حقيقتي.

أفهمُ ذلك. وعاوَدَ النّظر إلى الرّجال.

عَرَفْتُهُ لمدّة طويلة، لكنّني لا أشعر بالأمان الآن. عليكَ مساعدتي. هل تحتاج إلى وقت أطول؟ هو ورفاقه... يستطيعون إعطاءَكَ يوماً آخَرَ كي تقرّر. أنا متأكّدة. فكّر بالأمر. ولا تأخذ قراراً سَلْبِيّاً الآن.

قاد سيّارته عبر شاطئ البحيرة الجنوبي ووجد شاليه للإيجار. عندما وصل إلى تاهو لم يستطع الغضب أو التّعب أن يبقياه بعيداً عن بريدْجِت. ولكنْ حتى في شَغَفِهِ بها، رَفَضَ كوبر عَرْضَ جيل. هو يستطيع القيام بكلّ ما طلبه منه الرّجال، لكنّه سَيُصْبِحُ، إذا فعل ذلك، أسيرَ عالمهم إلى الأبد. كان يَعْلَمُ عندما صَفّ الورق ضد أوتري والإخوة أنّهم كانوا ضليعين باللّصوصِيّة. لكنّ هؤلاء الرّجال هم على وشك ضرب بريءٍ هم يعرفون مُسْبَقاً الكثيرَ عَنْهُ. فلقد كانوا قد اختاروهُ قبل أن يعرفَ بوجودِهم، وقبل لَمْحِهِ بريدجِت في مطعم "جوكو" للمرّة

Twitter: @ketab_n

الأولى. هو لم يكن أبداً غير مرئيّ. وكانت بريدْجِت موجودة هناك فقط كي تجلُبه إلى تاهو بحركةٍ من إصْبَعِها وَبِهَزَّةٍ من تَنورَتِها البحريّة الإخضرار. وَرَأى ناحية أخرى من علاقتهما الغرامِيّة، حيث إنَّ الشيء الوحيد الّذي كان يُكافأ ويكتفي كان هو، لا هي. رأى نَفْسَهُ في المِصْيَدَة مُحاطاً بالخديعة.

رنّ الهاتف في الشاليه. كان جيل. فكلّ الإتّصالات ستكون منه. وعلى كوبر أن يقرّر في يوم واحد. توقّف الهاتف. إذاً هم يعرفون أين هو. لقد تَبِعوه. جلس كوبر إلى طاولة الفورمايكا ودفع بسكّين مطبخ إلى الأمام والوراء وذلك على رأسه الحادّ وكأنّ وزنه وتوازنه يحويان دليلاً حاسماً حول كيفيّة معالجته لكلّ هذا الأمر. إربح الألعاب المناسِبة واخسر الألعاب المناسبة. هذا ما يفعله الناس كلّ يوم في حياتهم وأعمالهم وصداقاتِهم وعلاقاتهم العاطفيّة. هذه هي فضيلة التسوية المعتدِلَة. ووقف، تاركاً السّكين المتوازنة حيث كانت.

كانت بريدْجِت وسط أضواء المدينة في الطَّرَف الآخر من البحيرة. ولو أنّها ظَهَرَت الآن على شُرْفَتِهِ وَدَعَتْهُ إلى ذراعيها البيضاوَيْنِ الشّبيهتين بمحركي طائرة وَقَدَّمَتْ نَفْسَها كحقيقة خالِصَة، كان يعلم أنّه سيتقدّم نحوها، رغم الكراهية الجديدة هذه، ورغم أن فُرَصَهُ في المنفعة بَدَتْ صاخبة وغبيّة. إذْ إنّه لا يستطيع تحمّل غيابِها. وكانت ضحكتها بعيدة جدّاً عنه، ولم يكن في حمّام مُحمّى بجانِبِها حيث كانت تقف تجفّفُ شَعْرَها، موجّهةً فوهة الآلة لتنفخ الهواء الساخن فوق جسدها. لقد كان بحاجة إلى إلفة حديثها من خلال ذاك الصّوت الهادئ والخافت والمحبَّب وهو يروي التّفاصيل، كما كان بحاجة إلى رَمَقَاتِها التّسع أو

Twitter: @ketab_n

العَشْر من خلال المرآة المشطوبة في المصعد الكهربائي، كما إلى طاقَتِها بجانبه وهو يقود بمحاذاة الشاطئ وقد رَفَعَتْ قدمَيْها على حاجب لوحة القياسات وكأنّها فتاة في الثانية عشرة من عمرها. كان يريد كلّ ذلك وهو مستعدّ لأخذ كلّ ذلك مهما بدا من صعوبات.

ثُمّ حصل شيءٌ غريب. ساق إلى تاهو في اليوم التالي كي يتناول طعامَهُ. وتخيّل أنه قد يرى بريدْجِت بالفعل في مكانٍ ما. لكنْ بدلاً من ذلكَ وَجَدَ كلير في مطعم. بعد كلِّ هذه السنوات! ها هما كَتِفاها السَّمْراوانِ النَّحيلتانِ أو النَّضِرَتانِ كالنَّبات. وها هو جمالها الدَّاكِن كوردة بُنِّيَّة، وَوَجْهُها الفضوليّ وكأنّها اختَرَعَتْ دفعة واحدة النَظْرَةَ النَّاضِجَة وسلوكَها. وارتَمَتْ بين ذراعَيْهِ، وفي تلك اللّحظة لاحَظَ كلير الأصلِيّة مباشرة عبر السِّنين. وقامَتْ بحركة بَدَتْ أليفة ونظر حوله وكأنّه من المفترض بأنّا أن تكون هناك أيضاً. لكن لم يكن هناك من أحد آخر. وَبَدَتْ كلير تَعِبَة فَرافقها في عودتها إلى فندقها قائِلاً بأنه سوف يتَّصِل بها لاحِقاً. وعاد إلى الشاليه مُنْتَهِياً في السّرير. لكنه لم يستطع النَّوم.

وهو يتذكّر كلير معظم الأحيان على ظهر الحصان. فهو كان معتاداً على رؤيتها مع مِحَسّة لتمشيط شَعر الفرس ومع لِجام متدلٍّ على كَتِفِها أو راكعة على العشب وهي تنعم النّظر إلى طوق أحمر رقيق لِحَيَّةٍ مستديرة العنق. وهي كانت الشّخص الذي اكتشَفَهُ نصف متجلّدٍ في السيّارة وما زال يتذكّر الصوت الصّارخ إلاّ أنّهُ كان شديد البرودة. بحيث لم يكن يستطيع الحِراك. وكان رأسه قد استدار قليلاً فَلَمَحَ الفتاة بعينِ نصف مفتوحة وهي تَسْحَبُ الباب بكلِّ قوّتها. ثم ما لَبِثَت أن اختَفَتْ فهي قد استَسْلَمَتْ للأمر إذ أنّه كان بطيئاً جدّاً فَلَمْ يساعدها بأيِّ طريقة.

Twitter: @ketab_n

وبدأ بالسقوط في اللاّوعي لكنه ما لَبِثَ أن استيقظ فجأةً على صوت فأسٍ تُهَشّم شباك الرّاكب والزجاج يتناثَر في الظّلام وعلى شعره، وَشَعَر فجأة بصوت الرِّيح يحيط به في السيّارة. وامتدّت يد إلى داخِلِ السيّارة وَشَدَّت بقوة على هيكل الباب فاقْتَلَعَتْهُ من الغلاف الثّلجيّ. وبَدَتْ كلير هناك تحاول سَحْبَهُ خارجاً عبر باب الرّاكب. لم يستطع تقويم ساقَيْهِ فَصَعِدَت إلى مقعد الرّاكب المغطّى بالزّجاج وَمَدَّت ساقَيْها فوقه رافِسَةً باب السّائق فَفَتَحَتْهُ. تلك الطريقة أسهل. وما لَبِثَتْ أن حَمَلَتْهُ من مقعد السائق إلى الخارج وَجَرَّتْهُ عبر السّاحة المُعْتِمَة.

سُحِبَ خارج سريره، نصف نائم. رَفَعَهُ الرجال وأخذوه إلى غرفة الجلوس في الشاليه حيث أجلسوه على كرسي خيزران ثم قيّدوا يَدَيْهِ إليها برخاوة. ولبرهة خَيَّمَ صمت فيما وقفوا حوله. شعر وكأنّه ما زال يحلم. ثمّ دخلت بريدْجِت بتنورَتِها وكنزتها الرّماديّة المتناسبة مع ليل تاهو البارد. دَخَلَتْ وَجَلَسَتْ على كرسي صغيرة بمواجهته، وانحَنَتْ إلى الأمام مقرِّبَة وَجْهَها بحيث شعر بِنَفَسِ فمها. وقال أحد الرِّجال من خلفها: "الصّفقة يا كوبر، الخيار ـ قل إنّكَ ستعمل معنا، أو سنضربكَ حتى ترى جهنم الحمراء". "لقد كنت هناك" أجابهم كوبر بهدوء.

وتقدّم جيل إلى الأمام واضِعاً يَدَهُ على كتف بريدْجِت وكأنّها شيء يمتلكه. "هذه هي المسألة ـ لا تستطيع نكاحَها لشهرين ومن ثمّ لا تعمل لدينا لأنّ لَدَيْكَ "مبادئ". أنت حِرَفيّ يا كوبر وبحاجة لأنْ تشقّ طريقك. ونحن سنُخْرِج تلك "المبادئ" منكَ عن طريق ضربِكَ". وأمسكَ بِشَعر بريدْجِت الأصفر لبرهةٍ ثم تَحَرَّكَ إلى الوراء، تاركاً إيّاهما لوحدهما.

"أنظر إلى الأسفل"، قالت له هَمْساً. "أستطيع إعطاءَك هذا بحيث

Twitter: @ketab_n

بالكاد سَتَشْعُرُ بما قد يفعلونَهُ بِكَ". وكان باطن يدها يحمل حقنة. وهَزّتها فتحرّك السائل على الجانِبَيْن. وبَدَتْ قَلَم حِبْرٍ مائيّ ينزلِق فيه فستان امرأة أسود أو كأنّها قطار يختفي في نَفَقٍ. وكانت تَعْصُرُ إبرة الحقنة فيما كانت تنظر إليه. "هذه خدمة... أو باستطاعتك القول إنّك ستعمل معهم". وتردّدَتْ قبل أن تتوقّف الكلمات. وكان يدرك أنّ أحدهم كان يراقبه. فقال لها "هل تنامين معه فقط عندما تكونين مخدّرة؟" وضربه أحدهم على وجهه بقوّة ممّا أوقعه إلى الخلف مع الكرسي، بحيث ضرب رأسُهُ الأرضَ.

وأعادوا تركيز الكرسي وهو عليها. على ركائزها الأربع. وكان جيل يجلس على الكرسي الصغيرة حيث كانت قد جلست بريدْجِت. جلس قريباً من كوبر تماماً كما فَعَلَتْ هي. ولوّح بمعصمه بقوّة على فَم كوبر. "لا تستطيع الرحيل. ليس الآن. لِنَعْتَرِف بأنّنا جميعاً عاهرون". وأخذ نفساً عميقاً ـ وأحسّ كوبر بحركة لكنّه لم يجرؤ على النّظر بعيداً عن شفتَيْ الرّجل. وبعدها هَجَمَتْ بريدجِت عليه وتحت دِرْعِ جسدها طَعَنَتْهُ بالحقنة في رَقَبَتِهِ مُفرِغَةً إيّاها كلّياً ورامِيَة بها. وكان الرّجال الثلاثة مجتمعين يكافحون لِسَحْبِها عنه. وكان كوبر مَرْمِيّاً على جَنْبِهِ قرب الموقدة وكان رأسه مقلوباً مع تدفُّقِ المخدِّر. لقد كانت في سانتا ماريّا تقول: "هذا لكَ. هناك خمسة أعلام. الأصفر هو الأرض، والأخضر هو الماء، والأحمر هو النّار ـ وهو الذي علينا الهرب مِنْهُ".

ولم يتذكّر شيئاً بعد ذلكَ.

Twitter: @ketab_n

الشَّخص المعروف سابِقاً بآنّا

أتَيْتُ إلى فرنسا في الرابعة والثلاثين من عمري كي أبحث في حياة لوسيان سيغورا وأعماله وكنتُ قد طِرْتُ إلى أورلي حيث لاقَتْ صديقتي برانكا طائِرتي، فَقُدنا السيارة عِبْرَ الضّواحي المُعْتِمَة مارّينَ بالمدن الصغيرة على الأطرافِ فكانَتْ تُشْبِهُ ومضات الضّوء حين سافَرْنا جنوباً. ولم نكن قد التقينا منذ أكثر من سنة وها نحن الآن نستعيد بعضنا متحدِّثين طوال الطّريق. وكانت برانكا قد وَضَّبَتْ سَلَّةً من الفاكهة والخبز والجبنِ، فَأَكَلْنا معظمها وَشَرِبْنا من كأسِ نبيذٍ أحمر أَعَدْنا مَلأَها باستمرار وتشارَكناها.

وَوَصَلْنا إلى تولوز حوالي منتصف اللّيل. المحال جميعها مقفلة، وكان لدينا ساعة أخرى قبل أن نَصِلَ إلى ديمو. فاقْتَرَحَتْ برانكا أن ننحرف إلى قرية برّانِ حيث كانت شركتها الهندسية المعمارية منخرطة في ترميم برج كنيسة قديمة. بعد أربعين دقيقة أبْحَرْنا بِسَيّارتنا عبر الشّوارع الضيّقة لتلك المدينة، ثمّ ركنّا السّيّارة بجانب المقبرة.

وكان لديها مصباحٌ قوسِيٌّ، بالطّبع، وذلك في صندوق سيّارتها، فَرَفَعَتهُ خارجاً وصوّبَتْ شعاعَهُ نحو ذلك البرج الغريب المرتفِع عالياً في الظّلام وكأنَّهُ رُمْحٌ أو جذع اللوبياء العملاق، إلاّ أنّ أكثر ما ذكّرني به هو برج الماء المتثاقِلِ الّذي كنّا نستخدمه للتسلّق عندما كنّا أولاداً. لكنّ برج

Twitter: @ketab_n

الكنيسة هذا كان غريباً. فهو قد بُنيَ في القرن الثالث عشر وكأنّه لُفَّ على ذاته أو كأنّه مُسْمِرَ. لقد كان له شكلٌ لولبيٌّ غير متوقّع ـ ذو سطح حلزونيّ ـ بحيث إنّه كلمّا التفّ حول الأعلى عَكَسَ كل محيط الأرض. وَدُرْنا حول الكنيسة في العَتْمَةِ. من يا تُرى صَمَّمَ وَنَفَّذَ هذا؟ قالت برانكا إنَّ المؤرِّخين الأوائل بُنَاتَهُ استلهموا شكل الصَّدَفَة. بينما تقول شروحات أخرى إنَّ النجّارين استخدموا خشباً نَضِراً جِدّاً، فكانت النتيجة أنّه التوى. ويقول آخرون أنَّ ريحاً قويّة عاتية خَلَقَتِ الإلتِواء. إلاّ أنَّ صديقتي استَبْعَدَت نظريّتي الخشب النَّضِر أو الرّياح العاتِيَة. لقد كان البرجُ بالنِّسبة لها مَثَلاً في رؤيوِيَّة فنّ المهارة اليدويّة، بحيث بدا ارتفاع الخمسين متراً كالنّار في السماء. وأضافت أنّه حدثت مشاحنة أثناءَ التّرميم الأخير كاد أن يُقْتَلَ خِلالَها رجل.

وَعُدْنا إلى السّيّارة وتوجّهنا نحو ديمو. طوال حياتي أحبَبْتُ السفر خلال اللّيل مع صُحْبَةٍ، فنتبادل أطراف الحديث ونتشارَكُ عادات بعضنا المعروفة، فيبدو الأمر كقصيدة ثنائِيَّة القافية مع ميل إلى العودة إلى أحداث ماضينا، فيبدو شكل القصيدة وكأنّه يرفض المُضيّ قُدُماً في تطوّر مستقيم ليدور بدلاً من ذلك حول تلك اللّحظات المألوفة من العاطفة. يقول نابوكوف إنّ إعادة القراءة هو المهمّ. لِذا بدا لي شكل البرج الغريب، وهو يدور على ذاته، أليفاً. فنحن نعيش مع تلك الإستردادات من الطفولة والتي تتجمّع ويتردَّدُ صَداها طوال حياتِنا، بالطريقة الّتي تعود فيها شظايَا الزجاج المُهَشَّم في المِشكال لِتَظهر في أشكال جديدة شبيهة بِلازِمات الأغاني وقوافيها لِيُخْلَقَ بالنتيجة حوار ذاتي فردي معروف بالمناجاة. نعيش أبداً في إعادة تشكيل لِقِصَصِنا الخاصّة وذلك عندما نخبر أيّ قِصَّةٍ كانت.

Twitter: @ketab_n

ولم نَرَ أيّ مصباح شارع واحد مضاء في القرى الّتي مَرَرْنا بِها، إلاّ ضوء مصابيح سيارتنا وهو يتغيّر ويكتسح الطرقات ذات الإتّجاهَين. وكنّا وحدنا في العالم، في بَلَدٍ لا مرئيّ ولا أسماء له. إنني عاشقة للترحال في اللّيل، إذ تبدو معظم حياتِكَ مربوطة إلى ظَهْرِكَ. وتأتي موسيقى المذياع خافِتَةً غير متقطِّعة. فتغْدو أنتَ عديمَ الكلام في النّهاية، ويد الصديق على ركبتِكَ للتأكّد من عدم استرسالِكَ بعيداً بينما يُلاطِفك سياج الشجيرات الأسود.

كلّما قصف الرّعد أتذكّر كلير وأتخيّلها مكتفية بذاتها، رغم أنّها، على حدّ علمي، قد تكون متزوجة بارتياح. هناك قصيدة لفيكتور فوغان تَصِفُ الطّريقة التي "يتحرّك فيها الإهتمام متنكِّراً". ولا أعلم إذا كان هذا ما أفعله، في هذه المسافة متخيّلة حياةَ أختي ومتخيّلةً مستقبل كوب. إنّني شخص يستكشف النصوص الأرشيفية في التاريخ والفنّ حيث يحيك حفنة من الغرباء لوْلَب قصة. والشخص الذي أبدأ فيه قصتي دائماً هو كلير.

جَعَلَ عَرَجُ كلير منها تبدو جدّيّةً للّذين لا يعرفونها جيّداً. وهو نتيجة لإصابتها بشلل الأطفال عندما كانت صغيرة، وأذكر أنّ والدنا كان يحملها، خلال تلك الفترة، باستمرار من غرفة إلى أخرى. لقد أدّى العَرَج إلى إظهار إيماءاتٍ حارّة من الكياسة تجاهِها. فقد كان الرجال في الأوتوبيس الكهربائيّ أو على المركب المائيّ يقفون ليقدّموا لها المقعد. لكنّ كلير لم تشعر أبداً بهذه الجدّيّة في نَفْسِها. ففي الواقع لقد كنتُ أنا، أنّا، التي يجب أن توصَفَ بالأخت الجَدّيّة، المُصِرَّة دائماً على أَخْذِ طريقٍ مقرَّرٍ. في حين أنّ كلير كانت بطرقٍ عِدَّة الأخت المغامِرة، مع

Twitter: @ketab_n

وحشِيّة كافية فيها. واحتَوَتْ مذكَّراتها الشخصيّة عن سَفَراتِها (على ظهر الحصان طبعاً) على مجموعة من الأصدقاء غير معروفين لدى البقيّة مِنّا...

السّابع من كانون الثاني: صَعِدْنا صخور التِّلال بحثاً عن كلب كين الّذي كان دائماً يصيح به "اللّعنة على هذا وذاك" ، ولكنّنا كنّا نعلم أنّه كان يحبّه. تَفَرَّقْنا ومشينا على طول الأنهر الصغيرة، باحثين عن شيءٍ قد يكون مَيْتاً أو حيّاً، إذْ لَمْ نَكُنْ نعلم. وكنّا قد فَعَلْنا ذلك من قبل، بحثاً عن حيواناتٍ، فلقيناها نافقة وكأنّ مذبحة صغيرة قد حَصَلَتْ على الثَّلج. وفي وقت متأخِّر من بعد الظهيرة وجدنا الكلب يرتجف قرب جدولٍ على منحنى ريتشارد-سون، فهو لم يكن حَيَواناً ودوداً إلاّ مع صاحبتِهِ. أمّا الآن فقد حصل على صُحْبةٍ كبيرة. قَرْفَصْنا وأدَّيْنا التحيّة، كما كانت آنا لتقول. ولفّ كين جورج بِحرام وساق الباقون الأحصنة في الماء. واستمعْتُ إلى صوت شربها، سوش سوش سوش، صوت طفل يرضع من ثدي. وظهر ظبيٍ ذَكَر، وكأنّه إله، من بين الأشجار، ناظِراً حوالَيْهِ. وهذا ما كان الأمر عليه حول جورج عندما ظَنَنّا طوال الوقت أنّه كان وحدَهُ. إرتاح كين وحمل الكلب بين ذراعَيْهِ متحدِّثاً من دون توقّف طوال الطريق نحو المنزل.

" الثالث من تشرين الأوّل: أشجار بيضاء عتيقة. نحمل مصباحاً في يدٍ ونركب الخيل بين شَجَرِ الحَوْر في اللّيل. كانت هناك أحصنة، نصف نائحة، تسير وكأنّها في محيطٍ مائي وسط اليابسة. بَقِيتُ هناك لساعتين أشتمُّ رائحة أعناقِها. وأَرَدْتُ أن أَجِدَ فَرَساً كي أنامَ على ظَهْرِها.

" الخامس من كانون الأوّل: لدى بوبي صديقة ضعيفة جِدّاً لِدَرَجَة

Twitter: @ketab_n

أنّها تتخبّطِ بكوبِ واحدة من البيرةِ. وعندما مات والد بوبي، إنسَلَّت في فراشة وَغَمَرَتْهُ بهدوء. الجاكيت البيضاء بقلم مِلْفيل كان كتاب بوبي المفضَّل. والرّجالُ مِثْلَهُ يبدون وكأنّهم يختبئون وراء العُمْق...»

وأثناء عملي، أستعير أحياناً طبيعة كلير وتركيزها اليَقِظ على العالم. ورغم أنَّ القارئ العادي لن يلاحظ أختي، ولا حتّى هي، على ما أظنّ، إذا صَدَفَ والتقطَتْ كتاباً لي. ولأنني غَيَّرْتُ إسمي. وربّما، إذا ما قَرَأتْ عملاً لي، قد تثير إعجابَها تفاصيلي حول حلية معدنية أو حزام سَرْج في قِصّةٍ من حقبة القرون الوُسْطى، أو قد تَنْدَهِش بواقعيّة استدارة مَشْيَةٍ سَبَّبَها شلل الأطفال. كانت استدارة ولم تكن في الواقِع عَرَجاً، ولقد دَرَسْتُ مَشْيَتَها بإمعان ـ وكيف تكون مختلفة على تلّةٍ، أو على العشب مقارَنَةً بها على الرّصيف، وكيف كانت تُخفيها في غرفة مليئة بالغرباء.

ومِثْلَ كلير أصبَحْتُ حَذِرَةً بما آخذ وما أربّي ـ الجزء المختار بعناية من التجربة. وَقَرَأْتُ مَرَّةً مقالة لكاتبٍ سُئِلَ أن يتخيَّلَ مهنة مثاليّةً، فأجاب بأنّهُ يودّ أن يكون مسؤولاً عن مدًى صغيرٍ لا يتعدّى المئتي يارد من نهرٍ ما. أظنُّ أنّ هذا كان سَيَسْحَرُ كلير كُلّياً وكانت لِتَضَعَ حياتَها بأمانٍ بين يَدي ذلك الكاتب. ربّما لأنَّ الأشياء الصّغيرة تكرّر أهمِّيَّتها في المزرعة بحيث يصبح من العسير مَحْوُها من ذاكِرَتِنا. ستتذكر كوب وهو يأخذها في السيارة بعد حفلة عيد ميلاد وكيف كانا يعودان إلى المنزل عبر الطريق السّاحليّ تحت السماء الصفراء وبمحاذاة التّلال الأُرْجُوانِيَّة السّواد. والوقت الّذي وقف فيه على رأس برج الماءِ بينما كنّا نحن الإثنتين نراقِبُهُ. والقِطّ التُراس. وربّما الحادثة الغريبة مع الثّعلب. وأنا

Twitter: @ketab_n

متأكّدة أنّ باستطاعة كلير رسم كأس النبيذ وخلفيّة الخبز وذهب الجبنة العميق والموجودة كلّها على الطاولة في الخامسة فجراً. في ذلك المطبخ المُعْتِم من طفولَتِنا قبل أن يبدأ حلب الأبقار. وأذكر كيف نما في تلك الساعة شعور خَشِن بالتلازم مع صوت النّار المبتدئة. لكن حينها، أذكُرُ ذلك أيضاً.

وأشعر أنّني أستطيع تخيّل معظم الأشياء عن كلير بِدِقّة. فأنا أعرفها. أمّا كوب فإنني أعرفه بطريقة واحدة واضحة ـ ذلك الشاب ذو العشرين ربيعاً الذي وَقَعْتُ في حُبِّهِ، والذي أخذ خطوة واحدة بما يتعدّى أو يتجاوز الحميمية التي أعْطِيَتْ له. وإنّه أمر طبيعي، أليس كذلك؟ فهو قد نشأ يتيماً بالقرب من هاتَيْنِ الأُخْتَيْنِ، وذلك في حقلنا الصغير والمرغوب. وكان قد عَلّمَنني وكلير كيف نبني سياجاً مُقَضّباً وكيف نَطْحَنُ حَبّة الكستناء وَنَنْثُرُها على سطح النّهر كي نغري السّمَك بالصّعود. لقد خَلَقَتْ كلّ هذه القوانين والعادات رابطاً بيننا. لَكِنْ عندما أعيدُ بناء قنطرة حياةَ كوب، أستطيع أخذ الأمر فقط حتى حَبْكَة اللّحظة عندما أصبح ذاك الغريب الخجول عشيقي السّرّيّ وَلِسُخْرِيَةِ القَدَر في اللّحظة ذاتها عندما كان يُعَرِّضُ نَفْسَهُ من خلال عمل الوِصال هذا.

إنّ اكتشافَنا بين ذراعي بعضنا البعض تحت تلك السماء الخضراء ومحاولة الوالد قتل الفتى ومحاولة الإبنة مهاجمة الوالد، هو، في استعادة للماضي، شيء صغير وقد يحدث ضمن إنْشٍ أو إثنين في لوحة لِبروغل. لكنّه أضرم النّار فينا لبقيّة حياتنا. لقد كنت شاهدة على الجنون، وَأَصبَحْتُ مجنونة كلّياً وَأنْشَبْت قطعة زجاج كَمخْلَبٍ في جسدِهِ ووجهِهِ لكي أتخلّص منه بعد أن أمسَكَ بَرِقْبَتي بِقَبْضَتِهِ. وَبِتُّ أعتقد أنّه

Twitter: @ketab_n

لم يكن لفتاة مثل تلك الأُلْفَة مع والدها والذي كان يحاول ربّما أن يخنق الشَّيْطان ليُخْرِجَهُ منها. ورغم الغضب الموجود كان حُكْماً هناك من الحبّ الخائِف عليّ. لكنّني لم أرَ ذلك حينها. وكلّ ما ظَنَنْتُهُ هو أنّني كنت ما زِلْتَ أملك قلب كوب في داخلي فيما كان والدي يُخْرِج جسدي من ذلك الكوخ ممسكاً بيدي وآخذاً إيّاي نحو أسفل التّلّة. وكنت أصرخ عندما دخلنا بيت المزرعة. لم يقل شيئاً لكلير، وبعد دقائق أجبرني على دخول الشاحنة وقاد بي بعيداً نحو الشاطئ وكأنّ المسافة سوف تُرَقِّق ما كان بين كوب وبيني. وكان لديّ لحظة واحدة فقط كي أُلَمْلِمَ ما أردت أن آخذه. فَمَزَقْتُ من الألبوم صورة فوتوغرافيّة تَجْمَعني وكلير كما أَخَذْتُ أحد دفاتر مذكّراتها. فقد كنت أعرف أنّني لن أعود ولن أرى كوب ثانيةً.

وبعد ذلك في مكانٍ ما جنوب سان خوّسيه عند موقف شاحنات على الطريق السريع ١٠١، تَسَلَّلْتُ بعيداً، إذ دخلتُ من باب لأخرج مباشرة من باب آخر واستقلَلْتُ سيّارةً مارّةً. واخْتَفَيْتُ. وَسَبَقْتُهُ ربّما بعشر دقائق عندما لاحظ ما قد حصل. ولا بُدّ أنّه فَتَشَّ عنّي على الطريق السريع ناظراً من نوافذ السّيّارات المارّة على الطريق الساحلي ومُعلِّماً الشُّرطة عن ابنته الضائعة وباحثاً عني في مُدُنٍ كَغِلْروي وسانتا كلارا وسان خوان بوتيستا. وهو رُبّما لم يكن ليعود إلى المزرعة قبل مرور بضعة أيّام. وحينها ستكون العاصفة الثّلجيّة التي ضَرَبَتْ المنطقة قد رَحَلَتْ عن تلال بِيالوما. وكنت عندئذٍ قد أَصْبَحْتُ هاربة، كما أنّ كوب سَيَكون قد رحل من دون شكّ.

ومن سيتعافى من أحداثٍ كهذه؟ تلتقي بأناسٍ في منتصف العمر

Twitter: @ketab_n

لتكتشف أنّهم في نقطة معيّنة، في ممر الحياة الدّقيق، قد تحوّلوا إلى شاب الكُبّا أو خمسة البستوني. وهذا ما حصل، على ما أظنّ، لكوب ولي. فلقد أصْبَحْنا غير مفهومَيْنِ في أسرارنا وغير محكومَيْنِ بحياتَيْنا السّابقتَيْن. وسنبقى دائماً مرتبطَيْنِ بعلاقتنا الرومانسيّة، تماماً ككلير، بطريقةٍ ما، وهي التي خَسِرتْ عائلتها بسبب هذه العلاقة.

"قد يمتصّ الجنينُ التوأمُ التوأمَ الآخر بدون تعمّد الأذى ويُبقى في جسده تذكاراً طليقاً أو اثنين من عظام فخذ التوأم الممتصّة. فيكبر التوأم الحيّ لِيُصبحَ راشداً، بينما يبقى الفخذ جنيناً. هذه المدهشة، آنّي ديلار، كَتَبَتْ ذلك. وربّما تكون هذه قصّة التوأم. لقد هَرَّبْتُ نفسي بعيداً عمّا كنته وما كنته. لكن هل أنا التوأم الحيّ في قِصّتنا العائليّة؟ أو هل هي كلير؟ ومن هي التوأم السّاكن؟

إنّ الّذين يمتلكون حسّ اليتيم بالتاريخ يحبّون التاريخ. ولقد أصبح صوتي صوت يتيم. وربمّا استطاعَتْ حياة أمّي غير المعروفة وصورتها المرسومة بالكاد أن تجعلا منّي مؤرْشِفَةً ومؤرّخة، لأنّكَ إذا لم تَنْهَب الماضي فإنَّ الغياب سوف يلتَهِمُكَ. وتنبِشُ مهنتي معظم زوايا التّراث الأوروبي غير المَعْلومَة. وإنّ أفضل دراساتي المعروفة هي عن أوغوست ماكيت، أحد المتعاونين مع الكسند دوما وباحثي حَبْكاتِهِ. والدراسة الأخرى هي عن صورة زيتيّة تمثّل جورج وايغ، وهو ممثّل إيمائيّ محترف أعطى كوليت دروساً عام ١٩٠٦ كي يحضّرها لمسرحيّات القاعة الموسيقيّة. إنّني أعمل حيث يلتقي الفنّ الحياة في السرّ. إنّ الأرشيف هو عالمي المثالي، يقول أحد الشّعراء، ويشعر معارفي من دون شكّ بأنّ الحياة المعاصرة تبدو لي كمرعى رقيق وأقلّ إثارة وربّما

يكون هذا صحيحاً. فعندما يسأل رافايل مثلاً في أيّ لحظة تاريخيّة أرغب بأن أعيش، أقول من دون تردّد باريس، في الأسبوع الّذي ماتت فيه كوليت. عندها، في مأتمِها الرسميّ، تأكدّ جورج وايغ في وضعِه آلاف الزّنابق المُرْسلة في رابطة قاعات الموسيقى والسِّيرك... وأقول له، أريد أن أكون هناك في قميص الضدّ سانت بيف، فأنظر إلى شِقَّتِها في الطابق الأوّل من الباليه رويال، حيث "لن نُرَتِّبَ كلمات الحب المختارة بعناية نَفْسَها على الورقة الزّرقاء الشّاحبة تحت ضوء المصباح الأزرق".

ولقد علَّم جورج وايغ كوليت، وكان قد عَلّمها الإيماء. شيئانِ مُهمّان. فلقد لاحظ لَدَيْها فَنّاً مخفيّاً، بحيث لم تكن تعبِّر عن نفسها فقط بالكلمات. لقد رأى أنّ هذه المرأة احْتَوَتْ صِفاتٍ أخرى، وباستطاعتها أن تكون قويّة عندما تكون صامِتَةً. أخذ بيَدِها ومشيا بعيداً عن الآخرين في حديقة ناتالي بارني وحين بَدَأَتْ بالكلام، وضع إصبعاً على شَفَتَيْها، فالتَقَطَت عيناها النّار وامتلآ بالحياة، وراقبا وجهه بانتظار إشارة. وسمح لِيَدِهِ أن تهبط باستسلام فَعَرَفَتْ أنّه لم يكن مُسْتَغِلاًّ، فتابعا المسير. وأخبرها حينها أنّ الإيمائيّين يعمِّرون طويلاً. والشيء الآخر الذي أَخْبَرها به كانت تعرفه مُسْبقاً، وهو أنّ لا شيء أكثر اطمئناناً وإقناعاً من القِناع. فَتَحْتَ القناع تستطيع أن تعيد كتابة ذاتها في أيِّ مكان وفي أيّ شكلٍ.

وهنا تعلّمْتُ أنّنا أحياناً ندخل الفنّ كي نختبئ في طيّاتِهِ، فهناك نستطيع الذهاب كي نخلّص أنفسنا، بحيث يحمينا صوت ضمير الغائب. تماماً كما أنّ هنالك، في الأرض الحقيقيّة من باريس في البؤساء، ذلك الشارع الصغير المُتَخَيَّل والذي يؤمّنه فيكتور هوغو لجان فالجان كي يَدْلُفَ فيه ويختبئ، من مِطارديهِ. ما اسم ذاك الشّارع الخياليّ؟ لم أَعُدْ

Twitter: @ketab_n

أتذكّر. لقد أتيتُ أنا من شارع ديفيسادير و. وكلمة "ديفيساديرو" مشتقّة من كلمة إسبانية تعني الإنقسام، وهي إسم الشارع الّذي كان يوماً الخطّ الفاصل بين سان فرنسيسكو وحقول الحصن العسكري. أو أنّها قد تكون مشتقّة من كلمة "ديفيسار" والّتي تعني التحّديق أو الرؤية من بُعد (وهناك مُرْتَفَع قريب يُسَمّى إلْ ديفيساديرو)، فهي إذاً موقع تستطيع منه النَّظَرَ أو الرؤية لمسافة بعيدة.

وهذا ما أفعله في عملي على ما أظنّ. أنظر نحو المدى باحثة عن الّذين فقدتهم، فأجدهم في كلّ مكان، حتى هنا في ديمو حيث عاش لوسيان سيغورا وحيث "أدوّن البديل / كطيّاتِ الوِشاح العَرَضِيّة".

وما زِلْتُ حتّى الآن غير متأكّدة مِمّا جعلني أقع على حياة لوسيان سيغورا وأتمنّى الكتابة عنه. أو ما الّذي دَفَعَني إلى البحث في أرشيف جامعة بيركلي عن طريق حياته المُثَقَلَة بالأتعاب في غِرْس. وكنت قد قرأتُ الكاتب الفرنسيّ أثناء دراستي في كليّة راندولف ـ ماكون للنّساء. لكنّ الأهم هو أنّني، في مقصورة في مكتبة بانكروفت من جامعة بيركلي، سَمِعْتُ صوتَهُ لأوّل مرّة وهو يتلو قصائِدَه في قُمْعٍ من التّنك المصقول وكأنّه يتلوها في أذن غريب كبيرة. إنّ توثيق الأكاديمية الفرنسيّة هذا والمُسجّل مَطْلَع القرن العشرين قد وَضَعَهُ بعيداً في خلفيّة الأمور، بحيث بدا عن قرب وكأنّه صوت شطّ البحر أو النار المضطرِمَة.

لكن على أيّ حال شَعَرْتُ أنّ في صَوْتِهِ المتحدّث ما يوحي بالجرح، الطريقة ذاتها التّي يشعر فيها المرء أحياناً بِمَرضٍ يختبئ وراء حركة الملك البطيئة في جريدة السينما. وأذكر أنّه بعد تلاوته لقصائده قرأ لوسيان سيغورا على الأسطوانة شيئاً عن والده ـ زوج أمّه في الواقع ـ

Twitter: @ketab_n

والـذي كـان صـانـع سـاعـات، وأَشـخـتُ بـنـظـري نـحـو الأعـلـى عـن الملاحظات التي كنت أدوّنها في فصل الدكتور ويبر عن حياة الفلاّح، وَبَدَأتُ أَسْتَمعُ بإمعانٍ. وكان لدى سيغورا طيف ناعم وتردّدٌ لطيف شبيهٍ بعشقٍ مُهَشَّم كالذي كان لَدَيَّ. وكلّ ما عَرَفْتُهُ عن حياتِهِ حتّى ذلك الحين هو رحيله الغريب عن عائلته، وأنّهُ في مرحلة متأخرة من حياتِهِ، حين كان مرتاحاً وناجحاً، رَكِبَ عربةً تجرّها الخيول واختفى عن الأنظار. وبقي صوته المجروح يسكنني. فسافَرْتُ إلى فرنسا، إلى آخر بيت سكنه خلال المرحلة الأخيرة من حياتِهِ. إلى آخر بيت سكنه خلال المرحلة الأخيرة من حياتِهِ. وَجَمَعْتُ الأراضي التي كَتَبَ عنها، سائرة لمسافات طويلة. وسبحتُ في الجدول المجاور كما أنّني مَشَيْتُ في طريقه المشجّر. والتَقَيْتُ بِرافايِلْ.

سبع دقائق بعد هربي من والدي عند محطّة الحافلات قرب سان خوسيه، رَكَبَتْ هذه الإنسانة المعروفة سابقاً بآنّا مقعد عربة مُتَجِهةً نحو الجنوب. قدنا طول الليّل، وهذا الرّجل الأسود الخجول في حافِلَتِهِ ذات الثلاّجة التجارية يُقِلّ مَنْ ظَنَّها فتاةً فرنسيّةً. ولم أشأ أن أتكلّم أو أشرح شيئاً. وتوقّفنا بين الفينة والأخرى لتناول الطّعام، رغم أنّني بالكاد أَكَلْتُ إذ كانت مَعْدتي تؤلمني من الخوف. جَلَسْنا في مطاعم الطريق وراقبْتُهُ وهو يأكل الطعام المكسيكيّ (الغواكامول والفلفل المحشي) في حين كانت قنوات الطّقس على شاشة التلفاز الموجود في كلّ محطة للحافلات تنقل أخبار العاصفة الثّلجيّة الرّعناء التي تضرب شمال كاليفورنيا. لقد كانت مشمسةً بعد الظهيرة تلك على سقيفة كوب قبل أن تتوّقف الرياح وتبدأ لحظات الرّعد. وها أنا بعد يوم واحد أجلس ولم أدَع الإنكليزيّة تُفلِت من شفتيَّ. أمّا الكلمات الوحيدة التي وُجِدَتْ بَيننا

Twitter: @ketab_n

أثناء سفرنا في السهل الأوسط الكبير فقد كانت تنبعث من مذياع الحافلة.

لقد كان الوادي الأوسط في كاليفورنيا والذي مَرَرْنا بحراً من الورود في وقت سابقٍ. ويصف جون مثير كيف كان "مهداً متواصلاً من الإزهار العسليّ، رائعاً وغنيّاً... بحيث تطأ قَدَمُكَ مئات الأزهار مع كلّ خطوة." لقد بَدَتِ المنطقة في أحيانٍ كبحر وتحول الوادي بأكْمَلِهِ إلى محيط وغرق معظم سكّانه، وحاول البعض السباحة بعيداً، إلا أنّ الضّفادع وسمك السّلمون إلتَقَطَهُم وَأَكَلَهُم. لقد نجا شخصان اثنان فقط، إذ قُذِفَ بهما إلى جبال السّييرّا"، وهذا ما تقوله أسطورة المايدو حول ولادة السّهل الأوسط الكبير. وجاء المستكشفون فأعطوا نَهْرَيْ سكرامِنْتو وَمِرْسِد إسْمَيْها: السّرّ المقدّس والرّحمة. لقد اصطاد ناصب الأفخاخ كيت كارسون على طول مجاري الأنهار، الفضّة، مع حملة السلاح واللّصوص - يواكيم موريتا (والذي ادّعى تناوله طائر النّعام كطعام) وجوني سونتاغ وتريس ديدوس (جاك ذو الأصابع الثّلاث) وعائلة الدالتونز. ولقد كانت المنطقة حينها غير مستقرّة وفجّة. وكانوا يخيّمون قرب فيزاليا، وهي الآن مدينة نائمة ومطهريّة. تخبرنا التّواريخ الموجَزَة البليغة أنّ أيّ شيء مسالم وهادئ لديه ماضٍ مضطرب.

وفي هذه الأيّام، إنّ الأرض الصلّبة المُسَطَّحَة قد حُفِرَت بتقاطع السكك الحديديّة وبتناسق مميّز لقنوات الأنهار وكأنّ الله قد طَبَعَ مجموعة دارات كهربائية على الأرض وأعطاها عَقْلاً. ولِذا حَصَلْنا على حضارات التلال الواطئة لمدينتَيْ بيكسلي وبورتِرفيل وعلى أضواء مدينتي بَتِنْويلو وتولير. وكان كوب قد نام مرّة مع فتاة في تولير، وهي ليلة

Twitter: @ketab_n

متوتّرة ومجنونة يَذكُرُها بتعبير خجول. لقد نام مع فتاة توليز تماماً كما "نام" معي. أمّا اللّعنة التي نَزِلتْ علينا فلم تنقرض تماماً. وقد يقول شخص من الماضي عنّي "هناك عَلَمٌ أسود في حياة تلك المرأة"، لكن من المُسْتَبْعَد أن يحصل هذا. فالعائلة تكتم أسرارها.

تماماً كما أنّ البقايا في ماضي الوادي الأوسط هي شائعات خرساء عن فتيات فوضويّات خارجات على القانون، وعن الحانق يوجين كي الذي نصب نفسه شريفاً على توليز وَبَترَ اليد اليسرى لجاك ذي الأصابع الثلاث وأرسلها إلى فيساليا بواسطة ويلز فارغو كدليل يحتفي من خلاله بنصرٍ نوعيّ.

وَعَبَرت شاحنتنا ذاك النّهار مجرى النّهر العتيق وَمَرَرْنا سريعاً بمزارع الفاكهة ودخلنا نوبات المطر القصيرة. وقرأت من حينها عن تاريخ السّهل الأوسط الكبير وعن الماشية في فاولِرز جانكشِن وعن المدينة الساحرة والجميلة المدعُوّة ألينسوُرْث. وَقَرَأْتُ رواية الأخطبوط حيث أعيدَت تسمية توليز ببونزفيل، كما أنّني قرأت عن موجبات المهاجرين الذين قَدِموا إلى هنا مع موسيقى لغاتهم - الفيليبينيّة والإسبانيّة والإيطاليّة والصينيّة واليابانيّة - كي يحفروا خنادق الري ويحوّلوا المستنفعات إلى أراضٍ للفاكهة ويستخرجوا الإسفَلْت وسط لهيب الحرّ، كما كان يفعل جَدّي لأمي، عاملاً وهو عارٍ ومطليٌّ بذلك النّفط المستعمل في صهر ما كان يُسْتخرج من مناجم الإسفلت. وأسفلتو هو مكان آخر على خريطة العالم دُعِي باسم معدن. كم يبلغ عدد هذه الأماكن؟ عدد كبير على ما أظنّ أكثر من الأسماء المَلكيّة.

كنت في السادسة عشرة عندما سَلَكْتُ الطرق المتجهّة جنوباً، هاربةً

Twitter: @ketab_n

من والدي وحاضنةً قلب كوب في داخلي. وأَكْمَلْتُ سفري على ما يبدو لعشر سنوات أخرى بين الغرباء، وحيدة وغير ألفية، بانية ببطء لثقةٍ في عزلتي. لكن خلال الرّحلة الأولى تلك جَلَسْتُ في المقطورة الرّحبَة لتلك الشاحنة التجارية المُثلِجَة وحدّقْتُ طويلاً، مُبْتَلِعَةً كلّ ما أراه لدرجة أنّ ما وُجدَ فيَّ مُحِيَ. وأَسْمَعنا راديو "كاز إيي أم" باك أوينْ وهو يغني "تحت سِحِرِكِ مجدداً"، فامتَصَصتُ ذلك أيضاً. وكنت قد هَرَبْتُ وَقَفَزْتُ إلى مقطورة السّائق عند محّطة الحافلات على الطريق السريع ١٠١، وهو لحسن حظّي كان ذاهباً نحو الداخل أوّلاً إلى مِرسِدْ أي الطّريق السّريع ٩٩. لقد كانت طَريقاً منفصلةً عن "رَحْمة" ومن ثمّ نحو الجنوب على طريق والدي. وَأكمَلنا نحو كَتْلِرْ وفيزاليا. وعندما حَلّ الظّلام، توجّه صديقي الجديد الغامض جنوباً فَغَرْباً إلى مكانٍ قال إنّنا نستطيع المبيت فيه. مَرَرْنا بحدائق اللّيمون وبسجن حكومي على ضوء القمر، وَدَخلنا أخيراً مدينة أليبسورت المهجورة. وقال إنّها كانت قد هُجِرَت منذ أكثر من أربعين عاماً. كنّا وحيدين هناكَ.

وكلّ ما استطَعْتُ رؤيته هو أشكال عدد من المنازل. قُدْنا عبرها حتّى وصلنا إلى أرض مخيّم، فخرج تاركاً لي المقطورة لأنام فيها. تَمَدّدت على المقعد الجِلديّ القديم. لقد كانَتْ تِلْكَ اللّيلَة الأخيرة في صِبايَ، فَأَبْقَيْتُ عينيَّ مفتوحَتَيْن قَدْرَ ما استطَعْتُ واسَتَمَعْتُ إلى طيور اللّيل ثمّ إلى القطارات التي هزّت الأرضَ من تحتي طوال اللّيل.

وفي الصبّاح، تمشّيْت بين المنازل الجميلة المُلوّنة بالباستيل في مدينة الكولونيل أليبسورث المهجورة. وَصَعدنا نحن الإثنين السلالم المؤدِيَة إلى كلّ منزل وتمشّينا على شرفاتها قارِئَيْنِ اللّوحات الّتي تصف

Twitter: @ketab_n

المخزن العام في ١٩١٢ والفندق والمدرسة والمكتبة. واسترقْنا النَّظر عبر النّوافذ فوجدنا بيانو قديماً وصورة للينكولن. وقال إنّه كان يبيت دائماً في ألينسوُرث خلال رَحَلاتِه، وهي مدينة استُخدِمَت كمخزن كما كانت مُستقرّاً للسّود. وَعُدْنا إلى الشّاحِنَة الّتي كان قد رَكَنَها تحت الأشجار، فَكُنّا حالاً على الطّريق السّريع مجدداً. وكان الوقت مُبْكراً فوجدنا نَفسيّنا في أحَدِ ضباب الوديان المسمّى غيوم الأرض. واستَطَعْنا سماع الطّيور من خلال النّوافذ المفتوحة كما رَأينا طيور الشحرور الحمراء الأجنحة تنطلق مسرعة من الغيوم البيض عِبْر الطّرقات.

وبقي يحدّثني بالإنكليزية، لكنّ الصَّمْت كان جوابي في معظم الأحيان، وإذا تَكَلّمْتُ تحدَّثتُ إسبانيّةَ أمّي أو فرنسِيّتي المتردِّدَة. أدرك أنّني ما زلت جديدة مع شيء ما، وأنّني كنت أمتلك سمّاً ما في داخلي. لكنَّهُ على أيّ حال تكلّم معي لِيخْبِرَني عن الكولونيل ألينسورث والقطارات التي رَفَضَتْ منذ ١٩١٦ التوّقف عند المخزن الذي كان يديره المجتمع الأسود. ولا بدّ من أنّهُ عَلِمَ أنّني فَهِمْت كلّ ما قالَهُ، لأنّه كان يتحدّث بصراحة، متوقّفاً بانتظار الإجابات. وفي إحدى المرّات أثناء الصبّاح الأخير الذي قَضَيْتُهُ معه، تحدَّثَ عن الكتب وكيف كانت تشير إلى الإحتمالات في حياتنا. وكان يُلقي عليّ ما كان يعتبره أكثر الأبيات من الأسطر جمالاً.

"سواء كنت سأصبح بَطَلَ حياتي أو سَيَحْمِلُ هذا اللّقب شخص آخر، فإنّ على هذه الصّفحات أن تُظْهِرَ ذلك". وأُدركُ الآن من أين تأتي تلك الكلمات، لكن حينها لم أدرك ذلك. وعندما وَقَعْتُ عليها صُدْفَةً وأخيراً، تَجَمّدْتُ وانفجَرْتُ باكِيَةً للمرّة الأولى في حياتي كناضِجَة.

Twitter: @ketab_n

وَأَنْزَلَني في باكيرسفيلد، داسّاً بعض النّقود في جَيْبي. وبَدَأْت بالمسير في المدينة الشّبه خالية، وحياتي ماثِلَةٌ أمامي. لم يكن قد لَمَسَني طوال ذلك الوقت، فَأَعْطَيْتُهُ قُبْلَةً عند محطّة الحافِلات، قبلتي الحسنة الأخيرة. ولم أقبّل أحداً لمدّةٍ طويلة بعد ذلك، إذ بتُّ أظنّ أنّ السيّد ألينسورت هو الذي كان يقودني جنوباً.

هذه هي القصّة التّي تَمَنّيْت لو كان باستطاعتي يوماً أن أُطْلعَ كوب عَلَيها ـ ربّما من خلال رسالة أو رُبّما في مكالمة هاتفيّةٍ. لكنّ حبيبي الأوّل كان مفقوداً لَدَيَّ، وكنت قد ابْتَعَدْت كثيراً حينها، نحو حياةٍ أخرى.

Twitter: @ketab_n

التَّعثُّر بإسْمٍ

إستغرق آلدو فيا يومين كي يحدّد مكان كوب من خلال رقم الهاتف الذي كانت كلير قد قَرَأَتْهُ له."إنّه في شاليه على الشاطئ الجنوبي لِتاهو"، قال لها."لا بُدَّ أنّهُ مُستأجِرٌ للمكان".

رَكَنَتْ كلير سيّارتها في أسفل التّلة. ربّما تكون كلمة"شاليه"فخمة. منتصف الطريق صعوداً، نادَت اسمَهُ، وعندما وَصَلت إلى مستوى الشاليه رَأَتْ الباب الأماميّ مفتوحاً وَوَجَدَت الجسد مَرْمِيّاً على وجهه وكرسي الخيزران مربوطاً إلى يَدَيْهِ. لقد كان كوب دائماً قويّاً، لكنَّ الأمر بدا وكأن شخصاً قد ضربه على وجهه مُستَنزفاً نصف دَمِهِ. كان مُستَيْقِظاً فحدَّق إليها. قَلَبَتْهُ فرَأَت الجراح الداكنة على رقبته. لم يحصل الأمر للتلوّ القريب.

وعندما وصل المُسْعِفون، طارحين أسئلتهم ـ من قام بذلك؟ أين يكمن الألم أكثر؟ وهل يعاني من الصّداع؟ ـ لوّح لهم أن يبتعدوا عنه. وأعلَمَتْهم كلير أنّها ستبقى بجانبه. أجابوا أنّه محظوظ لأنّه سيكون في حاجة إلى المساعدة. غادروا المكان وبَقِيَتْ بجانبه، موقظةً إيّاه كلّ عدّة ساعات كما كانوا قد أعلموها وذلك كي تطمئنّ عليه. ولاحقاً استيقظ بنفسه فأَطْعَمَتْهُ البيض المسلوق. وكان باستطاعَتِه الكلام، لكنّه في الأساس كان يفكّر في الأسئلة بارتباك. وتذكّرتْ تلك الإبتسامة المُحْرَجَة

Twitter: @ketab_n

على شفتيه عندما اتّهَمَتْهُ بالسّيْرِ وكأنّه رجل عصابات، وكان ذلك قبل يومَيْن فقط.

ماذا حصل؟ هل لهذا صِلة بِعَمَلِك؟

العمل، قال برتابة. إذاً أيّ عمل؟

البوكر.

وراقَبَتْهُ يبحث عن إجابة وكأنّه يفتّش عن شيءٍ مفقود كَقَلَم أو ولاّعة. وَفَكَّرَتْ هو لا يعلم عمّا أتحدّث.

إنّك تلعب البوكر يا كوب.

وبدت عليها ملامح ضحكة.

أنتَ مقامِر. هذا هو عملك. هل تعرف إسمي؟

لم يقل لها شيئاً

هل تذكرني؟ وهل تذكر آنا؟

آنّا. قالها وكأنّه يتعلّم لفظ كلمة جديدة.

شكراً. آنا. قال ذلك عندما أخذت مِنْ أمامِهِ الطبَق الذي كان يحوي البيض.

"غوترا سْخلانا" هو تعبير في الشّعر السّنسِكْريتي (الهندي القديم) يُطْلَقُ عندما يُنادى المحبوب باسم آخر أو خطأ، وهو يعني حرفيّاً "التعثّر باسم". وهو تكرار مألوف في الحكايا المُسْتعادَة عن الحياة الزوّجية والعلاقات الغراميّة التي جَمَعَها البحّاثة ويندي دونيغِز. وما تقوم به هذه الأخطاء اللُّغَوِيَّة هو تسليط الضّوء على الدّماغ لِسَبْرِ متحفهِ الهائل من الوقائع والرّغبات. فعندما افترض كوب منطِقِياً أنّ اسمها آنا، أضاء ذلك

Twitter: @ketab_n

مصباحاً على مَمَرٍّ مفاجىء لم تكن كلير تظنّ أنه يمكن السّفر من خلالِهِ. وَفَكَّرَتْ في نفسها، فقط لِبُرهة، من أجلِ الإثارة فقط.

وبَدَتْ ذاكرة كوب، كوب الّذي عرَفتْهُ، وكأنَّها غَرِقتْ من دون أثَر. وَبَقِيَتْ فقط مهاراتُهُ الحركية مُتّقِدة. وعندما ذهبت عند البقّال ابتاعت مجموعة ورق اللّعب وقلم "شاربي". "وزّع"، قالت له عندما عادت إلى الشاليه، وبسرعة ومقدرة قَسَمَ الأوراق الإثنتين والخمسين بأصابِعِهِ إلى أربع مجموعات. لكن لم تكن لديه معرفة باللعبة حتى شَرَحَتْ له القواعد الأساسية فعرف حينها ما عليه فعله. وكان يتعلّم كلّ ما تقوله له، إلاّ أنه كان يرتبك إذا قدّمَتْ له خياراً آخر. وعندما حاوَلَتْ في اليوم التالي أن تُصَحّح لكوب ما يخصّ إسمها، كان ذلك صعباً للغاية. فنحن نتذكرّ أوّل ما نتعلّمه.ومع النّسيان، ماذا بقي من الرّغبة التي استَنْفَدَت كوب؟ أين ذَهَبَتْ؟ إنّ الهوس المدَوزن بدِقّة يقع في المكان الخطأ مع هذا الضّياع الدراماتيكيّ للسّيرة الذّاتية. وإذا راقبه أحدهم وهو على يديه وركبتيه فوق سجادة الشاليه الرقيقة، لربما كان شاهداً على بحثه المجنون عن ذاك النّصف الجسدي الآخر التواق إلى حجز ذاتِهِ كَمِخْلَبِ في جسد الآخر. وبعد ساعات قليلة، لم يعد مدركاً لما قد هَجَرَه. فَلَقَدْ خرس دور الجسد ولم يعطِ العقل أيّ دليل على من كان هو بحاجة ماسّةٍ إليه. وكان يَغِطّ في نوم مريح على السّرير المفرد، غير مدرك لِصُور أحداث أسبوعية، وغير مدرك لمسبّب هذه الجراح، وغير مُكْتَرِث للحاجة إلى الثّأر لنفسه. فلقد خَبَت الرّغبة والهَوَس، كما أغلق عضو وحيد، قرن آمون، في الدّماغ. وَأُعيد توجيهنا نحو الفراغ.

وأصبحت الأوجه غير معلومة لديه الآن، المرأة القابعة معه هنا؟

Twitter: @ketab_n

وتقوم امرأة أخرى من السرير. متى يحصل ذلك؟ ويرى نفسه يسحبها نحو رذاذ الدّوش، وشعرها الأصفر يتحوّل بُنّياً عند وجهها. وهو لا يستطيع ربط هذا الشّخص بأيّ شيءٍ، كمنزل أو شارع. وهو يحبّ أن يكون معها في الحّمام الصغير ومع قوتّها المتكاسلة. مبلّلَةً بالماء، تفتح جاروراً لتسحب منه مجفّف الشّعر وتجرّبه على ذراعها ثم تدعه يهبّ على شعرها لينيرَه ويُقلّبَهُ كالقمح. ويتغيّر وجهها حين تفعل ذلك، فيحيط برأسها نسيجٌ ما. وتوجّه بوق الهواء السّاخن إلى جسدها، ثم تسحب الشريط من الحائط فيسمع السقوط السوناري الضعيف في صوت المجفّف المائت.

كانت تستيقظ في الليل لتجثو أمام سريره وتصغي إلى تنفُّسِهِ، محدِّقَةً به. وكانت تتابع محاولتها إدراك ذاك الوجه الفتيّ، الذي كانت قد عَرَفَتهُ، تحت الندوب ولِحْيَتِهِ القصيرة الخَشِنَة. كوب لقد أَمْضَتْ نصف حياتها معه ومع آنا، أما الآن فيوجد فقط ظِلُّهُ غير الواضح في الغرفة المُشِعَّة بضوء القمر. وحين كانت تراقبه فتح عَيْنَيْه إلا أنّها كانت تعلم أنّه لم يلاحظ شيئاً وكأنها غير موجودة في الغرفة. هل تريد بعض الماء؟ نعم. هاك. وَقَرَّبَتْ كأس الزجاج من فمه الجاف.

وتَمشينا ببطء في الممرّات الواقعة فوق الشاليه. وإذا تمشّى كوب وحده، كانت كلير تدوِّن رقم هاتفها الخلوي على ذراعه بواسطة قلم "الشاربي". وفي إحدى اللّيالي عندما كان قد ذهب لفترة نظرت من السّطح نحو الأسفل فرأت ضوء سيارة أسفل التّلّة، ثُمَّ ثلاثة رجال يجاهدون في الصعود على الدّرج المؤدّي إلى الشاليه. فوجئوا بوجودها. وعندما سألوا عن كوب تظاهَرَت بعدم مَعْرِفَتِها بِهِ. وأضافت أنّ

Twitter: @ketab_n

المستأجر السابق قد تركَ المدينة تارِكاً بضعة أشياء وراءه وهي المستأجِرَة للمكان الآن. وأعطتهم إسم المالك والذي كان فِيا قد ذَكَرَهُ. أخذوا أغراض كوب قائلين إنّهم قد يعودون في حال عودته. واتَّصَلَت بعد ذلك بفِيا وأَخْبَرَتْهُ بما حصل وبما كانت قد وجدته عندما قَدِمَتْ إلى الشاليه وبأنها متأكِّدَة أنّ الرِّجال الثلاثة هم الذين قد آذوا كوب وكادوا يقتلونه."حسناً يا كلير، إرحلا أنتما الإثنين الآن. فقط قودي سيّارتك إلى أيّ مكان تشعرين به ولا تحلّلي ذلك منطِقِياً."

وما ان عاد كوب حتى غادروا. قادَتْ بِهِ في عمق نيفادا داخل الصحراء. وكانوا يتوقّفون كلّما جاعوا أو تعبوا، أحياناً في اللّيل وأحياناً أخرى خلال فترة بعد الظّهيرة اللاّهِبَة. واشْتَرَتْ آلة تصوير "بولا رويد" وأخذت تلتقط الصّور كلّما توقّفوا، إذ كانت تشعر أنّ ذلك سيساعده على تذكّر الحاضر. وكانت تركّز الكاميرا على غطاء السيّارة المعدني وتضبط المؤقت ثمّ تركض إلى حيث كانا، منتظِرَيْنِ "الطّقشة" التي ستحرّرهما من وَضْعتَيْهما. وكانا يشعران بأنّ الثواني الإضافيّة تلك طويلة وأنّ حميميّتِهما مزيَّفَة، بينما كانت عيناهما نصف مُغْلَقَتَيْن بسبب ضوء الشمس الباهر المحيط بهما.

هل تتذكّر كيف تقود؟

يبدو الأمر سهلاً.

نعم، طبعاً. فأنتَ تستطيع توزيع الورق وبالتّالي تستطيع القيادة.

وَبَدّلا مكانَيْهما في السيارة، وفي مقعد السائق أدار مرآة النّظر الخلفيّة حتى يستطيع رؤية وجهه المجروح وعلامات اليود ثم أعاد توجيهها إلى حيث كانت كي يرى ما وراءه وكأنّ باستطاعته فعلاً أن يرى

Twitter: @ketab_n

من أيّ مكانٍ أتى. إتّكأت على باب الرّاكب وراقَبَتْهُ يتعامَل مع القابض ومبدِّل السُّرعة بخِفَّةٍ. لقد كانت في الخامسة عشرة من عمرها مجدّداً وها هو يُعَلِّمها القيادة.

وبدأت تفكّر في المكان الّذي سيقصِدانِهِ. وبِما أنّ الخطر كان يُحْدِقُ بكوب، فهي لم تكن تَعْلَم ما إذا كانت تاهو فقط هي المكان غير الآمن بالنِّسبة إليه. ولم يكن لديها عِلْمٌ بمدى سِعَة عالمِهِ. وتذكَّرَت ملاحظة فِيا حول العشوائيّة فجَعَلَت كوب يعود أدراجَهُ ليدخل كاليفورنيا ومن ثمّ يتوجّه شمالاً نحو مدن الذَّهب القديمة. إشتَرَت خريطة محليّة فاكتشَفَتْ مكانًا يدعى هاسْ، معشّشًا في التّلال، ووصلا بعد الظّهر ونَزِلا في فندق قرميدي مؤلّف من طبقتَيْن. كان هناك غرفة شاغرة فتشاركاها. وعندما نَزَع كوب قميصَه رأت النّدوب على صدره وذراعَيْهِ وقد اصفرّت ببشاعة. ولم يكن قد تذمّر من الألمِ منذ مغادرتها لتاهو. وتذكّرت مِرْهم الحصان الإمتِصاصيّ والذي كانت تستعمله وآنّا ليدلّكا بعضهما عندما كانتا صغيرتَيْن، وتلك الرّائحة التي دَعَياها بِعِطْرِ راعي البقر. أعطتْ كلير السّرير لكوبٍ ونامَتْ على الصُّوفا. وبقيا صامتَيْن ومنفَصِلَيْنِ في عتمة غرفة الفندق المُخْتَلِفة، ومدركين أنّ ضوء النّهار ما زال ساطعاً في الخارج.

هل أنت بخير؟

أجل.

ما زال هدير السيارة يَضِجّ في جسدها.

إذاً أخبريني عن ذاتك يا آنّا. كيف نعرف بعضنا؟

Twitter: @ketab_n

بَقِيَت صامتة.

ـ كنت تعلمين أنّ باستطاعتي القيادة.

ـ ماذا؟

ـ قُلتِ إنني كنتُ أعلم كيف أقود.

ـ أجل فمعظم الناس يفعلون ذلك.

ـ وإنني كنتُ مقامِراً.

ـ نعم، أنت قلت ذلك يوم التَقينا. وكان هناك صمت. فحاَولَت كلير أن ترجعه إلى الوراء داخل الماضي هل تذكر يوم الثعلب؟

ـ الثعلب...

وبعد ذلك، كانا صامِتَيْن ولا بُدّ أنّه غطّ في سبات عميق. لكنّ سؤاله "كيف نعرف بعضنا البعض؟ "كان يحرقها من الدّاخل، إذ إنّها كانت دائماً تعتقد أنّ ثلاثتهم، آنّا وكوب وكلير، يشكّلون ستارة يابانية ومثلّثة الألواح بحيث يكون كلّ لوح مُكْتَفِياً ذاتِيّاً، لكنّه يُظهرُ صفاتٍ أو أسلوباً مختلفاً كلّما وُضِعَ جانب الآخريْن. لقد أعطَت تلك الألواح معنى أكثر صِدْقاً من اللّوحات المؤطّرة إفراديّاً المصنوعة في الغرب والموجودة من دون سياقٍ معيّن. أمّا حياتهم فقط ظلّت بالطبع مترابطة أينما حلُّوا. لقد كان كوب مُتَبَنّى من العائلة بالطريقة نفسها التي كانت قد أُخِذَتْ هي من المستشفى في سانتا روزا وَجُلِبَتْ إلى المنزل بجانب آنّا. اليتيم واللّقيطَة. ولقد نَمَيا حميمَين كأخوين منذ تلك اللّحظة. ولقد عاشت إحدى أهمّ مراحل حياتها مع كوب، وهي لا تستطيع أبداً أن تَفْصِمَ نفسها عنه. وتوجّهت في الظّلام نحو سريره لترى وَجْهَه، فَوَجَدَتْهُ شاحِباً في ضوء بعد الظهيرة المسدول بعيداً. وفتح عينَيْهِ مرّة أخرى لينظر

Twitter: @ketab_n

إليها. لكنّه نظر، باعتقادها، نحو اللاّشيء. وكانت شفتاه جافّتَيْن، ولم يكن هناك ماء في الغرفة ولا حَنَفِيَّة، كما أنّ الدوش كان في أسفل القاعة. بَصَقَتْ على أصابعها وفَرَكَتْ بها شَفَتَيْهِ، فَرَأَتْه يحاول الإمتصاص. ثمّ أخذ بمعصمها قبل أن تسحبه، وأمسك بها لِبُرهة قائِلاً، "آنا". فأجابَتْهُ "كلاّ، لست بآنا".

وعادت كلير إلى الكنبة وجلست بمواجهته في الظّلمة، محاولة أن تستعيد أيّ تفاصيل أخرى كان قد ذكرها عندما التقيا ذاك النّهار في المطعم. وكان قد اقترح أنّ هناك مشكلة، "إنّ الأمور قد أَضْحَتْ صعبة بالنّسبة لي الآن". هذا ما كان قد رماه نحوها بطريقة عفويّة للغاية.

وكانت قد سألَتْهُ حينها، "هل تقامر دائماً؟"

ـ مباراة أو اثنتَيْن في الأسبوع حالِيّاً، في حين أنّني كنت ألعب من دون توقّف.

ـ إنّني لا أفهم عالَماً كهذا... وما هي حسناته.

ـ إنّه ليس مختلفاً عن أيّ عمل إلزامي. فبعضهم يعيشون حياة مليئة. أعرف صديقاً كان طفيليّاً لكنّه كان أيضاً منخرطاً في السياسة المحليّة. وكان يلعب الورق إجتماعيّاً في أحد الكازينوهات في غراس فالي (وادي العشب).

ـ أمّا زال صديقك؟

ـ لا لسوء الحظ.

ـ يبدو وكأنّه كان عليك أن تبقى ملتصِقاً بِهِ.

Twitter: @ketab_n

ثمّ أضافت، هل تفكّر أحياناً في مزرعتنا؟ فلم يقل شيئاً. وَجَعَلَتْ من صمته هُوّةً بينهما.

وكان فِيا قد سألها مرّة، "برأيكِ، ما هي مهمّتِكِ ودعوتك؟" فلم تعرف. ورغم رغبتها في كَوْنٍ مُكّثفٍ، كانت حياتها مبعثرة ومليئة بلحظات صغيرة عدّة من دون هدف عظيم. هذا ما فكّرت به، رغم أنّ أكثر ما هو غير موثوقٍ بِهِ حول طبيعتنا وقيمتنا الذّاتيّة هو كيف أنّنا نختلف في حقائقنا الذّاتيّة عن الطريقة الّتي يرانا بها الآخرون. وما تذكّرته كلير لاحقاً، مثلاً، من مَشْيَتِها عائدة إلى الفندق مع كوب في تاهو ذاك النّهار هو لذّتها في حضوره وكيف ظنّت نفسها غير مرئيّة في الساعة أو الإثنتين اللّتين قضياهما معاً كانت ببساطة سعيدة بأن تتمشّى معه، مُداوِيَةً تَعَبها وَمُصْغِيَةً إليه يتحدّث عن العالم الّذي يعيش فيه. إنّ عودته الخارقة إلى حياتها وَعَظَمة أسماء المدن ـ فيغاس وغراس فالي ونيفادا سيتي وتاهو ـ تبدو أيقونِيَةً وشيئاً مُكْتَشَفاً على خارطة الكِبار. ولو أنّها أُعْلِمَتْ أن كوب كان يتأمّلُ كَتِفَيْها السَّمْراوَيْن وأنّه كان يتذكّر كيف خَلّصَتْ حياتَهُ في العاصفة الثَّلْجِيّة وأنّها بطريقةٍ ما تغدو بَطَلَة لقائهما، لما صَدَّقَتْ حقيقة كهذه. فنحن نحيا القِصَص من جديد ونرى أنفسنا فقط كمراقبين أو كمستمعين، فيما يبقى عازف الطّبل في الخلفيّة ضابطاً للإيقاع.

(وكن ضوء الشمس) قد حطّ في الغرفة عندما استيقظَتْ كلير، وكان كوب ينتظرها مرتدياً ملابِسَهُ. فقالَتْ له: "علينا زيارة غراس فالي لرؤية أحدهم؛ علينا العودة من حيث أتَيْنا". وتوجّها صوب نيفادا سيتي وبلدة غراس فالي المجاورة حيث من الممكن أن يكون الكازينو ما زال

Twitter: @ketab_n

قائِماً وحيث كان صديق كوب، الطّفيلي، معتاداً على اللّعب. ولم يكن لديها فكرة إذا كان ذاك الرّجل ما زال قاطِناً هناكَ أو ما كان اسمه.

وعندما وصلا إلى نيفادا سيتي تناولا وجبة طعام، وبعدها جلس كوب على كرسي في ردهة "الفندق الوطنيّ" بينما خَرَجَتْ كلير لتشتري لوحة إعلانات. وفي تلك العشيّة وَقَفَتْ خارج قاعة لعب مسمّاة "هجمة الذّهب" في غراس فالي، حاملة لافتة أمامها تقول "هل أنتَ صديق لكوبر؟". وفي حوالي السّاعة العاشرة مشى نحوها رجل يحيط عُنُقَهُ بالأصداف وسألها من تكون.

صعد دورن في السّيّارة ونظر إلى كوب. رفع كَفَّهُ نحو الوجه المجروح، بإشارة وليس بِلَمْسة. واقترح أن يتركا سيّارَتَها في غراس فالي. وساعد دورن كوب في الصّعود إلى سيارة الستايشن خاصّهُ. وكان هناك كلب صيد متحفّزٌ في مقعد الرّاكب الأماميّ من دون أيّ نِيّة في الحراك نحو الخلف.

وكان منزل دورن بَنْغَلاً متواضِعاً على مسافة مِيلٍ أو ميلَيْن من المدينة. وبدأ بِطَبْخِ وجبة أسماها "مفاجأة البروكولي" وبعد فترة قصيرة وَصَلَتْ روث مع ابنتهما البالغة ستّ سنوات لتَجِدَ المنزل وقد شَغَلَهُ الغرباء. وتوجَّهَت نحو كوب وعانَقَتْهُ. وشرح لها دورن الموقف، ثم أزاحا بعض أغراض ابنتهما من غرفة نومها كي يتمكّن كوب وكلير من أن يشغلاها.

وبعد تناول "مفاجأة البروكولي" والتي لا تحتوي على البروكولي، بَدَأَتْ روث بمعاينة جروح كوب. ثمّ استدارَتْ صوب كلير قائلةً: "لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيته لآخر مرّة".

Twitter: @ketab_n

ـ هل عرفتِهِ جيِّداً؟

ـ نعم، لقد كنتُ أحد الفِتْيَةِ حينها. وكان كوب لا يُمَسّ.

واستَمْتَعَتْ كلير بمشاهدة كوب بصحبة أصدقائِهِ القدامى، رغم أنّ العاطفة والإهتمام كانا يفيضان ناحية واحدة صوب عدم وعي كوب للأمور. وأشعل دورن لفافة ومرّرَها إلى كلير متحدّثاً عن الحادثة التي جَرَتْ مع الإخوة ثمّ تحدّث عن قِصَصٍ أخرى ومتنوّعة يظهر فيها الوريث المُهَنْدَم بين الفينة والأخرى. وبعد ذلك أخبَرتْ كلير دورن وروث عن طفولتها مع كوب في بيتالوما. وببطء جمع الثّلاثة حياة كوب فيما جلس هو غير مهتمّ دارساً الحركات الصغيرة في الغرفة وانتفاخ السّتارة والنّعل الجلدي لحذاء كلير البُنّيّ والذي كان يُطقْطِقُ كلّما وُجِدَت الموسيقى. وقالت، "إذا بقينا معكما لَيْلَتَين أُخْرَيَيْنِ، فهذا سيكون جَيِّداً. وبعدها سَنَنْصَرِف". "حسناً، تستطيعان البقاء لفترة أطول إذا رَغِبْتُمَا"، أجاب دورن. وكان الكلب يجلس على الأريكة بجانب دورن، مستمعاً إليه بنظرة اهتمام وواجب، فهذا هو صوت سيِّده. وبَدَأَتْ كلير أخيراً تشعر بالأمان مع دورن، رجل العائلة هذا. لقد كان حتماً في يوم من الأيّام هيبيّاً ضعيفاً وأخاً أكبَر ومحبّاً لكوب، هذا ما كانت تفكّر بِهِ.

وفي تلك اللّيلة، عندما كانت مستلقية على ظهرها، سَمِعَت كلير أحدهم يتحرّك في الظّلام حول سريرها. وكانت تسمع صوت نَفَسِهِ قريباً. فخافَت أن يكونوا الرِّجال الذين كانوا قد ضربوه سابِقاً وأنّهم عادوا للتّو إلى البيت. وكانت هناك وثبة وإذا بكلب دورن، الذي كان يقرّر من أيّ ناحية من السرير سيقفز، يدفن نفسه بجانبها تحت الغطاء

Twitter: @ketab_n

وقد امتدّت مخالبه ناحيتها. وبقي ساكِناً لبرهة، لكنّه أراد مساحة أكبر فَكَبَسَ بمخالبه برفق في البداية ثمّ بقوّة أكبر حيث أضْحَت كالأشواك الرنّانة مدفوعة في ظهرِها.

وفي الثامنة من الصّباح التالي كانت روث قد توجّهت للعمل. مدّ دورن قطعة مخمل كبيرة فوق الكنبة وبمساعدة كلير بدأ بخياطة اللّباس المتعلّق بوليمة القرون الوسطى والتي كانت حدثاً محلّياً سَنوِيّاً. وكان الإحتفال سيُعْقَدُ تلك اللّيلة في مؤسّسة المناجم التاريخيّة، والّتي هي حالِيّاً مركز إجتماعيّ، وحيث سيصل كلّ واحد بِزَيّ مَلَكيّ أو فلاّحيّ أو تروبادوريّ. وقطع دورن خياطته الوحشيّة كي يرمي قطعة لحم ضخمة، مع الخضار والثوم، على الشوّايَة، وأصرّ على كلير وكوب أن يشاركا في الإحتفالات، فقد كان الحشد محلّياً فقط. وانطلق في أغانيه المفضّلَة طوال بعد الظّهر حين كانوا يعملون على المشالح والقلَنسوات. "في ديلاوير عندما كنتُ أصغر عمراً..." وغنّى مقطعاً تلو الآخر من تلك الأغنية، كما ارتجل بعضاً أُخَر. "الآن هذه أغنية عظيمة. أغنية عظيمة". وعادت روث مع ابنتها في الخامسة، وحالاً تحوّلوا جميعاً إلى قرويّين أوروبيّين من القرن الرّابع عشر. وَبَقِيَت حبّات وأصداف دورن غير قابلة للنّزع، الإشارات الوحيدة على ما هو عصريّ. وحمل كوب ودورن صينيّة اللّحم العملاقة، فيما جَلَبَتْ روث وعاء من الفاصوليا. وكانت شوارع نيفادا سيتي الضيِّقَة مليئة بالمحتجّين على الحرب وسط موسيقى الماندولين والفلوت. فبعد اثني عشر عاماً من القصف الأميركي للخليج عام ١٩٩١، ها هي أميركا تتحضّر لمهاجمة العراق ثانية ومحطّتا باسيفيكا وأن بي آر تواكب آخر المعلومات طوال اليوم. وإذ بكلير تجد

Twitter: @ketab_n

نفسها وسط رهبان القرون الوسطى حاملين لافتات مناهضة للحرب - الحدث.

وسحب دورن ابنته الخَجِلَة للرّقصة الأولى ذاك المساء، وبعد خمس عشرة دقيقة جرّ كلير أيضاً، ساحِقاً إيّاها كي يجعلها صِنْواً لهُ. واتّكأَتْ على هذا الإنسان المولود في ديلاوير (كما في الأغنية) والذي هو فوضويّ وهيبّيّ ومنظّرٌ للمؤامَرَة وقد أضحى الآن لاعب بوكر ناجحاً، بارتياح يعيش كمزارع نبيل في هذه البلدة القابعة على أطراف التّلال.

وانتهى اللّيل بِكَسْرِ دورن كبسولة زمن القرون الوسطى عندما أقنع فرقة الثانويّة أن تعزف "النّار فوق الجبل". لكنّ الكثير كان قد حصل قبل ذلك. فأثناء العشاء جلس ولد في الخامسة من عمره قرب كوب إلى إحدى الطاولات المزدانة ذات القوائم العريضة. ولم يكن هناك محادثة بينهما كون الولد كان يصغي بانتباه إلى جهاز راديو ترانزستور. لكن في نهاية الأمر أطفأ الجهاز واستدار نحو كوب قائِلاً إنّ الأميركيّين كانوا يقصفون بغداد. وُرُوِّعَ كوب فجأة لأنّ الولد كان يتحدّث عن الأمر بشكل عفويّ مُصِرّاً على إعطائِهِ التفاصيل، حتى قال له كوب، أخبر ذاك الرّجل هناك" ، مشيراً إلى دورن الذي كان مع معالِجَة يدويّة مسلّماً نفسه إلى لقطة ذراع معقّدة. وذهب الولد حيث قيل له وانتظر حتى يُعْتَق دورن ثم شَدَّه بذراعه. وانحنى الرّاشدان فوقه فقال الولد شيئاً لم يستطيعا فهمه بسبب الضّجّة المحيطة بهما. ورفع دورن الولد بين ذراعَيْه. "ما الأمر يا فينيغان؟" سمعه كوب يقول: فأخبره الولد بالأمر.

وضع دورن الولد أرضاً ووقف لبرهة. ثمّ مشى صوب زوجته ومرّر

Twitter: @ketab_n

ذراعه حولها، مصغِياً لما كانت تقوله لأحد الأصدقاء. ونظرت روث إلى دورن فحرّك يده على ذراعها، ولم يدع ملامسته لها تتوقّف لِلَحْظة. ثم شدّها قليلاً فَتَبِعَتْهُ إلى باب جانبيّ. وراقب كوب الرّجل الذي قيلَ له إنّه صديقه واقِفاً بطريقة جانبيّة على المدخل حيث يوجد أعلام مثلَّثة وملوّنة بالأحمر والأزرق والأصفر والأبيض وهي تسبح في النّسيم الخفيف. وكانت روث تحدِّق في دورن بينما كان يتكلّم ثم أشاحت بوجهها عنه لتنظر في الظّلام الكامن وراء الأعلام. كانت تسمع عن أميركا أنّها كانت تقصف مدينة مدنِيّةً.

بدأ كوب بالسّير نحوهما فيما كان دماغه يكافح كي يتشبّث بشيءٍ ما. وبينما كان يقترب سمع روث تقول، "أنظر إلى صديقك فحتّى هو ليس بريئاً. لا أحد هنا بريء، لا أنا ولا أنت، ولا حتّى أنتَ. فنحن أيضاً برابرة لأنّنا نسمح بحدوث ذلك." لم يكن دورن يتجاوب حتّى مَزَّقَتْ يدُها ما حول عنقه فتوقّفَت مئات الأصداف الصغيرة على صدره لثانية ثمّ انهَمَرَتْ صوب الأرض، وبدأ الأولاد بالتدافع من أجلها. وكان كوب في صمته يلتقط طرف شيءٍ ما ولم يكن بمقدوره تسميته. وقف أمامهما ولم يكن يعلم ما عليه قوله. وكان بإمكانه رؤية الدموع على وجه روث. وفجأة أصبحت الموسيقى صاخبة.

ما الّذي كان سيقوله لهما؟ شيئاً عنها أم شيئاً قد رآه؟ ذَهَبَتْ إليه باكية، واضعة ذراعيها حوله. "أرقص معي يا كوب. هلاّ فَعَلْتَ ذلك؟" رفع ذراعيه فتحرَّكَتْ صوبه بلطف، متذكِّرة النّدوب. وعندما اصطفّا للرّقص، قدم المزيد من الأولاد إلى أرض المرقص، متبوعين بالكبار، وكأنّهم تزاوجوا في زمنٍ آخر، بداية حرب المئة عام. وفي

Twitter: @ketab_n

وقت متأخّر، أخذ دورن، السّكران جدّاً، الماندولين من مراهق بطول ستة أقدام، وانضمّ إلى الفرقة مُصِرّاً على عزف نسخٍ لا متناهية من"نار فوق الجبل".

في صباح اليوم التالي، لم يستيقظ أحد باكراً، باستثناء كوب الذي جلس وحيداً إلى طاولة المطبخ.

هل كانت هذه حياته قبل هذه الحياة؟ ما كان ينظر إليه بدا مألوفاً فقط لأنّه كان هنا في هذا المكان ليوم خلا. ولم يكن هناك شيء أكثر من الأيام القليلة التي يتذكّرها. وما لديه الآن كشيء ناعم الملمس وبلا أبواب داخل عقله هو رقصته مع المرأة المسمّاة روث. وكان بمقدوره أن يُخْبِر مباشرة أنّه إذا كان قد رقص في حياته السابقة فإنّه لم يكن بارعاً. فكّر بهذا لِلَحظة ثمّ قالها عالِياً لها. وكانت قد أجابَتْه "هذا صحيح". ثمّ أردف"لنبدأ بالبيجين"وهي رقصة جنوب ـ أميركية تشبه الرومبا. لكنّها لم تتجاوب معه.

هو الآن يُطْرِقُ مفكّراً في أسلوبها، وفي الطريقة الّتي قالت فيها "هذا صحيح". وكأنّها تعني"هذه بالتأكيد حقيقة معروفة جيّداً لدينا". ما علاقتها به؟ أهي صديقة؟ أم لا شيء؟ وهل كانت تتكلّم فقط عن الحاضر عندما صَرَّحَت"هذا صحيح"؟ لكنّها لم تكن الطريقة الّتي قبلت فيها هذه الملاحظة له. من هي روث؟ لديها اسم صغير كثقب المفتاح في الباب. وكانت قد رَقَصَتْ معه، باكية بين ذراعَيْهِ.

كان عقل كوب يمتلك بعض الأشياء البعيدة، كَصُوَر البولا رويد عنه على جانب الطريق السّريع، وعن البومة على قارعة الطريق، وعن المرأة المنحنية فوق لهبٍ أزرق، وعن الرّقصة على إيقاع الأعلام أو

Twitter: @ketab_n

خَفقِها. وعدا ذلك، كان عقله شبيهاً بطاولة مفروكة جيّداً وبالكاد تستطيع أن تتذكّر كيف كانت تحمل الفناجين أو الصّحون أو قِطع الخبز أو رأس فتاة تَعِبَة.

سائقة نحو سان فرنسيسكو، تلمس كلير يد كوب.

ـ أريدُكَ أن تلتقي بوالدي.

ـ والِدكِ... لماذا؟

ـ لأنّه ربّاكَ يا كوب. وهو عجوز الآن، عجوزٌ جدّاً. بعد رحيلك ورحيل أختي بعيداً، بالكاد كان يتكلّم، حتّى معي. جعل نفسه وحيداً. أريدكَ أن تراه.

ـ لكنّني لا أعرفه.

ـ سيرغب في أن يراك يا كوب. وأنتما بحاجة أن تودّعا بعضكما. وربّما يكون هذا الأمر ضرورياً لكما.

لم تكن تريد أن تشرح له الأمور أكثر، كونها تدرك أنّ هكذا عمل قد يكون مرعباً حتّى وحشِيّاً. أو قد يكون عملاً كريماً، أو قد يكسر قلب والدها مجدّداً. إنّ كلّ هذه الأمور كانت ممكنة، لكنّ الكثير كان قد هُدِرَ. لقد بقي لها والدٌ ناءٍ والآن كوب، كما هو الهيِبّي لا يتذكّر شيئاً. ولقد أرادت أن تضمّ نِصْفَي حياتهما معاً وكأنّهما خارطة. وتخيّلَتْ والدها تلك اللحظة واقفاً على طرف حقل الذُّرَة، وقد بَدَتْ لحيته البيضاء ملطّخة بظلال أوراق الشجر الطويلة الخضراء، وبدا هو كرجل غامض مستوحِد وجائع لعائلته الّتي كان قد ربّاها بأسرها. ثمّ فَقَدَها ـ زوجته أثناء الولادة وهذا اليتيم إبن الجيران وآنا الّتي ربّما كان يحبها أكثر من الجميع والتي خسرها إلى الأبد. ولم يَبْقَ إلاّ كلير، ذاتها، الّتي

Twitter: @ketab_n

ليست من دمائِهِ، فهي الإبنة الإضافيّة التي كان قد جَلَبَها إلى المنزل من المستشفى في سانتا روزا.

ومن سان فرنسيسكو توجّها شمالاً نحو جسر البوّابة الذّهبيّة، ثم أخذا يساراً الطريق السّريع وبعدها سلكا طريقاً ريفيّة حتّى وصلا إلى نيكاسيو. قالت إنّها تعبة وطلبَتْ من كوب أن يقود. أكملا وجهتهما فشاهدا الشجرة المنحنية والنابعة من الصخرة الكبيرة قرب خزّان المياه. وَتَعَرَّجَت السيارة مع طريق بيتالوما عبر التّلال، والطريق مدروزة على جانب واحد بأشجار الحَوْر العملاقة. عَضَّت لسانها ونظرت من نافذتها متظاهرة باللاّإهتمام. وعندما وصلت السيارة إلى القمّة انحرف بالمقود بيد واحدة وبطريقة عفويّة نحو اليمين وقاد السيارة نزولاً عبر طريق المزرعة الضَّيّق. أدار المفتاح مطفِئاً المحرّك فانسابا بين الأَسْيِجَة متوجّهين صوب بيت المزرعة. تخطّيا مطبّات السرعة القديمة، وشاهدت حصانها يقترب من السّياج، ورأت كوب ينظر من وراء المقود إلى العالم القديم.

أتبع أنا ورافايل، النهر الذي يختفي تحت فوضى الصّخور لِيَنْبَعِث مرة أخرى بعد مئات قليلة من الياردات في الغابة. نمشي بجانبه بصمتٍ. وفي النهاية نصل إلى موضع من النهر يسهل خوضه حيث يلتقي النّهرُ بالطريقِ ويغطّيها، أو من ناحية أخرى، حيث تعبر الطريقُ النّهرَ وتغوص تحت سطحه، وكأنّك تنتقل من حياة عشتها إلى حياة تتخيّلها. وبما أنّنا كنّا نتبع النّهر فقد نظرنا الآن إلى الطريق وكأنّه الغريب. عمق المياه ١٢ إنشاً وأكثر عندما تأتي أعاصير الرّبيع مسرعة على مستوى منخفض فوق الحقول وتقفز بين الشّجر قالِبَةً الأعشاش، فَيُسْمَع تكسّر الأغصان

Twitter: @ketab_n

القديمة ليحلّ بعدها السكون قبل أن يهبط كلّ منها عمودياً أثناء سقوطِها. إنّها الغابة الّتي يقول رافايِل دائماً عنها إنّها مليئة بالولادة الجديدة وبالوداع.

يمزج النهر والطريق، وكأنّهما حياتان، حكايةٌ تَقَصُّ باتّجاه الماضي وحكايةٌ تُروى أوّلاً. ونرى مشهديّة من الحقول فتمشي عبر المياه الصّافِيَة الّتي تغمر الممرّ الحَصْبائي، تاركين خلفيّة الغابة مع كلّ خطوة.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

العائلة في العَرَبَة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المَنْزِل

تحرّك الكاتب لوسيان سيغورا عبر المروج المُعْشَوْشِبَة والمليئة بالحشرات التّي كانت تقفز في الهواء كلّما اقترب منها. لقد كان يتتبّع طريقاً، وكان العشب عالياً حتّى صدره، وربّما أعلى، فكان يستعمل ذراعَيْهِ في حركة سِباحيّة كي يتقدّم. منذ متى لم يُقْطع هذا العشب أو يُحْرَق؟ منذ جيلٍ أو أكثر؟ منذ كان صبيّاً؟

وبعد عشر دقائق وقف بلا حراك وسط رُهاب الإحتجاز ووسط الحرارة. ولم تكن لديه فكرة إلى أيّ مدى ووقت عليه متابعة الحركة كي يتخلّص من الرّهاب واللّهيب. وبدا هناك مكان عراء أو خال على بعد ثلاثين متراً، وَوَقَفَتْ هناك بعض الأشجار السّاحرة وبالكاد تتحرّك. وحين نظر إليها رأى، وكاد ألاّ يصدّق، طاووساً يطير فوق المرعى الخشن وسطحه الشّبيه بالبحر. وصل الطّائر واستقرّ في ظلمة إحدى الأشجار وتخفّى شكله الأزرق كغصنٍ أفقيّ.

وكانت إحدى أشهر قصائده منذ أيام شبابه تدور حول طائر غريب يستوطن المنحدرات، فكانت قد حُفِظَت وشُرِحَتْ وقُشِّرَت في المدارس حتى لم يبق شيء سوى عظمة الحلق والمنحلب. وكانت الأسطر بالنسبة إليه مهزلة. ولم يكن هناك في الواقع طائر نادر كهذا في

Twitter: @ketab_n

شبابه. ولم يكن قد طار أيّ طائر عبر حقول زوج أمّه. لكن الآن فجأة وُجِدَ طائر كحقيقة.

وتمنّى لو أنّه كان يعتمر قبّعة، كما أنّ القميص الذي كان يرتديه غير مناسب لهذا العمل. وكان ببساطة قد بدأ يمشي في الحقل كجزء من استكشاف قصير لعقار قد يشتريه. وكان المنزل معروضاً مع ممرّ رسمي لأشجار السّهل وبضعة هكتارات من الأرض المهجورة. وبدأ بالحراك إلى الأمام ثانية وكونه غير قادر على رؤية ما تحته، وقع متعثّراً بشيء خشبيّ كمقعد أو مِضَخّة. نهض على ركبتيه مُبْعِداً العشب ليكتشف أنّ الشيء كان قارباً خشبيّاً. وتكثّف صوت الحشرات حوله، فَشَعَرَ بالوحدة أكثر.

قبل ثلاثة أسابيع، كان قد ترك منزله قرب مارسيلان، والّذي كان زوج أمّه قد أوصى بِهِ لأمّه وبعدها أوصت به أمّه له، لكنّه هجر زوجته وعائلته. كان لوسيان سيغورا يقطع منطقة غرس في عربة يجرّها الخيل، باحِثاً عن منزل جديد. وكان بين الحين والآخر يُصْعِد معه بعض المسافرين كي يتخلّص من صرامة الوِحدة الجديدة. وكانوا من مختلف الأعمار ومن كل مشارب الحياة، زرافات ووحدانا، وكان بعضهم يتأرجحون على العربة مع ولد أو ولدين وكلب. وكان يحادثهم بانفتاح كما كان دائماً يفعل مع العزباء، فسمع قصص الغابات الّتي كانوا قد عملوا فيها وقصص المستوطنات قرب الأنهر والحدائق التي اعتنوا بها لقاء أجر أسبوع. وكلّما استمع، دخل عوالمهم غير المرئيّ.

وفجأة ذات يوم قفز لوسيان سيغورا عن العربة سائِلاً العائلة الّتي كانت تسافر معه أن تبقى مع حوائجه. وبدأ السّير ببطء وكأنه جندي عبر

Twitter: @ketab_n

الممرّ الرّسميّ للأشجار ووجد منزلاً مُغلقاً على مصراعيه. كسر القفل بحجر ثقيل ودخل الرّدهة المليئة بالضّوء المُغبِر. قاده باب إلى المطبخ وآخر إلى غرفة الطّعام. وسار عبر الرّواق الخاوي غير ناظر إلى الغرف، ووصل إلى الباب الخلفي فدفعه متحرّراً من القبضة القديمة ثمّ خطا نحو الحديقة وما وراءَها نحو أعماق العشب العالي.

جاثياً على ركبتيه، تلمس الكاتب العجوز الألواح المثقوبة للقارب المهجور والذي كان نصف قارب بحجم سرير طفل وبنصف الخشب الطّوف ومع فراغ بين الألواح. وكان هناك بقايا ما يشبه القيد لمسند المجذاف على الجانب فضلاً عن ذنب الدّفّة.

لقد كان القارب شيئاً مجففاً تماماً خُبِزَ لسنوات تحت الشمس واستعملته الحشرات كنفق لعدة سنوات لكنّه عانى احتمال وجود ماء في مكان قريب، وما إن افترض ذلك حتّى بدأ يشتمه في الهواء فوقف رافِعاً وجهه نحو السماء. وانطلق مسرعاً نحو الأمام وفي خلال لحظات وجد نفسه أمام بحيرة صغيرة. خلع ملابسه وانسلّ في الماء الذّي غطّت برودته ندوب الرّجل ولسعاته.

لقد اعتُبِرَ معظم حياته مستوحداً. وَصَفَه مرة أحد المعارف "صَعباً كالدبّ"، وأُسقِطَت هذه الصورة القاسية وغير المهذّبة على العالم المحيط به، فكانت مفيدة بقدر ما كانت خاطئة. إذ إنّها أعْطَتهُ فُسْحَة مكانيّة وحدوداً. لكنّ الحقيقة تبقى بالرغم من الوضع المجتمعي - السِّربي لعائلته، فإنه عاش معظم الوقت حياة متخيِّلةً. فعندما بدأ زواجه يحتضر وجد في مكان ما من طيّات ذاتِهِ كلوديل المغناج، فألَّفَ ثلاثة كتب عن حياتها المتشعّبة. لقد أمّنت الفتاة الخياليّة له الصّحبة. وإذا كان

Twitter: @ketab_n

هذا الأمر يُعَدّ مرضاً أو انحرافاً، فهو مرض ساعده في التّغلّب على ذاك الزّمن الصعب. فلم يكن ليحطّ من قَدْرِها. وبقي مخلصاً لهذه الإنسانة في مدينة أوش الّتي ابتكر مصيرها وأشرك به قرّاءَهُ. وأحبّها البعض منهم وكتبوا له الرسائل وكأنّه كان يعرفها في الحياة الحقيقية وليس في الخياليّة فقط.

"سيدي العزيز -

ذَكَّرتُ نفسي مؤخراً بعشاء تكلّمت فيه كلوديل روذير مع أختها عن مربّى التّين وكانتا تحبّانه.

لذا أبقيت لك وعاء صَنَعَهُ صديق يعيش في ريف كاهور. وآمل يا سيدي أن تستَذْوِقَهُ.

مع خالص تمنيّاتي، ساره س."

استلم لوسيان هذا الطّرد أياماً قليلة قبل مغادرته مارسيلان، وكان بين الحين والآخر يعيد فتح الرّسالة، أثناء رحلته، ليقرأها برصانتها ولُطفها وكأنّها كانت رسالة حبّ. وكان قد جلب معه مربّى التّين، فكان خلال فترات بعد الظهيرة يفتح الوعاء بالرّصانة نفسها ليتشاركه مع كائن من كان في العربة معه، ومؤخراً مع ثلاثة مسافرين - لصّ عتيق، كما دعا الرّجل نفسه، وزوجته الأصغر منه وابنهما. وكانوا قد بقوا معه لعدّة أيّام فكان لوسيان قد اعتاد عليهم. ومثله كانوا يبحثون عن موطن أو مسكن جديد، فكانت رحلتهم شبيهة برحلته. فأعلن "هذا مربّى التّين، وقد صَنعَتْهُ سيِّدة من كاهور."

وتظاهَرَتْ عينا الولد الصغير في البداية بأنّهما كانتا تحدّقان في اللاّشيء، ككلب زائف التهذيب. ثم راقب مسحة السكين للمربّى،

Twitter: @ketab_n

وكذلك الكلب راقب الكبار يأكلون أوّلاً، مُبتلِعاً حينما ابتلعوا، وذلك كي يشعر بأنه تناول ثلاثَ قطع منه قبل أن يلتهم حِصَّتَهُ.

وكان اللّص يختفي في الصباح قبل أن يستيقظ الآخرون ليعود ظهراً مع توت العُلّيق والأعشاب الطّازجة وأحياناً مع أرنب بَرّي. وكل هذه كانت تُنقَذُ، كما كان يسمّي فِعْلَتَهُ، من الحقول المحيطة بهم. وعندما كانوا يصعدون مرتَفَعاً، كانوا يشمّون بداية دخان النّار ثم يرونه قربها، طاهِياً الأكل بجانب الطّريق. وكانت لديه بقايا لحيَة رماديّة خَشِنَة تجعله يبدو مفكّراً، وكأنّه اعتاد على الحركة الكسول. غير أنّه كان باستطاعته الاختفاء في برهة أو الوصول بالسرعة ذاتها مؤمِّناً الغداء في الهواء الطّلق. وشعر لوسيان نتيجة لذلك أنه هو المسؤول عن الوجبات الأخرى ـ المشروب أوّلاً، ومربّى التّين في الرّابعة بعد الظهر، ومن ثمّ العشاء الذي كان يشتريه من إحدى الحانات أو الفنادق في القرية التي كانوا يمرّون عبرها.

وكانت العربة تتوقّف كلّما اشتمّ لوسيان إمكانيّة توفُّر منزل ما. فكان يتحدّث مع سعاة البريد والنجّارين عمّا إذا كان من منزل مزرعة مهجور معروضاً للبيع. وفي تلك الأثناء كانت زوجة اللّص الصغيرة تنطلق على الحصان الإحتياطي، وولدها راكبٌ خلفها، كي تبحث على الطرق الجانبية عن مستقرّ محتمل لعائلتها. لقد كانوا ثلاثتهم مسافرين رحّالة، غجراً تركوا قافلتهم في الجنوب مُتّجهين شمالاً كي يجدوا منزِلاً جديداً. وكان لوسيان يدرك أنهم قد يلتفّون في أيّ لحظة مقرّرين البقاء في حقل مجهول. وكان قد بدأ يشعر مُسْبقاً أنّه سيشتاق إليهم، إذ كان يستمتع بصحبة الرّجل وغناء المرأة في الصّباح. وسألها ما الذي أتى

Twitter: @ketab_n

أولاً، إسمها آريا أو سعادتها في الغناء؟ وكان زوجها يجيب "من يعلم فهي من رومانيا حيثُ لديهم الكثير من الأسماء للشخص الواحد. أمّا الإسم السّرّي والذي لا يُسْتعمل أبداً رغم كونه الإسم الأصحّ، فأمّها وحدها تعرفه وهو مُخَبّأ لإرباك أرواح ما وراء الطّبيعة ـ فهذا يخفي عنها هويّة الولد الحقيقيّة. أمّا الإسم الثاني، وهو إسم روماني، فهو يُسْتعمل عادةً. هذا الإسم هو آريا.

وما اسمُكَ أنتَ؟ سأله لوسيان.

لسْتُ برومانيّ، أجابَهُ الزّوج. أنا ببساطة أَلْصقْتُ نفسي بها، فأنا أعيش في عالمها. أنا لستُ مهمّاً.

كانت العائلة كلّها تشعر وكأنّها في حلم، خاصّة من الطّريقة الّتي كان كلّ منهم يتوهُ بنَزْوَة وغرابة، الرّجل في الصباح والمرأة وابنها بعد الظهيرة. وكان لوسيان أحياناً يسير في المقدّمة، جاراً الحصان ومتحدّثاً عن شيءٍ ما، وكان يدرك فجأة أنّ ما من أحد آخر معه. فقد كانوا ينسلّون وكأنّهم في قارب ويتجهون نحو أشجار الحَوْر تلك.

ـ كلاّ، ليس لديّ إسم ثابت، أجاب الزوّج عندما سُئِلَ ثانية. أعرف اللّغة الرّومانيّة كفاية كي أعيش، لكن... كانت تعابيره نصف صادرة عن القلب وغير مُقْنِعَةٍ. وكان يبدو غير متأكّد من كلّ الأشياء، فكان ممتنّاً أن يعيش في حالة متواضعة كحالة عصفور الدّوري. أمّا الصبيّ المُسمّى رَفايل فكان يتوق للمعرفة والدّروس العمليّة كما كان يسأل باستمرار عن آراء الكاتب العجوز. وبسبب ذلك افترض لوسيان أنّ الوالد قد يكون غيوراً، لكن تبيّن أنّ الرجل كان سعيداً جدّاً وهو يستمع إلى نقاشاتهما بينما كان يتظاهر بأنّهُ لم يَفْقَهْ منها شيئاً.

Twitter: @ketab_n

ومنذ البداية اعتبر كل رجلٍ الآخر بمثابة مرآةٍ له، وكان كلّ منهما يلتقط، مرّتين أو ثلاث، نظرة الآخر. حتّى أنّ آريا لاحظت وجود الصّدى بينهما. وكانا يشبهان بعضهما جسديّاً. ورغم شهرة الكاتب المفترضة فقد كان لديه تردّد جَعَلَهُ حَذِراً كهذا الأَشدّ خَجَلاً بين اللّصوص، هذا إذا كان الرّجل لِصّاً. إذ لَمْ يشهد لوسيان أيّ عمل له غير قانونيّ. وفي حين أنّ الكاتب كان أكبر عمراً فإنّ زوج آريا هو من كان خارج هذا العالَم بملاحظاته الخارقة ومواهبه اللاّمرئيّة وطرقه المُمْحاة. ومرّة التقط لوسيان كتاباً كان اللّص قد قرأ منه فوجد في طيّاته غُصيناً من عشبة الإفْسِنْتين يُسْتَعْمَلُ كمؤشّر لصفحات الكتاب. وكان هذا الشيء الوحيد المؤكّد عن الرَّجل، ومنذ ذلك الوقت كان الكاتب، كل بضعة أيّام، يراقب بعناية تقدّم العشبة في شَقِّها لِرِحْلَتِها عبر حَبْكَة الكتاب.

وقال اللّصّ مَرَّةً، "ذَهَبْتُ إلى الحرب ولم أعد منها أبداً، وكان حينها يعبُرُ حَقْلاً مع الكاتب.

كان هذا التّعبير الأكثر ذاتِيَّة يَكشِفُ هذا الصَّديق الجديد، وأتى كتجاوُب مع حديث الكاتب عمّا شاهده في الحرب السَّابقة.

ما اسمُهُ؟ سأل لوسيان الزّوجة في ذاك اليوم الأوّل الذي صَعَدتْ فيه العائلة في العَرَبَةَ.

عليكَ أن تسألَهُ ذلك، أجابَتْهُ. كان ذلك بداية التهرّب من الإجابة.

لا أستطيع أن أدعوكَ لِصّاً طوال الوقت. بالتأكيد أستطيع الإعتراف باللّقب عند الحاجة، لكنّي بحاجة إلى إسم.

أوغست؟ بيلوك؟ ليارد؟ إنتَقِ ما شئت.

حسناً، فليكن ليارد.

Twitter: @ketab_n

أبقى نكتة الرّجل لذاته، فقد كان يحبّ القلب الطيّب، واستُعْمِلَ اسم ليبارد لفترة، الأوّل بين عِدّة أسماء مستعارة. لكنّ لوسيان نسي في النّهاية معظمها. لكن ما يتذكّره هو أنّه في كلّ أوقاتهما معاً نادراً ما رأى ليبارد يأكل، حتى ولو كان قد طَبَخَ للتوّ ـ وجبتهم. وإذا ما ذَكَرَ لوسيان ذلك، كانت آريا تهزّ بكتِفَيها وكأنّ ذلك تفسير، وكأنّها تقول بذلك، الرِّجال.

وفي كلّ عشيّة خلال الرّحلة كانوا يَصِلون إلى حانة أو فندق حيث كان الكاتب يقدّم لهم وجبة الطعام؛ وفي حين كان يبيت هو هناك كانت العائلة تخيِّم في الحقول. وكان جوّ الرّيف والرحلات يجلب الشهيّة للنّوم. لكنّ لوسيان سيغورا استيقظ ذات ليلة غير مدرك لمكان وجوده. شعر بالإختناق فرمى أغطيته عنه وفكّ ازرار قميص نومه متوجِّهاً نحو النافذة. وهناك في الظّلام رأى ليبارد يتمشّى بمحاذاة حائط ضيّق يمرّ على أحد جوانب حديقة الفندق. وكان ضوء القمر كافِياً لِلُوسيان كي يلاحظ وجود رفيقه في السّفر يقوم بهذا العمل الغريب في منتصف اللّيل. ضرب له كَفَّيْهِ فتوقّف ليبارد ونظر إلى الأعلى ثم لَوَّحَ له ببطء. وَوَضَعَ لوسيان معطَفَهُ عليه وَدَلَفَ خارجاً. وبدآ بالكلام بهدوء، فأخبر اللّصَّ أنّه لم يكن باستطاعته النّوم. فأجابه الآخر، إذن ليس عليك أن تنام، فالظلام لديه ساعات عدّة فعّالة، ومن عبث الزمان وهدره أن ننام خلال هذه الساعات.

ـ أنا بحاجة لمساعدتِكَ يا صديقي.

وصمت ليبارد فوراً وكذلك فعل لوسيان، منتظِراً إجابته على تصريحه الدّراماتيكي. لكنْ لم يكن هناك سوى الدعوى إلى الكلام

Twitter: @ketab_n

الموجَّهَة من صمت الرّجل. وأكمل لوسيان بعد لحظات. أريدُكَ أن تقتل لي شخصاً. صمت آخر. أُحِسُّ أن زوجتي قد أصبحت كابوساً، فهي سوف تحطِّم أولادنا وأشعر أنّها ستسكنني لبقيّة حياتي.

ـ وأنا لديّ زوجة أيضاً، في حياة أخرى. (وكان ليبارد يتحدّث بحذر وكأنه مدرك أنّ هذا الكلام قد يؤخذ لاحِقاً). هناك وسائل أخرى لوقف ملازمة زوجَتِكَ لَكَ على النحو المستمر المزعج. أوافق أنّ الرجال والنساء يسكنون بعضهم البعض، لكنّ أولادكَ سوف يهتمّون بذواتهم. إنّ المشكلة أو الصعوبة لا تكمن في القتل، فالأصعب هو أن تسرق دجاجة صحيّة لتطبخ وجبة جيِّدةً. لم يعد هناك مهارة في القتل، إذ إنّ المنازلة ليست متكافئة؛ أضف إلى ذلك أنّها قد تدمِّرك. فأنتَ تكون قد خَسِرْتَ أو فقدتَ عَقْلَكَ. ولربما يكون تنفّسك أو الشعور بالإختناق مرتبطاً بهذا أو قد يكون سبباً له. أستطيع أن أخبرك عن عشبة ـ"أبو العِرق"ـ تشبه وردتها نجمة زرقاء صغيرة وهي مفيدة لِقَلْبِكَ. وسوف تهدِّئكَ، وتستطيع وضع البعض منها....

ولم يكن لوسيان قد فكّر بزوجته الصّعبة المِراس والمتروكة، وذلك لمدّة أسابيع. فرأى من العجيب أن تكون قد ارْتَقَت فجأة إلى سطح أفكاره كعدوّة في تلك اللّيلة. وشعر بالإحراج أنه قال هذا الشّيء إلى غريب لم يعرفه سوى لأيّامٍ معدودة. وفكّر بأنّه ربّما مازال في حلم أو نصف نائم.

سامحني تمتم قائلاً.

لا، فلي الشّرف أنك وَثِقْتَ بي لتستودِعَني هذا الإحتمال، ردّ عليه الصوت الهادئ. ولم يضحك لوسيان كُلّياً، بل ابتسم في الظّلام.

Twitter: @ketab_n

إنّه الصّباح التالي بعد الإنتهاء من مربّى التّين. هكذا يتذكره الولد رافايِل. في ذاك الصباح، مباشرة بعد عبورهم قرية ديمو، وجدوا منزِلاً للكاتب. كانوا يستريحون في مؤخّرة العربة ـ الكاتب والولد وأمُّهُ ـ عندما شعروا بالعربة تتوقّف لتقطع عليهم إيقاع التنويم، وكأنّهم توقّفوا عفويّاً على شفير الجُرْف. وكان والد الصبيّ يجلس في الأمام مع الحصان، مُلتفتاً بصمت نحو اليسار. ما استثاره هو غياب العناية عن ذاك الممرّ بين الأشجار. إذ إنّ العشب كان لم يُنجَزْ لمدّة أشهر، كما كانت أغصان الشجر المُنْبَسِط متداخِلَةً مع الأطراف المتعاكسة. جلس الكاتب وتبع النّظرة المحدّقة. "أجل، ربّما"، قال. "ربّما. هلاّ انتظرتَ هنا؟" فكلّ التحقيقات الأولى عن المنازل المُحْتَمَلَة كان يجب أن يُتِمَّها منفرداً. فالعائلة في العربة لا تستطيع أن تختار منزلاً للرّجل بقدر ما كان هو غير قادر على اختيار الحقل المناسب للعائلة ـ فهو لم يكن يعرف مثلاً أنّه يجب أن يحتوي على عددٍ من مخارج الهروب كي يشعروا بالأمان.

إنّ إيجاد منزل نهائي للأيّام المتبقيّة لشخصٍ ما هو مثل اتّخاذ قرارٍ ما في الحكايات الخرافية، حيث على الأمير أو الأميرة أن تختار شريك زواج قبل قدوم الشَّفَق. وعلى الرَّغبة أن تكون خاصّة بقدر ما هي حكيمة، وقد عرف المرء ما هو بحاجة إليه بِصِدْق، رغم أنّ ذلك قد يبدو للوهلة الأولى مُرَوِّعاً ـ فتاة عمياء بدلاً من سَيِّدَة قَصر، جِنّيّاً بَدَلاً من طالب زواج من النّبلاء. وليس بمقدور العالَم الخارجي أن يعرف أفضل من ذلك. وهكذا بَقِيَت العائلة في العربة وهي تَرْقُبُ الكاتب وقد نَفَضَ رِجْلَيْهِ كي يزيل حِدّة النّوم وكي يبدأ مِشْيَتَهُ الشّابة والحَذِرَة، فَجأةً، باتّجاه المنزل المُحْتَمَلْ.

Twitter: @ketab_n

آستولف

وبعد يومين من شراء الكاتب التسعة هكتارات من الأرض المحيطة به، دخل الرّجلان لوسيان وليبارد، العشب المرتفع حتّى الصّدر حامِلَيْن المناجل. وخلال دقائق، كانا قد اختفيا عن بعضهما. وفقط إذا توقف أحدهما كان باستطاعته سماع حركة الآخر، أو حركة الشّفرة الحادة غير المتوقّفة، أو، خلال لحظات صمت أطول، شَحْذ معدنها بواسطة الحجر. وكانا يبدآن قبل الفجر، حين يكون الجوّ بارداً ونصف مُظْلِم، وحتّى في ذلك الوقت كانت الحشرات الطّائرة ترتفع في الهواء لتحيط بهما. وكانت مناجلهما تحصد فوق الأرض لتتجنّب الحجارة والجذور. وكان من الأسهل حقاً لو أحْرَقا العشب. لكنّ ليبارد، الذي كان يساعد لوسيان في حملته لاستعادة الحقل المكسُوّ عِشباً، أَصَرَّ على أنَّ المَرْج بحاجة للنّمل ولِصَرّار اللّيْل الّتي قد تفقد حياتها في حريق كهذا. إنّ الزّحمة غير المرئيّة كانت ضروريّة، وقد يتوق الكاتب إلى ذاك الصّرّار في العشب أو إلى ذاك الزّيز بين الأشجار في المستقبل.

واقتلعا جذور العِنَبِيَّة القاسية من الأرض وأحْرَقا الكروم مع العشب المقطوع على أطراف الحقل، ثمّ فَلَحا التُّربة وبدآ بنثر الجذور حتّى تستطيع بكتيريا الخَرْدَل والبِرْسيم أن تستقطب في النهاية النِّيتروجين. وفي الغَسَق، كانا يسيران إلى أرض الغير فيجمعان البذور ويعودان مع

Twitter: @ketab_n

بنات القرنيّات ليوزّعا تلك العائلة من الفاصوليا والبازيلاّ على أرض الكاتب. "وَلِمَ لا؟" سأل ليبارد الذي كان يشبهُ كمسافر البِذرة المنثورة أو النَّخلَة في نواحٍ عدّة.

ولقد عرف ليبارد ما يريحُ المخلوقات الطّائرة بما خصّ المسكن. فلم يقترح فقط بناء بيوت للطيور بل حفر ثقوباً في ألواح الخشب للحشرات الطائرة. جمع دوّار الشمس وقسّم جذوعها ليربطها إلى الأغصان كي يخلق منازل لحشرات البقّ. وحشر التِّبن في جِرار صغيرة كي تستعمله حشرات أمّ "أربع وأربعين" التي تقتات بطبيعة الحال يَرَقات البقّ التي تهاجم فاكهة الأشجار. وكان مُدْرِكاً للتّوازن الأخلاقي المُرْبِك الموجود في الطّبيعة التي تُعطي وتأخذ. تضع الدّبابير بيوضاً تأكل يرقات الفرشات لأنّ الدبابير أفضل لحياة النّباتات من المجنّحات الجميلة. تماماً كما كان يُدْرِكُ ليبارد أنّ الغنى الخَمول في الطبقة المجنّحة هو الذي يدفعه وغيره إلى أن يكون دنيء الروح. وفي لامبالاته، كان يعرف شيئاً أو شيئين عنها ـ نتيجة لمراقبته ومشاهدته عبر السنين، بداية في المدينة والآن في الحقول. رغم أنّ ليبارد لم يكن يُعْلن أبداً أنّه رجل أخلاق، فهو قد ينحرف بسبب ريشة طائر.

وفي اليوم الثاني على مسافة من منزل الكاتب، إكتشف الولد حقلاً مليئاً بالمخارج. وعندما سمع بذلك، إقترح لوسيان على العائلة أن تخيِّم هناك إذا رَغِبَتْ بذلك. وقبل أن يقدِّم لهم العَرْض كان قد أخبرهم أنّه سيعطيهم حقلاً بدون أن يوحي أنّه بحاجة للصّحبة. ربما لن يتكلموا كثيراً ثانية، لكنّ لديه كفاية من الهكتارات وليس من المحتمل أنه سيقوم برحلة ما وراء البحيرة الصغيرة. والحقل المقصود على مسافة وراء ذلك.

Twitter: @ketab_n

وكان اقتراحه كالآتي: إذا ساعده ليبارد على تنقية الحقل المكسوّ عشباً قرب المنزل وعلى تشذيب المرج تحت شجر الكستناء الممتلئة أغصاناً، فباستطاعته وعائلته أن يبقوا على تلك الأرض قَدْرَما رغبوا بذلك. وأظهر لوسيان استعداده لتوقيع أيّ وثيقة رسمية إذا رغب ليبارد بذلك، لكنّ ليبارد أشاحَ بذلك الإحتمال بعيداً. فهو لا يوافق على وَضْعِ القلم على الورقة ـ فهذا الأمر والحوار الطويل طالما وَرّطاه في المشاكل سابقاً. وحين كانا يتكلّمان، في ملاحظة أثناء الحديث، أعلن ليبارد أنه سيتخلّى عن الإسم الذي كان يستعمله وهو الآن في طور استخدام اسم آستولف.

وفي خلال ساعة بدأ الولد الذي كان معتاداً على هذه التغييرات بمناداة والده آستولف. وأدرك لوسيان أنّ الرّجل يستعمل الأسماءَ كَكَلمات مرور، مع فارق زمني قصير بين الكلمة والأخرى. لكن هذه المرّة تمنّى لو أنّه امتلك ذاك الإسم باكراً في حياته. أمضى اليوم الأوّل متخيّلاً لحظات من ماضيه كان يمكن أن يكون فيها آستولف بحيث كان بمقدوره التصرّف والمشاركة بسهولة ودقّة أكثر لمجرّد كونه حامِلاً لهكذا إسم. وأدّى ذلك إلى نوع من إعادة النّظر في السيرة الذّاتية قد يقوم بها رجل عندما ينظر إلى صُوَر زوجته أو حبيبته في زمن سابق حيث تكون في مراهقتها أو شبابها الأوّل، فتأتيه الرّغبة في أن يكون قد عَرَفَها في ذاك الوقت الغابر ـ فيكون ربّما قد فَكَّ بعنايَةٍ الأزار النّاعمة لذاك الفستان المنتمي إلى عَقدٍ ماضٍ، أو ربّما استطاع أن يتذوّق تلك الثّمرة في الشّجرة المُزْهِرَة خلفها... وأحبّ اللّصّ صوت اسمه وتأثيره وجوّه مع ترداد لصداه. فَبِهَكذا إسم من الممكن جِداً لهذا الرّجل السّمين أَنْ يصبح طائراً خفيفاً أو شكلاً ناعِماً.

Twitter: @ketab_n

راقَبَهُ الكاتب مع الكتاب العابق بالأفسنتين على حضنه. لقد ظهر اسم آستولف في القرن السادس عشر في كتاب أورلاندو الغاضب. فكيف حصل عليه هذا الرّجل؟ هل يكون قد سرق هذا الكتاب في الماضي؟ وهل يسرق اللّصوص حتى الكتب؟ وكيف استطاع جمع هكذا أشياء في جيوبه؟

Twitter: @ketab_n

رحلة

بينما كان الرّجلان يعملان في الحقول، توجَّهَت آريا مع الصبي نحو الجنوب، حيث كانوا يعيشون سابقاً، وذلك كي تستعيد عَرَبَتهم. ودامت رحلتهما على الحصان عدّة أيّام عَبَرا خلالها مِرْوَحَةً من الأنهار ـ الآردور والبايس والجيمون. توجّها جنوباً ثمّ شرقاً، عابِرَيْن الأراضي الخصبة. وفي المساء الرابع وصلا في الظُّلمة إلى ضواحي سانت مارتوري حيث كانوا قد تركوا أحصنتهم وعَرَبَتهم. وكان هناك نار المخيّم والموسيقى، فجلسا يتحدّثان إلى الآخرين لساعات قليلة ثمّ ناما في سريريهما المألوفَيْن الضَّيِّقَيْنِ. وفي اليوم التّالي اقتلعا من أرضهما الأعشاب والنّباتات التي تستطيع البقاء طوال رحلة العودة إلى ديمو، إلاّ أنّهما تركا بعض الأغراض والممتلكات خلفهما.

وحالاً كانا يتوجّهان شمالاً، عائِدَيْن من طريق مختلفة لأنّهما بسبب العربة المتمايلة كانا بحاجة إلى طرق عريضة. لم يَعُد باستطاعتهما سلوك طرق مختصرة عن طريق فتح البوّابات لعبور الحقول، كما لم يَعُدْ بمقدورِهما السّير في الجداول العميقة، إذْ ليس بمقدور الأحصنة أن تجرّ الوزن الزّائد عبر الأتربة الرّملية. كانا متّجهين صوب بليزانس، ومن هناك سوف يتركان صحبة نهر الآروس ليستديرا غرباً.

أخذا وقتهما فتوقّفا حيثما أرادا. وكان رافايل يُضرم النّار فيما تجول

Twitter: @ketab_n

آريا الحقول باحثةً عن أشياء صالحة للأكل. بصلة أو اثنتين، نبات إكليل الجبل العَطِر، ونبتة الكرّاث. فكان الغداء مجموعة من النّباتات الصغيرة والبراعم وكأنّهما عصفوران جمعاهما وهما ينطلقان ويغوصان في الحقول. وبالكاد كان الطعام يبقى على لسانَيْهما. وعند انتهاء الوجبة وإذا كان النّهر أو الجَدْول يتمتّع بخصوصيّة كافِيَة، كانا ينزعان ملابسهما ويسبحان. وكانت آريا مصمِّمة ألاّ يخاف رافايِل أبداً من المياه كما يفعل والده، فكانت تضحك عندما كانت تركض أسفل الضِّفَّة ثمّ تبتسم له عندما تعوم فوق النَّهر. لم تكن تريد ولداً خائِفاً.

وسبح الولد نحو ذراعيها وعانقها، مقبّلاً كَتِفَيْها. كان هناك انغماس حِسّيّ بينهما كما كانت عاطفة حاضنة بين الولد وأبيه، وعندما عاد إلى اليابسة حَنَتْ رأسَها وجَفَّفَ لها شعرها الأسود الطويل بقميصه.

وفي بعض الأحيان خلال رحلتهما كانت تهبّ عواصف عظيمة في اللّيل قادمة من الغرب، من المحيط وذلك قرب سيغالاس في بوزون. وعندما كانا غرب سانت جوستينِ أضاء البرق النّهر وكأنّه مَعْبَرٌ في التاريخ، فَأَمْسَكَتْ بالصبيّ لتمنعه من القفز وسط جماله القصير. كان فَصلاً من العواصف. وتخيَّلَتْ الكاتب العجوز في ديمو يحاول بلا جدوى أن يُقْنِعَ زوجها بالمبيت في ذاك المنزل الخاوي بِمُجْمَلِهِ.

وَأَبْقَتِ المرأة وابنها العَرَبَةَ في وسط الحقول المفتوحة وَأَبْقَيا الخيول طليقةً. لكنّها بالكاد تحرّكَت رغم ذلك، وكأنّها تتظاهر أنّ ما من خطر أبداً، وأنّ ذلك أكثر أمْناً من العَدْوِ في الظّلام. وكانت هناك أمسيات يقف فيها آريا ورافايِل على عشب اللّيل الجافّ وفوقهما مئات الطّبقات من النجوم، لا تحصى ولا تُعَدّ وكأنّها ملايين الفِرَق الأوركسترالِيّة:

Twitter: @ketab_n

وبالكاد استطاع الولد أن يجمع المعلومات الهذيانيّة. ولقد قامت تلك الرّحلة جنوباً مع أمّه والعودة شمالاً بِفَطْرِ قلبه مرّةً تِلوَ الأخرى بالسّعادة. لقد شعر بوضوح كلّي أن لا تمييز بينه وبين ما يتخطّاه ـ كتنهيدة شجرة أو غناء أمّه اللّذين على ما يبدو قد ينبعثان من جسده. تماماً كما أنّ أيّ إشارة يُصْدِرُها كانت عملاً يؤدّيه العالم حوله.

كانوا عدة أميال شمال بليزانس عندما وقف الكسوف فوق منطقة الغيرس. دخلت الظّلمة سريعاً إلى فترة بعد الظهيرة، وكان رافايل حينها يرفع دَلْواً إلى حصان عصبيّ كي يشرب منه. وأدرك وجود الظّلمة فقط لأنّه أحسّ بالبرد المتزايد. إستدار فرأى أُمَّهُ تنظر إليه بقلق. وبدأ المطر الرّماديّ بالتّساقط في الضّوء الخفيف، رغم أنّ الرّيح هي التي أَرْبَكَتْ كلّ شيء، مقوّسةً الأشجار إلى الأسفل حتى حامت بطريقة موازية للأرض. ورأى عين الحصان تتراخى، مُتَحَيِّرَةً أمامَهُ وكأنّه هو أيضاً جزء من الطبيعة الغريبة تلك لم يكن يعرف ما هو الكسوف. وظنّ أنّه قد يكون نوعاً من الإنتقام الذي يأتي في نهاية العالَم. كان مُمْسِكاً بِرَقَبَةِ الحصان، باحثاً عن حبل كي يعطيه الأمان، لكنّه لم يجد واحداً فتشبّث بشعر رقبته بِيَدَيْهِ. وإذا أَفْلَتَ الحصان فلن يجدوه أبداً، وعندَما بدأ الحصان بالدّوران رمى بنفسه على ظهره وفي اللحظة ذاتها صرخت أمُّهُ "لا"! وانطلق الحصان بين الأشجار في قلب الظُّلُمات والولد على ظهره.

أحنى رافايل برأسه قرب رقبة الحصان جاعِلاً من نفسه عيني الحصان وشاهداً على خيارات التوجّه السّريعة. ولم يكن تحته سُرْجٌ فتشبّثَ بالمخلوق المغلّف بالرّطوبة مع كلّ تعثّراته وانعطافاته حتّى وصل

Twitter: @ketab_n

إلى حقل واسع حيث بَدَت السماء أكثر ضياءً ممّا هو الحال تحت الأشجار. وزاد الحصان من سرعته ورمى بنفسه في العراء. واستطاع الولد سماع تنفّسه بمحاذاة تنفُّس الحصان كما استطاع سماع الحوافر على العشب العالي وَصَلْصَلَتها المفاجئة على الجسر الخشبيّ بعد وَقْعِها الأخرس على الأرض. وكان يتعلّق بدماء الحيوان الدّافئة. وربما في خلال دقيقة ـ إنّ الزمن كان بلا قياس حينها ـ كانا قد مرّا عبر قرية حيث لم يتحرّك سواهما في السّواد. وَمَسَحَتْ ساقَ الصبيّ عربةٌ كما مسحت بعدها ولداً، وبعد أن عبرا القرية حطّا في الحقول بجانب النّهر ثانية. ثم بدأ الضّوء بالعودة ببطء ولفّتهما الحرارة مرّة أخرى فوق العشب الرّطب. وبدا الزّمان في حالة مكسورة. كما بَدَت السّماء حافلة بضوء القمر السّاطع رغم أنّ الوقت كان ما زال نهاراً. هَدَأ الحصان مُدْرِكاً في تلك اللّحظة وجود الرّاكب الخفيف كذُبابَة وقد التصقت ركبتاه به كما كانت ساقاه عاريتين من زمن آخر، حين كانا هادِئَين تحت الأشجار وقد اقترب الولد مِنْه حامِلاً دَلْواً مليئاً بالماء.

وعاد رافايل أدراجَهُ ببطء، حقلاً بعد حقل. كانت كلّها جديدة بالنسبة له. وبحث عن القرية، لكنّ المجتمع الذي دخلوا عليه بهجمة لم يَرَهُ ثانية. وعبرا الجسر الخشبي ثم رآيا أفق الغابة الأسود وحالاً استطاع رؤية أمّه تخطو على حافّتها. لم يُسْرِع الخطى بالحصان. وَنَزِلَ عنه أخيراً مُتَزَحْلِقاً على ظهره الزّلِق. وبالكاد استطاع الوقوف أمام آريا ومع ذلك وَقَفَ فَهَزَّتْهُ ثم عانَقَتْهُ.

Twitter: @ketab_n

صورتان فوتوغرافيّتان

هناك صورتان فوتوغرافيّتان معلّقتان على حائط المطبخ في ديمو. إحداهما صورة لِلُوسيان سيغورا في تلك المرحلة الأخيرة من حياته وقد جلس على مقعد الحديقة مع غصن قائِم يتدلّى فوقه. يتملّك تلك الصورة حِسٌّ من الرّصانة مصحوب بالفوضى المتأتّيَة من مظهر الكاتب الخارجي ـ قميصه غير المَكْوِيّ وشاربه الذي يبدو وكأنّه استُعير من حيوان. لكن ما بدا الأكثر عفويّة هو انفتاح وجهة وكأنّه قد بورِكَ للتوّ. كما كانت هناك ضحكته مثلاً ـ لم يكن هناك محاولة لإخفاء العشوائية المُشَوَّشة أو حتى الفجوة غير المرئِية لِسِنٍّ مفقودة. لقد كان رجلاً حَذِراً اعتاد أن يضحك في سِرِّه.

وعلى الجانب الأَيمن من الصّورة وُجِدَتْ لَطْخَةٌ قائمة كشيء غير مفهوم أو كَرَسْمَةٍ خام مفروضة على ما كانت ستبدو "كانغا" كامِلَة، أو كَوَطْواط في وَضح النّهار وقد التُقِطَ طائراً بين الكاميرا والكاتب. وتلك كانت اللّقطة الفوتوغرافيّة الوحيدة لصديق لوسيان، ليبارد، أو آستولف، والذي خدع المصوّر بِعِراكٍ مفاجئ، إذ عندما سمع المغلاق ينحدر صوب مكانه، إستدار بِسُرعة فائقة بحيث استطاع أن يُذَوِّبَ مَظْهَرَهُ.

أمّا الصورة الأخرى المُلْتَقَطة على ذات الأراضي فَأُخِذَت بعد كلّ تلك السّنوات بواسطة رافايل، إبن ذاك الشخص الضّبابي المشاكس،

Twitter: @ketab_n

وهي صورة المرأة التي التقاها في منزل الكاتب. ولقد استَعْمَلَ كاميرَتَها، أمّا الصورة فقد كُبِّرَت لِتكون بذات الحجم كالصّورة الأولى. بحيث أضْحَت نوعاً ما شريكةً لها.

وفي هذه الصورة أصبحنا أكثر قُرْباً من الشخص المُصوَّر. فمع تقدّم القرن إبتعد التصوير عن المسافة الوسطى بحيث محا المشهديّات والغابات العظيمة والتّلال المترابطة.

والمرأة في الصورة عارية من الخصر إلى الأعلى وهي تتحرّك إلى الأمام على وشك أن تتحرّر من التركيز عليها. والجسد المُسْمَّر عنيدٌ وَضاحِكٌ لأنّها حاكت جذور نَبْتَتَيْن صغيرتين موحِلَتَيْنِ في شعرها الأشقر فبدتا كأنّهما تنمُوان من أَرضِ رأسها المُجَصَّص. وهناك وَحْلٌ رَطِب على فَمِها المبتسم وعلى كَتِفَيْها وذارعَيْها النحيلَتَيْن. وبدا كأنّ طاقَتَها وحِسِّيَّتَها استُخْرِجا من الجوّ المحيط بها. نَنْظُرُ إلى هذه الصّورة فنتخيّل أيضاً الشّخص الحامِل للكاميرا وهو يمشي إلى الوراء بِنَفْس الخُطى الّتي تتبعها المرأة موضوع الصورة بحيث تبقى ضمن نطاق التركيز. كما نستطيع أن نتخيّل العلاقة بين المصوِّر غير المرئيّ وبين هذه المرأة الموحِلَة والضاحكة، والأعشاب حول أصابع يدها تلوِّح له في لذّة جدلِيّة حميميّة. وهذا الشّخص بالكاد يكون آنا.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

المنزل في ديمو

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من أرشيف لوسيان سيغورا، مكتبة بانكروفت، جامعة بيركلي في كاليفورنيا، الشّريط الثّالث.

طوال الأسبوعين الماضِيَيْن بقيت عقارب ساعة الحائط الكبيرة المعلّقة فوق مرايا حانة "لِدارول" تشير إلى الساعة العاشرة وعشرين دقيقة. ولم يكن صانع الساعات وَمُصْلِحُها قد وصل بعد لوجوده في مكان ما في الجنوب يُصْلح الزّمن في قرى جبال البيرينيه الصغيرة. وعندما يصل سيكون معه خِرَق بالية وزيت وأدوات دقيقة وسيحمل الآلة الثقيلة بين ذراعَيْه وسينزل السّلّم يرشده الآخرون ليضعها على طاولة الحانة الرّخاميّة. عن قصد يأخذ مكان العمل الرئيسيّ في المقهى. وما يتبع ذلك يكون طقوسِيّاً. سَيُصِرّ على قهوته المُحْكَمَة وسيتصرّف بِسُلطَةٍ مُفكِّرَة وكأنّه استُدْعِيَ إلى المدينة لِيُصَحِّحَ عيني إبنة المختار الضّعيفَتَيْن. وَسَيُبَلِّل أعلاماً صغيرة من القماش في سائل من الزّيت ثم يُدْخلها بملاقط في الأعماق غيرئيّة للسّاعة العملاقة...

إنّهم لَجِنس غريب صانعو الساعات هؤلاء وبعضهم بالتّأكيد لا يتعاطف مع أحد خلا الآلة التي ستبدأ دورة الحياة، كما أنّ بعضهم غير متأكّد من شيء كما الشعراء مع موهبتهم. ولأنّ زوج أمي الثّاني كان واحداً منهم فإنّني دَرَسْتُ طبيعتهم. صانع الساعات الأوّل لديّ لم يشعر

Twitter: @ketab_n

أبداً أنّ موهبته شيء مُمَيّز. كانت هناك إجراءات قليلة يجب تعلّمها؛ وبين الفَيْنَة والأخرى كان الإيطاليّون أو البلجيكيون يصنعون شيئاً يَقْلِب السّبب والنتيجة، لكِنّه لم يشعر أنّ ذاته مختلفة بأيّ طريقة عن جُنَيْناتي السّوق عندما كان يتكلّم عن عَمَلِهِ. كما أنّني تَعَلَّمْتُ منه عاداتي الحذِرَة وغير الحَذِرَة في عملي الخاص. فأنتَ قد أُعْطيتَ مهنةً لا موهبة وليس من الضروري أن يكون هناك جِدّة أو غموض في خدمة هذه المهنة. ورغم ذلك، لم ألتقِ بصانع ساعاتٍ آخر مثله. وعن طريق مراقبته تعلَّمْتُ كفايةً أن أصحِّحَ خطوات عقارب ساعة يدي. لكنّي ما زلتُ آخذ أيّ آلة زمن معطّلة إلى صانعي الساعات في تولوز وذلك كي أدرس العظمة التي يجلبونها إلى مهارَتِهِم.

إنّي أحبّ أداء الحِرْفة أكانت متواضِعة أو "لئيمة" إلاّ أنني أمشي بعيداً عندما تبدأ المناقشات حولها ـ وكأنّ على المرء أن يسأل حفّار القبور عن نوع الرّفش الذي يستعمله أو إذا كان يفضّل أن يعمل ظُهراً أو في ضوء القمر. لأنّني شَغوفٌ فقط بالعمل بحدّ ذاتِهِ وبتلك التّمارين السّرّية وراءه، حتّى وإن لم أفهم كلّياً ما يحصل. وتكمن إحدى لذّاتي، عندما كنتُ ولداً، في ركوب الخيل أو العربة بمحاذاة نهر الغارون إلى حيث كان يقع موقع أربع محرّكات بخاريّة على ضِفّة النّهر، وهي تضخّ المياه إلى مدينة تولوز. ففي ذلك الرّيف الهادئ، حيث كنت تستطيع سماع صوت بَطّة أحادياً، تهدر المحرّكات فجأة ضاجّة بالحياة وكأنّها قرود عملاقة تَبْصُقُ وتتدافع على طرف الماء.

وكنت مسحوراً بها، إذ كانت تبدو كالكبار في أعمالهم الضّوضائيّة المعقّدة. بدا الأمر وكأنّ بمقدورِها جلب الظُّلُمات.

Twitter: @ketab_n

كان الإرهاق يتمكن من ساعة لِداروِل في آوش مرّةً في السنة وكان شامايو، مالِك الحانة، يبعث لي برسالة تُعْلِمُني بالوقت المتوقّع لمجيء صانع الساعات. فكنت أسافِر لمتابعة الإجراءات وأمكث في فندق فرنسا كي أشاهد الحدث. وبالقرب من الشيء العظيم الموضوع على طاولة الحانة الرّخاميّة تستطيع أن تقرأ الأحرف الصغيرة على وجه السّاعة: "ألا مارغير". وكان صانع الساعات يَمْسَحُ ما بدا عَفناً فطريّاً أو يُصلِحُ الباب الأبيض للقُرْصِ المُرَمّم ومن ثمّ كان يعيّر العملية الميكانيكيّة. وكنت بحاجة إلى أن أبدو متواضِعاً كي أبقى بقربه، إذ كان يُصيّر على سُلطةٍ شبيهة بالبابَوِيّة. وعندما قيل له بأنني كاتب أو معروف أنّني كاتب، كان يوجّه الحديثَ لي أكثر منه للحاضرين الآخرين، وكأن كِلَيْنا ننتمي إلى مستوّى حِرَفيّ آخر من الوجود. وعندما توضَّحَ الأمر بأنّني شاعر، إنْحدر مقامي درجتين أو ثلاث وَتَمْتَمَ سَطْراً لم أستطع سماعه استدعى ضحكةً من مكانٍ ما إلى يساره، ضِحْكَةً مُرْشَدَةً من قِبَلِهِ.

تُقدِّمُ مهارة الكتابة القليل إلى المشاهِد. فليس هناك سوى هذه العلاقة ذات الخمس سنتِمترات بين عينيك والقلم. إنّ أيّ مهارة في الرّوحانيّات أو في الأحلام هي غير مرئيّة، بينما قام صانع الساعات الزّائر لآوش بنزع سترته القطنيّة القاتمة ورفع كمّي قميصه البيضاء. وفي تلك الهنيهة افترق عن كلوديل على الطاولة المستديرة الصّغيرة قرب النافذة واقترب أكثر من القماش المُزَيَّت والمُمَدّد مع جيوب رفيعة تحتوي العِدّة وَعَبَوات الزّيت ومصباحه الصغير لكشف دهاليز الآلة. وسرعان ما كدت أصبح في نطاق بهجة سلوكه الجَدِّي. وكنتُ أتخيّل حتّى مركزه الأجلّ في تلك القرى الصّغيرة في الهوت ـ بيرينيه، بلدات كلارونز غافارنيه وهوغو حيث لا بد أنه سافر وكأنه محمول على مِحَفّة

Twitter: @ketab_n

السُّلطة العالية. ولقد تَمَتَّعْتُ بكلّ ذلك. لكنّي أؤمِن فقط بتواضع زوج أمي. الذي كان يتوقّف في منتصف العملية لدى سماعه عصفوراً يغنّي ويسير نحو النّافذة باحِثاً عنه، أو كان يعطيني إحدى سكاكينه الأساسيّة كي أبري أقلامي الرصاصيّة غير الحادّة. كما كان يبني لنا الأشياء من تلك الدواليب والأقراص الرّقميّة التي لم تعد تُسْتَعْمَل، فكانت تُسَيَّر كحيوانات نصف جَدِّيَة على طاولة غرفة الطّعام. لم يكن والدي لكنّه ربّاني، فتعلّمتُ، على ما أظنّ، الأخلاق منه، كما تَعَلَّمْتُ أنّ أيّ حرفة أو موهِبَة تتكوّن بِسِرِّيَّة من دون شرارات الدّراما المبالِغَة. ولكنْ رغم كلّ تواضعه أحبّ عَظَمَة فيكتور هوغو وَوَصْفَهُ المطيع البطيء ذاك والذي مشى صوب الثّورة.

كما أحبّ والدتي. وَرَأَيْتُهُ في أيّامه الأخيرة يرفع يَدَهُ اليمنى المعطّرة بالزّيت لِيُدخل أصابِعَهُ في شَعْرِها المُرَتَّب فيداعِبهُ وَيُعْتِقهُ من الدّبابيس وكأنّه قُدِّمَ له المخمل أو فَرْو حيوان نادر. وإنّي سأتذكّر تلك الحركة إلى الأبد، فبالنسبة لي كانت ربما آخر لَذَّةٍ أتذكّرها تنتمي إليه وهي اللّب الصّافي لكل ما أعرفه عن الحب والعائلة (هذا مع العلم أنّي لم أكن ناجحاً في تلك المهنة). ولم يكن مهمّاً خَجَلنا من معانقة بعضنا البعض - وهذا نادراً ما حصل. ولقد شَعَرْتُ بالأمان والرّاحة في منزله. وكان الهدوء مُهَيْمِناً، بينما كانت ساعتا الحائط في المنزل صامِتَتَيْنِ ولكن بدِقّة. وكنّا نشعر بأمان الزّمان. لقد أعطانا كلّ ذلك لمدّة خمس سنوات.

Twitter: @ketab_n

مارسِيّان

وكانت والدته، أوديل سيغورا، قد وُلِدَت في "باغنير ديبيغور" حيث هَبَطَ التأثير الإسباني من جبال البيرينيه على مسافة خمسين كيلومتراً. وكان ميغيل إينفيرنو قد عبر الحدود الإسبانية ليعمل كباني أسطح في المدينة. إلتقاها وغازلها وعاشرها قبل أن يرحل من دون سابق إنذار، وذلك بعد أَشهر قليلة، مع ثلاثة من أصحابِهِ الإسبان. وفي قرية "فيك فينرنسار" إلى الشمال، كانت تجري مصارعة للثيران خلال شهر حزيران، فكانت تأخذ طفلها الصغير معها كلّ سنة، آملة أن تجد حبيبها بين الحشود، لكنّها لم تلتقِ أبداً بوالد لوسيان. وبدلاً من ذلك، تزوَّجَت صانع الساعات، فعاشت والولد معه في منزله خارج قرية مارسِيّان.

وكان الصبيّ في الرابعة من عمره عندما دخل منزل زوج أمّه للمرّة الأولى. وهناك في حدائقه، مع رشقة النهر عبر الأشجار وكلب الحدائقي النائم تحت ضوء الشمس، تعلّم أن يميّز الأصوات في كلّ حقل. وسرعان ما تعلّم أيّ بقعة من السّماء يبحث فيها عن النجوم خلال الفصول المختلفة وأيّ شجرة حَوَتْ طائر العندليب. وفي أعياد ميلادهم من كلّ سن كانت أُمُّهُ تحضّر سَلَطَة القوانص ـ وهو طَبَقٌ مؤلّف من بيضة صغيرة توضع على أوراق السَّلَطة مع أحشاء الوَزَّة والبطاطا والثوم وخردل الحبوب الذي لم يكن لوسيان يجده في أيّ مكان آخر. وفي كلّ

Twitter: @ketab_n

سنة في الأسبوع الأخير من أيّار كانت تقوم بتنظيف الرّبيع في المنزل كما كانت تقوم بإزالة العشب الضّار في الحديقة وبغسيل قمصان زوجها وكيّها. وبعد ذلك كانت تأخذ ابنها في عربة وتسافر إلى مصارعة الثيران في "فيك فيزِنساز"، باحِثَةً في الشوارع ليلاً ونهاراً ثم تعود إلى المنزل خاوية الوِفاض إلاّ من مزيج من الخيبة والإرتياح. ولم يشعر صانع الساعات أبداً أنّه وصل إلى درجة الحميميّة مع زوجته والتي كانت توجد بين الولد وأمِّهِ. وربّما لم يكن واثقاً أبداً، إذا عثرت زوجته يوماً على الإسباني أثناء الإحتفالات، عما إذا كانت ستعود إلى منزله.

ومع موت زوج الأم الفجائيّ، وبالرّغم من بعض الغِنى الموروث، حَجّمت الأمّ وابنها طريقة عيشهما. وبقي القليل لحماية عالم الصبيّ بعد رحيل ذلك الرّجل باذل العناية. وأصبح لوسيان حينها أكثر حَذَراً وكتماناً. وفي الصفوف كان الآخرون يَسْمَعون أنماطه الكلاميّة المُغلَقَة، إذْ أمضى وقتاً طويلاً يتحادث مع ذاتِهِ. ومع ازدياد عمره أصبح لديه كلماته الخاصّة، وكأنّه جمعها غُصْناً غصناً من الحقول المفتوحة. وكان يقول جُمَلاً قليلة لِنَفْسِهِ عن بوّابَةٍ صَدِئَة أو عن عصبيّة حيوان أو عن دخول مركب. وكان المشهد المتكلّمَ عنه يصعب محوه من ذاكرته. فلقد حمى نفسَه بالكلمات وبالوضوح الصغير والجزئي الذي كانت تَجْلبه له تلك الكلمات.

Twitter: @ketab_n

الوصول

وفي إحدى العشايا كسر صوت عَرَبَةٍ صمتهم، وكان منزلهم على مسافة قريبة من طريق الرّحلات، ممّا عنى أنّ لديهم زائراً. ولكن حين توقّف الولد وأمّه عن الطّعام وفتحا الباب ونظرا خارجاً، مرّت قربهما عربة مُثقلة بالأحمال ويجرّها حصانان، ثم صَعِدَتْ أعلى التّلّة، مكافِحَةً لمئة متر أخرى لتتوقّف أمام بيت المزرعة ذي الغرفة الواحدة والذي كان خالياً لسنوات. وقف لوسيان وأمّه أمام الباب وقد استَوْقَفَتْهما التّحيّات المتوقّعة. راقَبا زوجين على تلك المسافة ينزلان وَيَمُطّان ذاتَيْهِما، وقد بديا كَشَكْلَيْن مُجَرَّدَيْن على قِمّة التّلّة، رجلاً وامرأة. لقد وقف منزل المزرعة لسنين كَعَقَبَةٍ هامدة في أُفُقِهما. وَبَدَتْ فكرة احتوائه الآن لأشخاص رائعة لهذا الصّبيّ ذي السّتّة عشر ربيعاً. لقد عنى هذا أنّ عليه أن يكون أكثر فضوليّةً ولكن حَذِراً بما يتعلّق بأسرارِهِ الخاصّة.

أعطيا الزّوجَيْن نصف ساعة، وقبل حلول الظّلام مباشرة، توجّه، الولد وأمّه نحوهما حامِلَيْنِ الخُبز والحليب والشّموع مع قِطَع صغيرة من اللّحم. وكان الرّجل والمرأة ما زالا يفرغان العَرَبَة. إلى جانب الطّريق كان هناك سرير متواضِع من قِطعتين مع كرسيَّيْنِ وطاولة مدهونة وموقد حديديّ مع أنبوبِهِ بشكل حرف اللاّم. وَوَسْطَ ذلك الأثاث الضّحِل وسَلّة الثّياب الواحدة وقف الرجل ومن بَدَتْ تلك اللّحظة كفتاة صغيرة. وحين

Twitter: @ketab_n

استدار الزّوْجان نحو الإثنَيْن اللّذَيْنِ ظَهَرا، تواصَلَتْ المرأة الصّغيرة مع يَدِ الرّجل لبرهة في حركة معيّنة أو أخرى - ولم يستطع الصبيّ معرفة نوع العاطفة الكامنة في تلك الحَرَكَة. بَدَتْ هي خفيفة فيما بدا الرّجل ثقيلاً. وكان لوسيان قد رآه يخطو حول البيت الصغير بِعَظَمَةٍ وكأنّ البناءَ مدينة مُسَوَّرَة قد وَرِثها وعليه إحياؤُها أو تلقينها دَرْساً. وكان الولد قد قَرأ الملاحم اليونانِيّة فبدا له الغريبان في تلك اللّحظة وكأنّهما جزء من جيشٍ أجنبي أو من وفد مُرْسَل.

ولو لم تكن أمّه موجودة لما كان تكلّم أحد ربّما، لكنّها عَلِمَت أنّ اسمَيْهما رومان وماري - نيج وهما كانا قد استأجرا بيت المزرعة من دون أن يرياه من المالك الذي يعيش في مراسيّان.

وقَبِل رومان هديّتهما المكوّنَة من الطَعام لكنّه رَفَضَ أيّ مساعدة في نقل الأثاث رغم أنّ الوقت كان يدنو من الظّلام. فهو سيفعل ذلك بمفرده. وكان قد نَقَلَ، بينما كانا يحاولان المحادثة، جزءَي السّرير إلى الدّاخل. وَبَقِيَت الفتاة صامتة. كان فمها قد قام بحركةٍ ما عندما تمّ التعارف، وذاك كان كلّ شيء. لقد بَدَتْ للشاب نحيلة جِدّاً بينما كان شعرها القاتِم قصيراً بحيث بالكاد يصل إلى رقبتها. وشعر أنّ باستطاعة الرّجل أن يطويها في مكانٍ ما داخل ثيابه ليجعلها تختفي. ومشى لوسيان عائِداً في مخدر التلّة مع أمّه، مستديراً للمرّة الأخيرة قبل أن يدخل. وكان الرّجل قد وضع مصباحاً على العَرَبَة وكان يتحرّك ذهاباً وإياباً حاجباً الضّوء حوالي كلّ دقيقة. وَلَجَ لوسيان المنزل وجلس إلى الطّاولة مفكّراً في ما قد حصل. وشعر وكأنّ حياته كلّها قد تَغَيَّرت.

واكتشفا أنّ الزّوجين كانا قد تزوّجا مؤخّراً. لم تكن الزّوجة على ما

Twitter: @ketab_n

يبدو أكبر بكثير من لوسيان. وفي الأسبوعين الأخيرين، نادِراً ما كان الفتى وأمّه يَريَانها لأنّها كانت حَذِرَةً بالحياة البَرّيّة. وحاوَلَتْ أُمُّهُ بشتّى الطُّرُق أن تصادِقَ الزَّوْجَيْنِ وخاصّة الزوجة. ولربّما لَمَحَتْ شيئاً ما في ذاك الوجه الفتيّ والمُنْدَهِشْ. لقد تمّت إذاً ملاطفة ماري ـ نيج تحت جناح الأمّ الواثق.

ودخلت الفتاة منزلهما تدريجيّاً وتجريبيّاً، وكأنّ عليها في البدءِ أن تتعلّم القواعد العدة المصاحبة لهذا النوع من المُلْكِيَّة. ولا بُدَّ أنّ المنزل بدا قَصْرِيّاً. وأدرك الولد فجأة وجود متر إضافي يرتفع نحو السّقف ووجود عرضٍ وخطوات إضافيّة ضمن كلّ غرفة. وكان رومان نادراً ما يأتي فهو منشغل في الحقول معظم النّهار. ولكنّ والدة لوسيان كانت تستعجل صعود التّلّة إلى بيت المزرعة كي تدعو الفتاة التي كانت تبدو مصدومة في دَوْرِها الجديد. وسمع أمّه تقول لأحدهم أنّ لا عمل لماري ـ نيج سوى تنظيف كوخهما الصغير الذي هو بمثابة منزل وخدمة زوجها. كانت نحيلة كما هو مقدَّر للعروس. وفي الواقع لم تكن تمثّل معنى تلك الكلمة، فهي جسديّاً وزمنيّاً كانت مساوِيَةً للوسيان ـ هو كان فقط فَتِيّاً. لكنّها كانت متزوّجة وبطريقة رسميّة كانت "مترجمة" إلى ناضجة. إذ كان لديها معرفة ذاك العالَم وكأنّها استحقّت شرفاً خالصاً في بلاد غريبة. ووَصَفها مَرّة لِصَديقات أُمِّهِ عندما لم تكن الفتاة موجودة بأنّها هزيلة كَنَبْتة الفاصوليا. ولفترة، بعد انفجارهِنَّ ضَحِكاً، أسْمَيْنَها جميعهنَّ "الفاصوليا". وكان يتبجّح بذلك، ورغم أنّ ذلك كان الإسم المثالي، إلاّ أنّه شعر أنّه ارتكب خيانة. وقالت والدته "حسناً، ستزيد انتفاخاً في القريب العاجل". فزاد الضّحك حَوْلَها.

Twitter: @ketab_n

العالَمُ الرّائع

حَضَنَت العائلتان بعضهما تدريجيّاً، وبدأت أُمُّهُ تعليم ماري ـ نيج القراءة. وكان لوسيان يذهب أيّام السّبت لمساعدة رومان في زرع اللِّفت في الحقول أو إعادة بناء حائط على حدود الأرض. وبالنسبة للفتى ذي الستة عشر ربيعاً كان زوج ماري ـ نيج قوّة غامضة واحتمالاً خَطِراً لصورة والد افْتَقَدَهُ. نادراً ما كانا يتكلّمان كما لم يَرَيا بعضهما خلال أيّام الأسبوع الأخرى لأنّ رومان كان يعمل في مارسيّان أو في بعض الأحيان بعيداً عنها. وفي تلك الأثناء كان الشاب مُنْغَمِساً في قراءة الزّنبقة السوداء. وفي فترة بعد الظّهيرة ذات مرّة جَلَسَت ماري ـ نيج قُرْبَهُ في صمت فقرّر أن يقرأ لها بصوت عالٍ من رواية ألكسندر دوما. "وفي الطّريق إلى السّجن في بويتِنْهوب، لم يَسمَعْ صاحبنا كورنيليوس سوى نباح كلب وَلَمْ يَرَ سوى وجه امرأةٍ شابّة..." فنظرت "الفاصوليا" إليه بفَمٍ مفتوح، ولم يعرف ما إذا كانت تظنّ أنّه اخترع ما قالَهُ أو أنّها كانت مسحورة بالعبارة الّتي قرأها. وأَكْمَلَ. كانت ماري ـ نيج في الواقع أكبر منه بحوالي السّنة، لكنّه فيما كان يقرأ، بَدَتْ له مكتملة البراءة.

ومنذ ذلك الوقت رَغِبَت في مشاركته كلّ ما يستهلكه من أيّ كتاب. وفي فترات الصّباح المتأخّرة وبعد مساعدتها في الواجبات المنزليّة،

Twitter: @ketab_n

تعلَّمَتْ أحرف الأبجديّة من أمّه. وخلال فترات بعد الظّهيرة استَمَعَتْ إلى هذا المخدِّر من القِصص فيما جلست ولوسيان معاً على الشُّرفة أو في ظلال شجرة التفاح الصّغيرة قرب النّهر. وكان كلّ منهما قد نشأ بعيداً عن مكائد المدن، وهما الآن قد وقعا على دوما كمرشد إلى تلك المدن القابعة أبداً في الخطر وحيث منظر زمّردة على الرّقبة قد يكشف عن عائلة ملكيّة. رافقا الفرسان الّذين حملوا وثائق مُهِمّة عبر السّهول المغمورة بالمياه وحفظوا مواعيدهم في منتصف اللّيل مع الأعداء ومع العشّاق. كانت الكتب مليئة بالعشق غير المُحْتَمَل. "أَصْدَرَت أَنَّةً حزينة وَهَرَبَتْ، مُحاوِلَةً من دون جدوى أن تَكْبُتَ دقّات قلبها. ولم يستطع كورنيليوس، المتروكِ وحيداً، أن يقوم بأكثر من تنشّق رائحة شعر روزا الزّكيّة والّتي دامت كأسيرٍ خَلْفَ القضبان". وعندما كانا يجلسان على حافّة الشّرفة، كانا يشعران أحياناً أنّهما يكادان يستطيعان التّنفّس وأنّه لن يكون هناك حياة عادِيَّة بعد ذلك أبداً.

قرأ وكأنّه "يتكلّم بلغات عدّة"، وبمعرفة ناضجة وكأنّه حكيم كان قد جُرِحَ في معركة سابقة بعيدة أو في عاطفة شَبِقَة. وبَدَتْ هي كأنّها تتعلّم عن العالم الرّائع عبرَه هو. فلقد كان هو (وقد شعر بذلك) من كان يقدّم ماري - نيج في القصبر أو من كان يركب بجانبها من مدينة إلى أخرى تحت القمر. لقد اكتشفا كيف كان ممكناً إرسال الحمام الزّاجل حتّى لاهاي وهذا قد يغيّر كلّ شيء، مع العِلم أنّه غالباً ما كان ضروريّاً أن تركب المسافة الهائلةِ بنفسِكَ. وإذا تردّد لوسيان، مصعوقاً أحياناً بخداع امرأة أو بضرب عنيف في الرّواية التي كان يقرأُها، فقد كانت

Twitter: @ketab_n

ماري ـ نيج تتدخّل من أعماق صمتها كي تتفحّص ما بدا له هفوة في الحبكة المصاغة بعناية، وكانا يتحدّثان عنها، مناقِشَين ما قد يفعله بالتّحديد الرجل أو المرأة، الزّوج أو الزّوجة. كَمِثْلِ هذا السّطر "ما أرادَتْهُ كان يتخطّى طاقة هذا الرّجل، فكان عليها أن تَقْبَلَهُ بِضُعْفِهِ". وإذا ظَهَرَتْ هناك نواحٍ لم يفهمها كليّاً أو ببساطة ضَجِرَ منها، فكانت تتساءَل بصَوْتٍ عالٍ عن السّبب. وأدرك أنّ لديها ذكاءً خفِيّاً ـ تماماً كما كان لديها تفضيلٌ لسِحر فارسٍ محدّد.

وبهذه الطريقة، أصبحا يدركان اهتمامات كلٍّ منهما وتردّداتِهِ. فلاحَظَتْ كيف كان يُسْرِع أثناء قراءة مقاطع عن الطفولة كونه وجد الشّخصيات الّتي لم تتجاوز العشرين من عمرها مألوفة لديه كثيراً. وكان يدرك سلفاً ما عناه الشباب. ما رَغِبَ فيه هو تعقيدات الكبار والسّفر والحرب والمعارك والزّيجات. وعندما أفشى لها بذلك توقّف مُحْرَجاً أمام الحائط بينهما المتعلّق بذلك الأمر. مَدَّتْ يَدَها السّمراء النّحيلة نحو خدّه وَأَبْقَتْها هناك أقلّ من ثانية. "ستتزوّج يوماً ما. وعندها سنتكلّم عن هذا الأمر أيضاً". "كلاّ"، أجابَها. "لن نفعلَ ذلك أنا متأكّد أنّنا لن نقوم بذلك". وأعاد ذاتَهُ إلى الرّسميّات، فَبَدَيا كعودَي ثقاب مُلْتَهِبَيْن بجانب بعضهما البعض في علبة الكبريت.

حصل كل ذلك خلال سنتهما الأولى. ويكون رومان قد عاد في فترة بعض الظّهر المتأخّرة، حيث كانت هي تعود إلى حياتِها الحقيقيّة. أمّا هو، فقد كان يعدو في الحقول وَيُدَحرج دواليب العربة ويرمي الأشجار الصّغيرة بالمِقلاع ويرمي بنفسه كَرِمْحٍ في النّهر. وكان يحرق

Twitter: @ketab_n

نفسه في طيّات المياه، وعيناه مفتوحتان في ظلماتها، وهو متأكِّد أنّه سيجد فِضّة أو سيفاً مفقوداً أو غصناً ممّا قد يعيقه تحت الماء. كان شيء ما يعيده صَبِيّاً في تلك اللَّحظات بعد افتراقهما.

وكانت تذهب إلى نافذتها الخلفيّة الصغيرة لتراه يقفز إلى غصن. وعندما كانت تساعد رومان ليأخذ حمّامَه في مؤخّرة منزلهما مدلِّكةً كَتِفَيْهِ بالصّابون، كانت أحياناً تسمع رَشَاش الماء الواصل إلى أذنيها عبر المسافة الفاصلة عن عالمه. وإذا رَغِبَ رومان بها، وقد عاد مُتَوَرِّماً وجائعاً، فإنّه لم يكن يمشي الخطوات القليلة إلى سريرهما. كانت تستلقي على طاولة المطبخ وقدماها متدلّيتان بالكاد تلمسان الأرض فيما يقوم هو بِطَخْشِ ذاتِه داخلها، وتقوم يداها بإمساكِ أيِّ طرف للطاولة تستطيع الوصول إليه، وهي نصف مهتاجة بما يقوم به.

أمّا رأساهما وأكتافهما فقد تَمَوْضَعَت تحت المصباح المتأرجح غير المضاء، فيما يتحرّك جِلْدُ عمودها الفِقَريّ صعوداً ونزولاً على خشب الطاولة وقد حماه فقط فستانها القطنيّ المفتوح. ويكاد يكون الولد قد غطس في النّهر عندما يكون مجامعتهما واكتفاؤهما المتبادل قد تَمّا. ويقوم رومان بِمَدِّ يده فتلتقطها بِيَدَيْها ليقوم برفعها عن الطاولة نحو الهواء. لقد كان رجلاً أكبر سِنّاً منها وأقوى ولا يشبه الفتى بشيء في ذلك. ورأت عينيه ضائعتين في المرارة والإحباط وفي غضب هائج بسبب طبيعة حياتهما. فكان يرمي بكرسي على السّتارة التي كانت تقْسِم غرفتهما، وكانت هي تعلم أنّه من الممكن جِدّاً أن يكون جسدها هو المرميّ نحو تلك الزاوية المظلمة. ومرة أو اثنتين رأت شخصيّته في

Twitter: @ketab_n

الفارس بورتوس كما رأت احتمال أن يكون بورتوس في داخله، وهذه كانت طريقتها في البقاء مُخْلِصَةً لكلِّ ما كان يؤمن به رومان.

وجَعَلَتْ شعرها يطول. شَعَرَت بأنّ نفسها مقيَّدَةً إلى بيت مزرعتهما ذات الغرفة الواحدة. فشكّل ذلك استقلالاً صغيراً. ونادراً ما كانت تبتعد أكثر من أربعين ياردا عن المنزل، إلاّ عندما كانت تذهب لِنَيْلِ دروس المطالعة أو عندما كان رومان يأخذها في العربة إلى القرية.

Twitter: @ketab_n

الكلب

كان الولد مستغرِقاً في أحلام اليقظة قرب النّافذة المُحاطة بعتبةٍ، فيما كان ينظر خارِجاً. وبدأت عيناه تدريجيّاً تركّزان في البعيد حيث كان يوجد كلب يتحرّك عشوائيّاً. وعندما اقترب الكلب لاحظ الفتى أنّه كان كبيراً وأسود. وَذَكَرَ لأمّه الّتي كانت خلفه أنّ الحيوان قد يكون مصاباً بداء الكَلَب وخطراً. اقترَبَتْ منه وَنَظَرَتْ إلى الخارج لبرهة قائلة "ربّما. لا تخرج". "لن أفعلَ ذلك"، قالها موافِقاً.

كانا على وشك تناول الغداء. ذهب إلى النافذة الشمالية ليرى إذا كان رومان وماري ـ نيج خارجاً. فلم يرَ أثراً لهما. وعاد إلى النافذة الأولى وجلس قرب الزجاج مراقِباً المخلوق الذي كان ما زال يتجّول من دون نباح. فقط كان يتحرّك وكأنّ لعنة سَكَنَتْهُ. وهجم ناحية شرفة المنزل الأرضيّة فرأى شكل جسد الصبي العلوي في النافذة وتراجع. "إنّه راحل"، أخبر أمّه. "جيّد". أجابت.

وكان الحيوان يمرّغ أَنْفَهُ في الأرض، ثمّ نظر إلى أعلى وهجم، قافزاً على الشرفة ورامياً بذاتِهِ على النّافذة. هَشَّمَت مخالبُه الزجاج النّحيل ولامَسَتْ قدماه الأماميّتان الصبيَّ، كما اختَرَقَتْ شظايا الزجاج عَيْنَيْه. وقف لبرهة ثمّ هوى على الأرض. ظنّ أنّ الكلب أصبح في المنزل وأنّ الألم معناه أنّ وجهه قد أُكِلَ. لم يستطع الصّراخ. لقد كانت

Twitter: @ketab_n

أمّه تصرخ، إذْ رَأَتْ الدّماء تغطّي وجهه وقميصه والحائط القريب من عتبة النّافذة. وكان الكلب قد سحب قدمَيْهِ عبر الزّجاج المهشّم وقفز عائداً إلى التراب أمام الشُّرْفة.

رَكَعَتْ قرب ابنها وَلَمَسَتْ جسده المُتَقَبِّض. ولم يجرؤ الولد على الحركة. كانت تصرخ له ظانَّةً أنّه قد عُضَّ، لكنّه لم يُصْدِر أيّ صوت ولم يقم بأيّ حركة، فَهَدَأَتْ تدريجيّاً حتّى أصبح تنفّسها لاهثاً شديداً. لم يكن بمقدوره الرؤية فقرأ عقله ذاك الصوت على أنّه لهاث الكلب وهو يدور حوله.

ثمّ تركَتْهُ أمّه، فأصبح وحيداً على أرض المطبخ.

ورغم وجود الكلب في مكانٍ ما من المنطقة، رَكضَتْ إلى أعلى التلّة وعادت مع رومان والزوجة الشّابة. وَرَفَعَت الأمّ رأس وَلَدِها وَحَضَنَتْهُ بينما حَرَّكَت الفتاة سائِلاً مالِحاً في قَدرٍ وَغَسَلَت بعناية الدَّمَ المتفلّت باحِثة عن الجرح. ولم يَبْدُ هناك أيّ جرح في وجهه على الإطلاق. وَوَصَلَت في نهاية الأمر إلى عينه اليسرى، فكانت هناك شظيّتان من الزجاج داخِلها. كان يحدّق غير قادرٍ على إغلاق جَفْنِهِ. بدون أن تتوقّف نَزَعَتْ إحدى القطعتين الحادّتين بأصابعها. لَوَّح بيده في الهواء بقوّة. "هل تستطيع أن ترى"؟ لم يستطع الرؤية، "حتّى بالعين الأخرى"؟ لا يعلم، فهناك الألم فقط. وَأَصْبَحَ مَخجِر العين اليمنى الأخرى بركة دم، فلم تستطع أن تعلم إذا كان ذاك يعني شيئاً أو أنّها ما زالت آمنة وغير متأذّيَة. لكن من دون شك كان هناك قطعة أخرى في العين اليسرى وقد دخلت عميقاً. لم تظنّ أن باستطاعتها نزعها كما لم تكن متأكّدة من أنه يجب عليها فعل ذلك.

Twitter: @ketab_n

وحمله رومان على العربة ووضعه على المقعد الخلفي بحيث كان رأسه يستلقي مرّة أخرى على حضن أمّه. وَضَعَتْ قطعة قماش تستعمل للجبنة على وجهه لِتُبْعِدَ الغبار عنه. وركب الآخران في المقعد الأمامي. وَجَلَبَتْ الأمّ البندقية ووضعتها على المقعد الأمامي بين الزّوجين.

وبعد أن رحلوا لعدّة مئات من الأمتار، ظهر الكلب ثانية مُبْقِياً على مسافته أثناء تَتَبُّعِهِم، وكان جَلِيّاً أنّ المخلوق ما زال ينوي مهاجمتهم، وركض بجانب العربة مُطْبِقاً بفكَّيْهِ على حوافر الحصان، وكان باستطاعتهم رؤية الدّم رطباً على أقدامه. "أطلق النّار عليه"، صرخت الأمّ، وأعطى رومان اللّجام لزوجته وصوّب ثمّ أطلق النار من البندقية باتجاه التراب قرب الكلب المهاجم. وهدأ المخلوق فجأة وجلس بينما أَسْرَعَت العربة صوب مارسيّان مبعدة إيّاهم عن الحيوان. وتابعت الزوجة الشابة النّظر إلى الخلف، إذا لم يكن صوب لوسيان، فناحية الكلب في المسافة المتباعدة. كانت تريد دائماً كلباً في حياتها وكانت قد حاولَتْ إقناع زوجها بذلك. لكن الآن لن تحصل على واحد أبداً. مدّت نفسها نحو الخلف ممسكة بِيَدِ لوسيان لِلَحْظة.

وكان طبيب المستشفى، مسيو بورسِلان، عصبِيّاً لكنّه كان أيضاً واثِقاً من سُلْطَتِهِ. وقال إنّه من المحتمل أن ينتشر الإلتهاب ليصل إلى العين غير المصابَة. وكان مُصَمِّماً على خلاص بعض النَّظر على الأقلّ، فأقنع أمّ الفتى بنزع العين اليُسرى وبأن يُنَظِّف المحجر أو التجويف الّذي بَقِيَ، بعناية. وبهذه الطريقة لن يصل أيّ التهاب إلى العين اليمنى في حالتها الضعيفة. لم يكن لِلُوسيان يَدٌ في هذا القرار وبقي لسنوات يشعر بالمرارة ناحية أولئك الذين شوّهوا وجهَه.

Twitter: @ketab_n

وعندما عاد إلى المنزل كان يرى بضعف مجرّد الألوان والأشكال المحيطة به. لكنّ ذلك بدأ يتحسّن. على أيّ حال، أُبلِغَ أنّ عليه الإمتناع عن القراءة لمدّة عام، وللغرابة قُدِّمَت له نصيحة أنّه خلال ذات المدّة عليه ألاّ يبكي. وكان عمره ثمانية عشرة عندما طُلِبَ منه ذلك. وبدا أنّ الغضب البارد هو الإحساس الوحيد المسموح له كردٍّ على ذلك الحادث. فبَقِي يلوم الثلاثة الذين أخذوه إلى المستشفى في مارسيّان. لام رومان لعدم قتله الكلب فاختفى قبل أن يُفحَص لتبيان المرض. ولام "الفاصوليا" لأنها استَعْمَلَت سائِلاً مالحاً لم يكن ربّما مطهّراً فوق عينيه. وأكثر من لام هو أمّه لأنّها سَمَحَتْ بإزالة عينه. تصرّف كما لو أنّه كان خمس سنوات أصغر من عمره. ووجدوا صعوبة في جعله يتجاوب مع أيٍّ منهم بأيّ طريقة. إذْ فَضَّلَ أن يبقى وحيداً في غرفته. وفي غضبه رفض وضع عين زائفة. وعندما أصبح ناضجاً نادراً ما تكلّم عن تلك الفترة التي كان من المفترض أثناءها أن يبكي فقط.

بعد شهر من الكارثة، وصَلَت بعض الكتب التي كان قد طلبها من تولوز بواسطة البريد. فرماها في زاوية ومشى عائداً إلى غرفتة. ولو وُجِدَت النار قربه لكان أحرقها. وَأَبْقَت أمّه الكتب حيث هي حتّى مرّت الفتاة لأخذ أحد دروسِها. كان لوسيان يجلس على الشُّرْفة عندما اقتَرَبَتْ منه وأعلنت عناوين صفحة الغلاف وَبَدَأَتْ بالقراءة. "الفصل الأوّل - هدايا دارتانيان الكبير الثلاث. في الصّباح الأول من شهر نيسان، ١٦٢٥...".

وتجمّد كلّ شيء داخله. رفض أن يخرج ليلاقي كلماتها. كانت غامضة بلَهْجَتِها ومليئة بالتردّدات. وكان مدركاً أنّ هذا الوضع مساوٍ

Twitter: @ketab_n

للذلّ أو أكثر إذلالاً لها هذا الإدّعاء بالعالمية وبأنّ الأسلوب الباريسي النثري يعكس لغتها الطبيعيّة، هذا كل ما أوقف الإهانة على شفتيه. لكنّه لم يستطيع الإعتراف لها. غداً ببساطة لن يخرج إليها، فانقلاب الأدوار كان محرِجاً وَمُرّاً له. فالزوجة ـ الخادمة هذه لِجارهم كان قد استُدْرِجَتْ من رمال الجهل المتحرّكة من قِبَلِ والدته... لقد كان الكتاب على حضنها وكانت تمسك بالسكّين بجانبها، فقد كانت تستعمله لِفَصْلِ الأوراق. وكان شعرها الأسود يحمي وَجْهَها. وكان بالكاد يسمع صوتها يسيء لفظ أسماء المدن والسُّلالات. ما كان مدركاً له بحقّ هو ارتجاف ذراعها اليسرى، فراقب ذلك فقط ولم يُرِدْ أن ينخرط في القصّة.

وعندما أَنْهَتِ الفصل أَغْلَقَتِ الكتاب، وبدون أن تنظر إليه، أخذته معها إلى منزلها. ولم تأتِ في اليوم التالي. وفي اليوم الذي تلا ذلك، كانت تساعد والدته في بعض السّتائر عندما سألَها توضيح شيء كان قد فاتَهُ ولم يَفْهَمهُ في الفصل الأوّل. نَظَرَت إليهِ قائلةً "لا أظنّ أنّي أتذكّر، فلقد كنت متوتّرة جدّاً" وكان هناك نوع من الإجابة أو التجاوب من قِبَلِهِ. "وهل تريدني أن أعيدَ قراءتها لكَ؟"، "كلاّ، فقط أكملي"، "ألا تعرف شيئاً أساسِيّاً قد يدفعكَ إلى الإنخراط أكثر في الأمر"؟

نَزَعَ رومان عنها ثيابها، وكان قد فتح السّتارة على غرفة نومهما بحيث دخل ضوء المطبخ عليها. كانت أطول وأقوى الآن وشعرها الطويل أصبح أكثر أنثويَّةً. وعندما تصارعا على السّرير لاحظ ثقتها واستمتاعها الأقل بلادة. دَفَعَتْهُ بذراعَيْها وَحَدَّقَت به كمساوية له من دون خجل ممّا كان يفعله. وعندما قَذَفَ داخِلَها توصّل فمها إليه وعَضَّتْه في لحيته ثمّ سَحَبَتْهُ نحوها في الأسفل. كانت مبارزة أقوى من العاطفة التي

Twitter: @ketab_n

كانت قد اتَّقَدَت سابقاً، وفي الضّوء النصفي عندما انتهيا استطاع رؤية العرق يتصبّب منها غير مدرك أنّ العرق ذاته كان عليه أيضاً حتّى مالت إليه وَلَعَقَتْ مذاقَهُ عن جبينه، وهي بادرة ظنّها صادرة عن غريبة داخِلَها.

وعندما كان نائماً، لم تستطع هي أن تنام. فاستَلْقَت واعِيَةً أنّ الزّمن يتدحرج ببطءٍ فيما تلاصق جسداهما. وكان عقلها المتوثّب يقظاً. كان ضوء المطبخ ما زال مُشِعّاً وهو ظاهر بسبب السّتارَة المفتوحة. بحثت عن قميصها النّسائيّ الدّاخليّ وسَحَبَتْهُ فوق رأسِها ثمّ مَسَحَت ما بين ساقَيْها. إنْحَنَتْ وراقَبَتْ وَجْهَ رومان الهادئ والقانع في نومه، وهذا ما كان يفاجئها دائِماً. وكانت تظنّ أنّ هذا مَآلُهُ عندما يكون في ذروة السّعادة، غير واعٍ ما في العالم. وما لَبِثَتْ أن رَكَعَتْ قرب السّرير لِتَصِلَ إلى مَنْشَفَتِها القديمة لِتَفُكَّ الكتاب الموجود في طيّاتِهَا. أَسْدَلَتِ السّتارة فأضحى رومان في العَتْمَةِ وَجَلَست إلى طاولة المطبخ قارئة الفصل الأوّل. فهي ليست من النّوع الذي يقبل بفجوات في القصّة. عليها أن تكتشف أسرارها لتخبر صديقها عندما يريد أو يحتاج أن يعرفَ كُنْهَهَا.

بدأ لوسيان بمساعدة رومان في بناء معالف لخنازيره. في الفجر ووقت الغداء كان يصبّ لها الطعام في المِعْلَف ويفرك لها ظهورها فيما كانت تأكل في الضوء الخافت. وطوال حياته كان يتذكّر مَلْمَس جلدها المشدود وشَعرها الغليظ وقفزاتها الحَذِقة في أوقات التّوتّر. وبعد عدّة سنوات، عندما استُدْعِيَ ليحقن الجنود في قرية بلجيكيّة، تذكّر الإبرة الأولى الّتي أعطاها إلى خنزير كبير كان قد التهب فَمُهُ. وكان بحاجة أن يأخذ المخلوق جانبياً إلى زاوية في الحظيرة، ثمّ يلتفّ عليه لِيَرْفعه على قدمَيْهِ الخلفيّتينِ فيقع إلى الوراء تحت رحمة ذراعَيْهِ، فيما كان هو يَتّكئ

Twitter: @ketab_n

إلى الخلف بكلّ هذا الثّقل على الزّاوية الحجريّة. أمْسَكَ به بتلك الطريقة بذراع واحدة لثوانٍ قليلة، وباليد الخرى كان يصل إلى الحقنة ويطعن إبرتها في جانب الخنزير، وكان رومان قد أخبره ما عليه فعله، وكان يراقب كلّ ذاك بضحكة نادرة ولكن مُطَمْئِنَة. وبعد ذلك كان لوسيان يُعْتِقُ المخلوقَ الذي كان يبدو غير مهتمّ.

إنّ القصص التي قرأها لوسيان وماري ـ نيج معاً قد أصبحت قِصَصَها هي الآن. وأضحى هو معتاداً على صوتها وعلى الطريقة التي قرأت فيها المنازلة بالسّيوف أو التي وَصَفَتْ فيها بإعجاب غير مخفيّ كيف كانت أوراق الشجر الموجودة في كتاب مسمَّمَة كي تقتل بروتستنتياً. كان العالَم الخارجي مرعِباً في خداعِهِ. وفي المرّات القليلة التي صحّح فيها لَفْظَها لم يفعل ذلك لِيُحْرِجَها بل ليحميها من الإحراج لاحِقاً في الحياة بين الغرباء. وكانت تقرأ له مرّتين أو ثلاثاً في الأسبوع. لقد أصبحا متساوِيَيْن ثانيةً، يتشاركان الإحتمالات المختلفة لدافع ما قبل أن يتظهّرَ. وكانا يتجادلان حول أفضل الفرسان. وفوق كلّ ذلك، أحبّا حقيقة أن دارتانيان، مِثْلَه، كان غاسكونياً متحدّراً من منطقة الغِرس.

شاهدته يغيّر ثيابه نتيجة لعمله في الحقول. ولاحظت ذراعَيْه السّمراوَيْن وصوته المكسور وقد تهاوَتْ قشرته المدوّيَة. لم يعد الصبيّ الذي كانت قد التَقَتْهُ أوّل الأمر. فلقد بدأ الآن بالتحرّك بثقة وبثباتٍ لا رَيْب فيه لن تستطيع الحصول عليها أبداً. وتردّدَتْ مجدّداً ضمن عالَمِها قبل أن تخطو نحو الضوء ونحو المتعة اللّذين يصلانها مِنْهُ.

Twitter: @ketab_n

السّريناد الزّائف والسَّهَر

كانت قد التَقَتْ رومان في سوق موسميّة في قرية "سانت ديديه سير روشفورت"، وتمّ زواجهما بعد ساعة من المساومة مع عمٍّ لها كان قد ربّاها بعد موت أهلها. وخلال الربيع كانت تقام احتفالات الزّواج في طول قرى الوادي وعرضها، في بيريز وفي شالون. كانت ماري ـ نيج في السادسة عشرة من عمرها بينما كان رومان في عقده الثّالث عندما جَلَسَا إلى طاولة صغيرة بينما كان الكاتب ينصّ عقد الزّواج ويكتبه.

وفي تلك العشِيَّة تَلَقَّت الرّابطة الهشَّة القائمة بينهما الإزدراء من عصبة من عشرين شخصاً أو أكثر شكّلوا فريق السّريناد الزائف، إذ كان الوقت قد حان حيث يُعْتبر أيّ اتّحاد خارج المألوف مهيناً للمجتمع، فالعرس الذي يتمّ حالاً بعد وفاة الزوج أو الزّوجة، والزّواج الذي يحصل بين اثنين من الزّناة أو الزواج الذي يقوم على اختلاف كبير في السّن سوف يؤدّي إلى تحقير العروس والعريس. وإذا كانت المرأة غنيّة والرّجل فقيراً، تُرْفع الرّايات القائلة "إذا كانت الصُّرَّة كبيرة سيتزوّج الرّجل دُبّاً". وإذا تزوّج زانيان كانت تماثيل عرض الملابس المنتفخة تُحْمَلُ لتشقّ طريقها بجانبهما. بعض هذه السّريدنادات كانت تدوم لمدّة شهرين، وبعضها الآخر، إذا ما دُفِعَ جيِّداً لأفرادِها، ساعات قليلة. وكونهما فقيرين وليس لديهما قوّة إجتماعيّة، أصبح رومان وماري ـ نيج

Twitter: @ketab_n

ضحيّتَين سهلَتَين. ورغم أنّ رومان كان رجلاً قوياً، فإنّ المانيكان أو التّمثال الذي مَثّلَهُ صَوَّرَهُ عجوزاً ضعيفاً وصُوِّرَت زوجته الصّغيرة كطفلة على ركبَتَيْهِ. وَرُوِيَتْ قصص من الماضي الحديث عن أزواج دَفعهم السّريناد إلى الغضب أو الجنون.

ففي إحدى الحالات طَعَنَ زوجٌ أهين فوق العادة أوّل السّاخرين منه حتى الموت وذلك بواسطة المخرز. وما بدأ كزواج انتهى بالإعدام.

طوال اللّيل كان منزل عَمِّها محاطاً بالمشاعل والطبول ونهيق الأغاني الإباحيّة. ووقف رومان لساعاتٍ قرب النّافِذة، ثمّ انساب خارج المنزل قبل الفجر وهاجم رجلين كانا قد تُرِكا ليراقِبا المنزل بينما كان الآخرون نِياماً. فخنق أحدهما حتّى أُغْمِيَ عليه وكسر مِعْصَمَي الآخر. وقف وحيداً مع الجسدَيْن المرميَّيْن في المرعى. وكانت الخامسة فجراً والظّلام لن يدوم سِوى لفترة قصيرة أخرى. خَرَجَتْ عروسُهُ حامِلةً مصباحاً فأطفأه ثمّ وضع يديه على كتفيها ولِبُرهة ألقى برأسه على رأسِها. وكانت ماري ـ نيج تلبس ثياب صبيّ وقصّت شَعرها قصيراً. لم يعودا إلى المنزل، بل أَرْسنا حصان عمِّها ومشيا به بصمت عبر القرية في آخر الظُّلمة. وعندما أصبحا في الحقول العارية رَكِبَهُ ومدّ يده نحو الأسفل رافعاً زوجته في الهواء وَأَرْجحها خَلْفَهُ على الحيوان. سارا جنوباً مع الصّباح حيث بدأت الحقول تشعّ حولهما.

وبالكاد توقّفا في منطقة الآرديش، آكِلَيْنِ ما وجداه على الآجام والأشجار وفي حدائق الخضار. وعندما اقتربا من نيمس استدارا غرباً وسافرا عبر مناطق التارن والهوت غارون، وعندما وصلا إلى الغِرسِ كانَت قد نَزَعَتْ عنها تنكّرها كصبي وَلَبِسَت فستاناً قطنِيّاً أَصْفَرَ. ووجدا

Twitter: @ketab_n

عملاً في مزرعة فاكهة وناما مع العمّال الآخرين في حظيرة مزدحمة. ولم يكونا قد ناما بعد معاً كحبيبَيْن، كزوج وزوجة. وفي اللّيلة الثالثة أيقَظَها وذهبا إلى دفء حظيرة منزل ملاصِق. استيقظت الحيوانات بسرعة، مدركة وجودهما فخيّم صمت مُوَتِّر. فذهب إلى كلٍّ من الحيوانات ليهدِّئ من رَوْعِها عن طريق ملامسة جبينِها. سبعة أحصنة. ثُمَّ عاد إلى الفتاة البالغة السادسة عشرة من عمرها والجالسة على مقعد تراقِبُه. وَمَلأَ ضوء القمر القادم من الخارج مدخل الحظيرة المفتوح مُدَحْرَجاً. وعندما قَرْفَصَ لاحظ أنّ الأرض هي من التِّبن الموحِل. فذهب إلى البرميل المملوء من المطر قرب المدخل وغسل يديه وذراعيه ورقبته ثمّ وقف في ريح اللّيل لِيَنْشَفَ. خَرَجَتْ وَوَقَفَتْ بِجانبه مُغَمِّسَةً ذِراعيها النَّحيلَتَيْن بالماء البارد، وَغَسَلَتْ وجهها ثمّ غَرَفَتْ من الماء لِتَضَعَهُ على ساقَيْها.

كانت الأراضي حولهما زرقاء. وبعد سنوات حين كان رومان في السِّجن لقيامه باعتداء، كان يرجع بالذّاكرة إلى تلك اللّحظة وماري ـ نيج مُنْحَنِيَةً لِتَغْسِلَ ساقَيْها وَقَدَمَيْها بماء المطر وكان لجسدها لون أزرق خفيف، كما للحقول الخضراء ازرقاقها. وكان الشيءُ الوحيد ذو اللّون المختلف هو القمر. جعلها تتّكئ على البرميل وَرَفَعَ فستانها القطني الأصفر، لكنّها استدارت ناظرة إليه ومقبِّلَةً اليَدَيْنِ اللّتين كانتا قد هدّأتا من روع الأحصنة واحداً تِلْوَ الآخر وكأنّه يملك كلّ وقت العالَم وكأنّ تلك البهائم السّبع كانت المخلوقات المتحضِّرة الوحيدة التي قابلاها منذ زواجهما في ذلك المكان الذي بدا وكأنّه ينتمي إلى بلاد أخرى. ولمس حبور وجهها النّاعم الصّغير، ثمّ مسَّ رقبتها وشعرها الرَّطب والذي كانت قد نَقّبَتْهُ بِيَدَيْها. وَوَضَعَتْ كَفَّيْها على قميصه الخشن مُقبِّلَةً المثلّث

Twitter: @ketab_n

المفتوح فوق رقبته. وبعدها استدارت واضعة ذراعَيْها على حَافة البرميل الثَّخينة وقد حَوَتْ مياهُهُ القمر وَطَيْف وجهها. وتحرّك رومان ناحيتها، وفي الفترة التالية، بكلّ مفاجآتها وآلامها، كان أمامها القمر المسعور يتحرّك ويتكسّر إلى قطع صغيرة في المياه.

"مَنْ يأتي مِنَ الأماكن البعيدة يستطيع الكذب بسهولةٍ أكبر". لكن في اليوم الثاني لاحظهما شخص اعتقدا أنّه غريب، فَنَشَرَ فضيحة زواجهما ووحشيّة رومان. فغادرا المزرعة خلال نصف ساعة مع ذكرى ليلة الرّيف الأزرق. واقترح أن يسافرا كأخٍ وأختٍ، وَرَكِبا حصان عَمِّها متوجِّهَيْنِ أكثر نحو الغرب. وخلال الأسابيع القليلة التي تَلَتْ، نادِراً ما كانا يَجِدا طعاماً لِيَأْكُلاه، وفي نهاية الأمر توقّفت دورتها الشّهريّة. وفي المرّات القليلة التي مارسا فيها الحبّ حين كانا يتلامسان في آخر اللّيل وجدا القليل من المتعة وسط إعيائهما. فلقد كانا يسافران معظم النّهار، والشيء الوحيد الحيّ فيهما كان الجوع. وكلّ ما ملكاه كان عبارة عن وعاء جلدي ـ يوضَعُ فيه الماء لإرواء عَطَشِهِما في اللّيل. ولم يكن أيّ منهما يستطيع القراءة، فإذا رَغِبا في إيجاد عمل كانا يسألان الآخرين. إلاّ أنّهما بقيا كتوأمَيْن وَمُلْتَصِقَيْن بِبعضهما. والأسواق الزراعية الموسميّة التي زاراها كانت الأماكن الوحيدة التي عَلِما فيها البحث عن العمل. وفي قرية بارين، غربي آوش، وجدا نفسيهما وسط أصوات حشد كبير. وكان حولهما السَّحَرَة والحِرَفِيّون القادرون على نزع أسنانِكَ، والعرّافون الذين يميطون اللّثام عن مستقبلِكَ وكأنّه أفعى مختبئة. وَأَدْرَكَتْ حين رَأَتْ الأكشاكَ أنّهُ كان عليها أن تنتظر وتبيع شعرها الطّويل كي يُحَوَّل إلى شَعْرٍ مستعار.

Twitter: @ketab_n

وفي السّوق الموسميّ إنّ الشخص الذي يحمل خنزيراً حيّاً لأطول مسافة يربحه، وهذا ما فَعَلَهُ رومان، منهاراً بعد أن سَبَقَ الآخرين والحيوان بين ذراعَيْهِ. وباعه لمزارع ولم يكن قد نهض بعد عن العشب، إلاّ أنّه ما لبث أن غيّر رَأْيَهُ واعِداً إعطاء الخنزير للرّجل مقابل لا شيء إذا قدّم له الرّجل إيّاه عملاً. ووافق المزارع عارضاً على حامل الخنزير وأخته عملاً في حقوله ومكاناً يبيتان فيه داخل مخزنه. وبعد أيّام قليلة دعا ذاك الرجل رومان وأخته إلى سهرة في الجوار. تمّ الحشد الجماعي في مبنى مطليّة جدرانه بالكلس. فبدا الأمر وكأنّه سوق ليلي أو اجتماع رعيّة حيث جَلَسَت النّسوة في صفوف يخيّطْنَ ويطرّزْنَ ويقشّرْنَ التّفاح أو يبيّضْنَ الكستناء قرب النّار. وفي الخلف كان الرّجال يُصْلِحون أو يشحذون أدواتهم وهم يتبجّحون ويرمون دُرراً من الحكمة الجافّة. وجلس رومان معهم، يضع الأكياس والحبال من خيوط القنّب، حارقاً أطرافها. ومشت امرأة بينهم حاملة رَفشاً يحوي رماداً لاهباً، ومنه كان الرّجال يلتقطون الكستناء والبطاطا. وَتَبِعَتْها امرأة أخرى تحمل إبريقاً من النبيذ المُسَخّن والمُحَلّى.

تجعل السّهرة من المجتمع متماسكاً، فهي المكان حيث الجميع يتطوّع ولو كانوا مُتْعبين. وفي الخارج تقع الأراضي المتحَدِّيَة حيث بالكاد تنمو المحاصيل، وحيث الحياة دولاب يكرّر ذاته باستمرار، وبحيث تمتلك الحقائق البَدِيهيَّة الّتي يمرّرها الرّجال دناءَةً واضحة. "رعاية الخنازير في هذا العالَم ورعاية الخنازير في العالم الآخر". ولقد كان هذا المكان الوحيد حيث تناول رومان وماري ـ نيج الطّعام بطريقة جيّدة. وفي نهاية يوم عمل مضنى كانا حُكْماً في حالة من الإعياء، لكنّهما تبرّعا بساعات لهذه السّهرة بسبب توافر الطّعام. وكان

Twitter: @ketab_n

يراها عبر الغرفة قرب النّار منهمكة في غسيل اللّيل وكانت تبدو كطفلة بين النّساء الأُخرَيات. ولقد كانت المغازلات تأخذ مجراها في الأطراف نصف المُعْتِمَة حتى ولو سمع العشّاق مُصادَفَةً الحِكَم المُرّة عن الرّغبة. وفي هذا السّياق كانت ماري ـ نيج غالِباً ما تتلقّى محاولات الشباب أو الرّجال الذين في عمر رومان في الإقتراب منها، حين كانت تَعْصِر الأغطية الرّطِبَة وتنشرها لِتَنْشَفَ على ضوء النّار.

كانت تلك أكثر أيّام حياتها إثارة: فكان هناك مغامرة التنكّر، كما كان النَّوْم سهلاً، من دون خوف. وفي المستودع أو المخزن المكتظّ بالآخرين شَعَرَتْ بجدار من الأمان قرب رومان والذي اضطُرَّ أن يكون عُذرِيّاً في رعايته لها. وعندما رغبا أو احتاجا أن يمارسا الحبّ، فكلٌّ من الحاجة إلى الخصوصيّة والخطيئة المفترضة للحبّ الأخويّ اللّتينِ أحاطتا بالفعل المذكور جَعَلَتا من التوتّر والرّغبة شيئينِ رائِعَيْنِ. وكلّ أمنية لصوت صادر عنهما أصبحت مستحيلة واستُبْدِلَت فقط بنظرة نصف مضيئة. وكانت يده على ظهرها أثناء اللّيل كافية بالنّسبة إليها، خاصّة أنّ هذه اليد أَضْحَتْ ناعمة لِمُصاحَبَتِها هذا الحذر. إذن لقد كانت تستدير ببطء بعيداً عن تَوَجُّهات الآخرين الفظّة نحوها أثناء السَّهرة ثمّ تحدّق ناحية العتمة حيث العمّال كونها كانت تعلم أنّ رومان سيكون هناك يراقبها، فَتُعْمِلُ أصابِعَها في شعرها وتهزّ كَتِفَيْها (بمعنى اللاّمبالاة).

كانا ينتظران اللّيل فَتَقَعُ يَدُه على كَتِفِها، ثمّ يلامس المنطقة الناعمة غير الملموسة وراء ركبتِها. وكانا يستلقيان هناك كَأخ وأختٍ، صامِتَيْنِ وهادئَيْن باستثناء مَسِّهِ لها الشّبيهِ بالفرشاة. وإذا أضاء أَحدهم شمعة نبات الأَسَل فإن فيض ضوئها المغري الأصفر سيكشف عن تقاربهما الذي قد

Twitter: @ketab_n

يبدو أنّه حصل بطريقة عَرَضِيَّة أثناء نَوْمِهما، لكنّ ساعات الظّلمة قد غلّفَتْهُما. دَفَعَتْ نفسها إلى الوراء قليلاً لتكون بملاصَقَتِهِ وانتظَرَتْ فما كان منه إلاّ أنْ وَلَجَها وتشبّثَ بِوَقْفِهِ وركوده هذا غير راغِبٍ في إنهائِهِ. هَمْسَةٌ. وعندما شعر بذاته تقذف غطّت يده فمها لِيُسْكِتَهُ رغم أنّ كلّ الضوضاء كانت قادِمة من عنف تنفّسِهِ في أُذُنِها. وإذا ما أُشْعلَت شمعة الأَسَل في وسط المخزن الكبير، فإنّ وَضعِيَّة هذين الإثنين ستبدو عمليَّة خَنْقٍ يُتِمُّها أخٌ في نزاع قديم مع أخْتِهِ.

وفي البداية جعل هذا الوضع منهما شَقِيقَيْن غير معروفَيْن لبعضهما البعض، لكن لاحقاً، وهما معصوبا العينَيْن بهذه الطريقة عرفا، أثناء لعبهما الدّور، رغبات بعضهما الحقيقيّة. وما اكتشفاه ليس فقط الحبّ الزوجيّ بل الخطر الدّاهم للحياة المحيطة بهما. لقد ضُبِطا أثناء محاولتهما البقاء أحياء بين غرباء، وهما الغريبان عن بعضهما. ولقد رأيا أنّ أيّ شيء وكلّ شيءٍ هو عرضة للأخْذِ منهما. فلم يَبْقَ لهما شيء يتعلّقان به سوى واحدهما بالآخَر في هذا العالَم الحديدي الذي بدا وكأنّه يمتدّ أمامهما لبقيّة حياتهما.

Twitter: @ketab_n

رسالة غرام

عندما تُوُفِّيَت والدة لوسيان سيغورا، وذلك قبل زواجه بأسابيع قليلة، دَخَلَتْ الفاصوليا منزلَه، ولأوّل مرّة من دون أن تُدْعى أو توجّه لها دعوة، وَوَضَعَتْ كُرْسِيّاً قرب النَّعْش، واضِعَةً رأسها على خشب الصنوبر الأسود. ولم تكن لتتحرّك بعيداً، فلقد كانت تلك المرأة قد صادقَتْها كما أنّها كانت قد نَمَتْ بطريقةٍ سِحْرِيَّةٍ في كَنَفِها. وبعدها مع سَجْنِ رومان مؤخَّراً، وذلك كنتيجة لاعتدائِهِ على نَجّار في باران، كادَت ماري ـ نيج أن تخسر منزل المزرعة، لَوْلا أنّ والدة لوسيان بادَرَتْ إلى دَفْع الإيجار. وهكذا عندما كانت ماري ـ نيج تندب وتنتحب قرب النَّعْش، اعتقد لوسيان أنّها قد تكون في جزء منها خائفة أن تخسر منزلها. فأخذها جانِباً وأَعْلَمَها أنّ المنزل سيبقى معها لأنّه مستعِدٌ أن يدفع الإيجار. حَدَّقَتْ به بنظرة ازدراء وابتَعَدَتْ عَنْهُ. جَلَسَتْ على الكرسي مجدّداً واضعة رأسها على الخشب الصنوبري الأسود. وأدرك لوسيان أنّه قد أهانَها وأساء فهم حزنها. وبعد ذلك لم يَرَها لفترة طويلة، وعندما رآها رَفَضَتْ التكلّم معه. ولم يكن من شيء يستطيع قوله لِيُزيل هذا الضَّرَر.

في السّنوات الواقعة بين لقائهما الأول وزواجه كان هناك نسختان لا تُمْحَيان لماري ـ نيج لم يكن باستطاعة لوسيان أن يكيّفهما ويدمجهما في

Twitter: @ketab_n

نسخة واحدة، وكأنّه كان يحدِّق في مِجْسام (وهو أداة بصريّة) ذي خَلَلٍ ما. فهناك المرأة ذات السبعة عشر ربيعاً وهي ترتدي فستاناً قطنِيّاً أصفر، وكانت تلبسه باستمرار خلال تلك السنوات الأولى في الحقول، حاملة الماء من النّهر إلى حظيرة الحيوانات أو عند زيارتها لمنزلهما. وهناك الشّخص الذي كَبِرَ عشر سنوات أخرى والذي أصبح هذه المرأة والذي بالكاد يعرفها لوسيان. فإذا كان مدركاً لأيّ نموٌ في تلك السنوات فهو إدراكه لنمو ذاته ولنمو لحيته المؤقّتة ومن ثمّ المنزوعة ولشحوب وجه أمِّهِ. وليس إدراكه لها.

والآن مع هذه الإهانة، شعر بأنَّهُ قد خَسِرَها، فماري ـ نيج بالكاد تعترف بوجوده. لكن هناك لحظة في عُرْسِهِ عندما فاجأَته بملامسة كتفه وعندما استدار دَلَفَتْ بين ذراعَيْه من دون كلام لترقص. كان متفاجئاً أكثر منه مهذّباً، لكنها لم تبدُ مكترثة للأمر. وقال شيئاً ليكسِر التوتّر، ليس بالشيء المهمّ بل قليلاً من الكلام، ولكنّها لم تُجِبْهُ بل نَظَرَتْ إليه لتراقِبَ وَجْهَهُ ولتراقب هذا الصديق المهمّ الذي بات الآن متزوِّجاً في النهاية، مِثْلَها، والذي قال لها مَرَّةً إنهما لن يَتكلّما عن ذلك. وكان تعبيرها حينذاك نَظْرَةً غريبَةً وعالِمَةً يستطيع حيوان إعطاءَها، وكأنّها كانت تعلم أيّ عذرٍ أو تهرُّبٍ سَيُقَدِّمُ. ولِذا فهو قد نسي الكلمات لبقيّة الرقصة ولم يُمْسِك بها قريباً منه وذلك لكي ينظر إليها جيّداً. واستطاع أن يشعر "بالأورام" التي كانت أمّه قد تحدّثت عنها لسنواتٍ خَلَتْ. وكانت تلبس بالطّبع فستاناً قطنياً بسيطاً لكنّه لم يكن قد رآه قبل ذلك الوقت. وكان شعرها الأسود الكثيف مُمَشّطاً بعناية ونظيفاً كاللّيل. إنحنى إلى الأمام وتنشَّقَهُ، إنّها رائحة النّهرِ. لقد اهتَمَّتْ ماري ـ نيج، حتّى بهذه البساطة، بأَنْ تحضّر ذاتها لِعُرْسِهِ، وربما تكون قد أَمْضَت الوقت نفسه

Twitter: @ketab_n

كما العروس. وها هما الآن يرقصان، وكلاهما غير مهتمّ بالقواعد المتعلّقة بالخطوات وهما يتذكّران بأنّ أمّه كانت قد عَلّمَتْهُما كليهما كيف يرقصان الفالس.

وظنّ أنّ جمالها قد حلّ نتيجة لِتآلفها معه، رغم أنّها لم تعد الشّخص الذي كان قد كَبُرَ معه.

وعندما وضع صورتَيْها الذّهنيَّتَيْن ألمِجْسامُ جنباً إلى جنب، استطاع رؤية أصداء النّظرة، لكن كان هناك أيضاً صراعٌ داخله وهو الإعتراف بأنّ داخل هذه المرأة هناك طبيعة خاصّة بها كان يشعر دائماً بأنّه قريب منها. ولم يكن ذلك مجرّد وجهها أو جسدها. فلقد افترض أنّه سيتزوّج الوجه والجسد اللذين يبغيهما ويرغب بهما. لكنّ هنا يوجد شيء أكبر بكثير وأكثر إرباكاً؛ هنا يوجد حقل بأكمله لكنه أكثر حميميّة، ويوجد قلب يتخطّاه وقد اختار بورتوس من بين كلّ الفرسان وهو لم يفهم أبداً لماذا اختار قلبها ذاك.

وعندما انتهت الموسيقى رآها وكأنّها امرأة في قصّة غرامِيّة تسحب من كِمّها القطني رسالة لتدفعها في جيب صدره. وقد تحترق هناك غير مقروءة لساعة أخرى فيما كان يرقص ويتحدّث مع الصّهريْن اللذين لا يهمّانه واللذين وقفا في طريقه، كما أنّه لا يهتمّ أبداً بالرّباط الدّموي الذي يربطهما به أو بزوجته. إنّ كلّ شيء مهمّ له بات فجأةً موجوداً في فعاليّة ماري ـ نيج وقوّتِها. كان بإمكانه معرفة إفريز حفلة العرس السّطحيَّة التي أحاطت بهما والتي قد تستمرّ، لكنّ المرأة التي عرفها أفضل من الكلّ ـ لم يكن يفهم كيف ستتصرّف أو تتجاوب معه خلال أسبوع أو بعد ساعة. فهي قد خَطَتْ نحو أكثر من ذراعَيْهِ للرّقص وكانت

Twitter: @ketab_n

قد انتَظَرَتْ حلول الثواني المُحَدَّدَة لجعل ذلك مُمْكِناً ومقبولاً إجتماعِيّاً. (موكب العرس في ضوء الشّمس والمائدة الأبديّة) وسلَّمَتْهُ "رسالة غرام" أو ما شابَهَ ذلك وكأنّهما في إحدى روايات دوما، قالت المُدَوّنَة التي كَتَبَتْها "وداعاً"، ثمّ قالت "مَرْحباً". ثمّ ذَكَّرَتْهُ "إنّ الرسالة المرسلة بواسطة الحمام الزّاجِل إلى لاهاي تستطيع أحياناً تغيير كلّ شيء". وكإحدى الشّخصيات الشّريرة جزئيّاً والبطلات المتغيّرات دائِماً، قَلَبَتْ قَلْبَهُ وَغَيَّرَتْه في اليوم الخطأ وغير المناسب.

Twitter: @ketab_n

عَمَلُ اللَّيْل

مرّ وقت قبل أن يراها ثانية. فلقد ترك لوسيان وعروسه مارسيّان متوجِّهين شمالاً نحو غابات جنوب بريتاني ثمّ ارتحلا إلى باريس. وعندما عادا بعد ثلاثة أشهر عادت قساوة الرّسْميّات في علاقته مع ماري ـ نيج. كان قد دخل في صلب مملكة الزّواج التّنازليّة. كما كان قد لاحظ أنّه إذا أراد أن يكون أكثر من رجل متزوِّج فعليه أن يأخذ عمله بطريقة جَدِّيَّة.

كان يكتب خلال أوقات الصباح المتأخِّرة وفي فترة بعد الظُّهر وذلك في ما كان مشغل زوج أمّه. إنّ المنظر من نافذة تلك الغرفة ما زال يتضمَّن معظم العالَم الطّبيعي لطفولته، رغم أنّ النّهر قد أصبح الآن مَخْفِيّاً بسبب تزايد نموّ الأشجار. وبعد العشاء، حين تتقاعد زوجته ويرتحل الزوّار، كان يعود إلى هدوء المكان وَعَتْمَتِهِ، وقبل أن يضيء المصباح، كان يسمح لنفسه أن يعي رائحة زيوت صانع الساعات والتي كانت ذات مرّة تملأ المكان وفضاءه. وجلس هناك يَزِنُ ما كان قد كُتِبَ وَحُلِمَ نِصْفِيّاً خلال النّهار، حتّى يقع على جزء من جملة أو شيءٍ غير مُلْتزمٍ بشيءٍ، ما قد يفتح أمامَهُ باباً. وكان يعمل معظم اللّيل شاعِراً بالظّلام ما وراء مصباحِهِ. القلم والدفاتر فقط كانت حَيَّة، بينما يقع بقيَّة العالَم في مكانٍ ما في هُوَّةِ الأحلام. وكان بين الحين والآخر يسمع

Twitter: @ketab_n

كلمات محكِيّة على المِخدَّة في غرفة نوم بعيدة، وهذا دليل على وجود حقيقة أخرى أو واقع آخر، كَمِثل جذور شجر العَرْعَرْ المُشَلْشَة في باطن الأرض. قَرَأَ عالِياً لِنَفْسِهِ بالطّريقة التي كانت تقرأ لَهُ فيها عندما كانت أُمُّهُ حَيَّة وكانت ماري ـ نيج حينها في السابعة عشرة من عمرها، كما كان هناك بلزاك الذي كان صعباً عَلَيْهِما. لقد دخلا العالم الرّائع بتِلك الطريقة. فهل هو الآن في مكانٍ كهذا؟

فتح الأبواب الزّجاجيّة ومشى في اللَّيْل فَمَلأَتِ البرودة قميصَهُ. ولاحظ مربّع نافِذةٍ مُضاء على منحدر التّلّة. كان هناك حبل البَهْلَوان مُعَلَّقاً بين المزرعتَيْنِ وتَحْتَهُ تقع وهدة لا قَعْرَ لها.

Twitter: @ketab_n

الصُّهْران

لم يكن متأكّداً أبداً ما جعل منه يكتب. كان قد شاهد والدتَهُ ترقص في عرسها مع صانع السّاعات، فقط خطوات متعانقة قليلة. ومرّة مع هِرَّة ـ والدته ترقص مع هِرَّة في المروج، تذكّر ذلك. أضحى ذلك بالنسبة له مَثلاً مُشاهَداً لذيذاً. كانت طريقة لدخول العالَم بِنَفْسِهِ كما هو.

إنّ النّساء القليلات اللّواتي عَرِفْنَهُ جيّداً (الأم، الجارَة) رَأَيْنَ كيف أنّ نجاحَهُ الأوّل غيَّرَهُ. تحوّل عن اللاّيقين إلى شباب أكثر تصميماً وخصوصِيَّةً. ولقد مَوَّهَ حياتَهُ وغطّاها. فبدا لَهُنَّ كمخلوقٍ انسلّ إلى حديقة مغلوطة من الشُّهْرَة، وأصبح الآن في مكان مُضاءٍ جيّداً كحدائق الحيوان تلك في البلاد البعيدة حيث يستطيع المرء في ساعات اللّيل أن يشاهد سلوك الحيوانات التي تفترض أنّها محجوبة بالعتمة.

وعندما كان على وشك الزّواج نصحتهم عائلة خطيبتِهِ برؤية قارئ بخت، وهو شخص معروف بتنبّئه بالأقدار المحدّدة الصّحيحة لأولئِكَ القاطنين في القرى. قرأ الرَّجُلُ فَلَكَهُما وهمس ببعض الجُمَل المأمونة حول المستقبل. وكانا على وشك العودة إلى شمس بلازيبه عندما أمسك الرّائي بكمّ لوسيان سيغورا سائِلاً إيّاه "هل أنت بستانيٌّ جيّد؟ "كلاّ" ، أجابه، رافِضاً أن يكشِفَ عن مِهْنَتِهِ. ونظر الرَّجُل إليه غير مصدِّقٍ، ثمّ أَفْلَتَ ذراعَهُ. وترك لوسيان وزوجته المستقبليّة الحجرة المسوَّرَة بالسّتائر

Twitter: @ketab_n

ومشيا شابكَيْن ذراعيهما لمدة ساعة أو اثنتينِ على طريق محاط بنبات الخشخاش وَدَلَفا إلى زواج أدّى إلى ولادَة ابنتَيْنِ. كان هناك سنوات من الإنسجام، ومن ثُمَّ المرارة، وَمَنْ يعرف متى تحوّل ذلك الخطّ وفي أيِّ ليلة وفي أيّ ساعة ونتيجة أيّ خِيانَة. إنْزَلَقا على ذلك كما على نتوء خفيف على الطريق، أو كما يَعْبُرُ مركبٌ صغير خطّ الإستواء غير مُدْرِك لذلك. وفي الحقيقة لقد انقلب كلّ عالمَهما رأساً على عَقِبْ.

نُشِرَت مقالات في المدن حول سيرَتِهِ الكِتابيّة وحِرْفَتِهِ وطبيعة أرضِهِ وفقدانه لأصدقاء حميمين وطبيعته السِّرِّيَّة والمتعدِّدَة وروحِهِ. وَأُعيدَ إصدار خرائِط عن مدينة بانيير دي بيغور ومنطقة غاسكوني المِزْوَحيّة وبلدة مارسيّان. وخرج كلّ موظّف محلّي وجار لحّام وساعي بريد من زوايا عالم لوسيان سيغورا الهادئة بقصَّةٍ أو عِبْرة تكشف أسرار صمته. وتبيَّن أنّ زوجته احتفظت بمذكّرات غاضبة تجاهه. وكان قد افترض أنّ علاقتهما عاطفيةِ المنحى. وقرأ صفحات قليلة فَأَدْرَكَ كيف أنّ كلاً منهما كان خَفِيّاً بالنِّسبة إلى الآخر. ولقد صُوِّرَ على أنّه الرَّجل المشوَّه. لقد كان الحيوان اللّيلي في حديقة حيوانات اللّيل، وقد كُشِفَ عنه في العتمة مُزَمْجِراً وعاضّاً أترابه المخاليق وَمُلْتَهِماً أولادَهُ.

وفي بعض الأحيان كان يخسر ذاك الجزء المهمّ منه والذي سمح له أن يشعُرَ بالأمان. سيغورا ـ أي الآمِنْ. إنّ سُخْرِيَة اسمِهِ لم تبارِحْهُ. فلقد تبخّر عالَمُهُ الآمِن. وكانت إحدى بناتِهِ، من المحتَمَل لوسيت، تدخل رُدْهَتَهُ المُعْتِمَة لتُشاهِدَهُ وقد غطّى كَتِفَيْهِ حِرامٌ مُرَبَّع النَّقْش ورقيق. وهي قد أُرْسِلَت لتجعله يتكلّم وَلِتَجْلُبَهُ بعيداً عن ذاتِهِ. بابا! وكانت أُمُّها قد أَصَرَّتْ عليها أن تُدْخِلَ مَعَها صحن طعام، لكنّ الفتاة لم تَضَعْهُ على

Twitter: @ketab_n

حُضْنِهِ. كانت في السّادسة عشرة من عمرها. رَغِبَتْ في أن تكون مرافِقَتَهُ ولا مرسالاً مطلوباً منها فقط أن تقودَه في الظُّلْمَةِ. لقد عَرِفَ الظُّلْمَة جيّداً بكلِّ مطبّاتِها. جَلَسَتْ على الأرض وظهرها مُسْتَلْقٍ على ساقَيْهِ كما يفعل الكلب السَبَنْلِيَلِيّ، وكأنّها مملوكة من قِبَل جسده الصّامِت. وتذكر لوسيت حرارةَ الغرفة وَضَجَرَ السّاعات هناك حتى أنّها كانت تلاحظ كلَّ حركةٍ صغيرةٍ مِنْهُ وكأنّها نوع من الكلام. وَبَدَأَتْ تتكلّم عمّا كانت تخافه وما دَفَعَها إلى الغيرة وما تخيَّلَتْهُ عن المستقبل. وفي آخر الأمر تَمْتَمَ لوسيان كيف تصرّف هو ذاته عندما كان قد ضُبِطَ في مكانٍ مشابهٍ أو مع خوفٍ مماثِل. إلاّ أنّه لا يتذكّر أبداً مَنْ مِنَ الفتاتَيْنِ بالضّبط كان معه ذاك النّهار الطّويل في الغرفة المضاءة بنورٍ خافت من النافذةَ الصّغيرة عندما شعر أنّ الحِرام الرّقيق كان جِلْدُهُ الوحيد وحين كان التنفّس الحَذِر يُطلق رُجَمَ ما كان يحتويه.

وتذكّر علبة أقلام رصاص معدنيّة كان قد امتلكها كولد، كما تذكَّرَ عامِلَة فرنسيّة شابّة كان قد شاركها مَرَّةً مقطورة قطار، وأسماها كلوديل في ثلاث من كُتُبِهِ. وَأَخْبَرَتْهُ أنّ صحبتها خَطِرَة. وكان الرّجُل قد جَعَلَها أسيرة، غيوراً من صداقاتها، وَمُسْقِطاً إحساسها بوجهة نَظَرِها. ولم يكن هناك من أحد ليقدِّمَ رأياً مغايراً ينقض رَأْيَهُ. جلس لوسيان أمامها في مقطورة القطار وتكلّما وكأنّهما من أقدم الأصدقاء في ليلة حميمة. وبَدَتْ حكيمة في كلِّ الأشياء إلاّ في قبولها لهذا الرَّجُل. فكم من السّهل أن تَغْلَقَ في طيّات شخصيّة إنسان آخر.

وتساءَلَ إذا كان كذلك في علاقته مع زوجته، مُدْرِكاً كم من الغموض يكتنف اتّحادَهُما. وعندما رجع إلى المنزل فَكَّرَ بِدَوْرِهِ ضمن

Twitter: @ketab_n

العائلة، ملاحِظاً العنصر المُهَيْمِن في ذاتِهِ. وكان صحيحاً أنَّهُ وجد نفسه أكثر تعاطفاً مع المرأة التي تكلَّمَ معها في القطار خلال تلك السّاعات الثلاث وأكثر ترابطاً معها لدرجة أنَّهُ افْتَقَدَها في ذلك الحين رُغْمَ حياتِهِ الناشطة. وبدأ يبتكر أيّام هذه المرأة ولياليها رغم أنَّه قد دخل خطوة واحدة في حياتِها. وفي خلال أكثر من سنة كتب عن كلوديل وصديقها المحارب والغُرَف التي عاشا فيها وزياراتِها لملاقاةِ كاتب في آوش بداعي الرّغبة أو لقضاء بعض حاجات التَّرَف الصغيرة. راقَبَها ووصف وَجْهَها المُتْعَب أثناء النّوم، كما وصف إيقاع تنفّسها أثناء الإثارة الجنسِيَّة وقراءتها المهووسة للكتب التي كان الكاتب ـ العمّ أو الخال يهرِّبُها لها. عاش تقريباً كُلّيّاً في عالَمِها لمدّة عام. وعندما أنهى الرّوايات الثلاثِيّة عن كلوديل، فتح باب مكتبه وشعر بأنّ مرحلة زمَنِيَّة قد مَرَّت. ووجد فوضى خَلَقَها صهراه حوله في مِلْكِيَّتِهِ في مارسيّان. ولقد أصبح مسؤولاً عن عائلة متعدِّدة الرؤوس، وهذا ما جَعَلَهُ غير قادر على التّصرّف بمفرده أو لِشَخْصِهِ بعد الآن.

من الصّعب معرفةُ سيّئاتكَ من خلال صِهْرِكَ. كان عليه أن يراقب الشّابّ من منطقة أكثر حياديّة. فلو كان لوسيان موضوعيّاً تجاه ما كان يشاهده في الشّابّ، لكان أطلقَ الإنذار وأحاط بالوحش. ولربّما كانت ابنته كرهَتْه خلال فصل كامل، لكنّ كلّ شيء يتّضحُ لاحقاً ويُحلُّ. غير أنّه شعر بأنّ الشّابّ قد سخر منه وخدعه بدهائه. ذاك الشّاب كان شاعراً في طور النموّ، وقد لاحظه لوسيان مرّةً يتهكّمُ بدوره الأبويّ الّذي لم يؤمن به ذاك الفتى طالب الزّواج لِلَحْظة، تماماً كما أنّ لوسيان لم يُصدّق إطراء الشابّ ومحاولاته في ملاطفة العائلة.

Twitter: @ketab_n

إلاّ أنّ الحقيقة حول ما كان يجري كانَتْ أكثر فوضويَّة. فابنتُهُ لوسيت البالغة الثّانية والعشرين كانت مخطوبة إلى هنري كورتاد، بينما كانت ابنتُهُ تيريز، وهي في التّاسعة عشرة من عمرها، يغازلها الشّاعرُ الشّابّ بيار لوكرا. وبمراقبة هاتين القصّتين الرّومنسيّتين من مَنْظورِ

أبويّ، استطاع لوسيان أن يلاحظ حقيقةً أساسيّة. فبيار لوكرا كان مُنْجَذِباً أكثر إلى لوسيت الرّقيقة والمهذّبة، ولم يكن باستطاعتها، بكلّ وضوح، أن تتفلّت من أيّ نظرة كان يرمُقُها بها. وراقَبَ لوسيان حركاتِهِما المخنوقَة فَشَهِدَ على ضغط اليد أثناء تمرير منديل وعلى التّحديق المُطوَّل عندما صعدت لوسيت إلى قارب التجذيف وعلى المشاركة في الأغاني أمام البيانو. كما أنّ الصّورة الفوتوغرافيّة قد سجّلت كلّ شيء. فخلال تجمُّع عائليّ حيث كان الجميع ينظُر إلى الكاميرا بجديَّة وحيث لم يكن أحدٌ ينظُرُ إليهما، حدّق بيار ولوسيت كلاهما بالآخر وبوضوح، مُتَناسِيَيْنِ شهادة الكاميرا عليهما. واحتفظ لوسيان بهذا الدَّليل المتمثّل بهذا التّحديق الطّويل في مَشْغَلِهِ.

ربّما كان عليه أن يبقى صامتاً مع تلك المعرفة. فليس من مُوجب الوالدِ أن يُراقب أماكن أبنتيه عوضاً عنهما. فالأولاد النّاضجون لم يعودوا أولاداً؛ هم يعرفون أكثر ممّا يبدو عليهم، وباستطاعتهم التّحمُّل أكثر ممّا يظنّ الأهل. لكنّ لوسيان حمل هذه الخيانات على منكبيه، مُنْتَزِعاً كلّ دليل بالتّملّق من بين الجماعة المتحرّكة حوله. كان العاشقان يحبسان نَفَسَيْهما عندما كان لوسيان يمشي في ممرّات المنزل الكبير أثناء اللّيل. وكان ذاك الفتى ذا وقاحة ويملكُ سحرَ الوصوليّة، وبطريقةٍ مُلَطَّفة، كان شاعراً جيّداً. لم يدرِ لوسيان سيغورا ماذا يفعل.

Twitter: @ketab_n

وعندما أفضَت لوسيت لوالدها بأنّها حاملٌ وبأنّ موعد عرسها يجب أن يُقَدَّمَ، أصرّ لوسيان على أن يتمشّيا عبر الحقول ليبحثا الأمر. إلاّ أنّ لوسيت عندما كانت وحدها معه رفضت أن تعترف بوجود بيار ضمن أحاسيسها، وحدّقَت بغضب والدها الظّاهر حينما ذكر إسمَ الشّاعر الشّابّ واختبأت وراء ذكرِ حسنات خطيبها ثمّ ذكرت بطريقة عَرَضيّة احتمال زواج أختها في المستقبل القريب. وبدأ لوسيان يعيد النّظر في شكوكه فلربّما بَهُتَتْ حالته الذّهنيّة عبر السّنين. كان سيرهما قصيراً. وتزوّجت لوسيت بعد ثلاثة أسابيع، وتصرّف أثناء العرس كوالدٍ راضٍ. حَسْبَ علمِهِ كانَتْ قد أنهَتْ علاقتها بذاك الشاعر المُخادع الموهوب.

بعد ذلك بفترة قصيرة، أصدر بيار لوكرا سلسلة متميّزة من القصائد مُهْداةً إلى زوجته المستقبليّة، تيريز. وكانت تلك الأشعار مُمَوَّهة بدرجة كافية لمنعِ أيّ تحديدات جسديّة، فامتلَكَتِ القصائد صفةً كونيّة. لكن، في الوقت عينه، كانَتِ العاطفة ضمن الأشعار تَفْطِرُ القلوب بفيضها. وحالاً احتفت باريس بالكاتب الفتيّ، وأدّى كلّ ذلك إلى صوغ مشاريع زواجٍ ثانٍ. كانت تيريز مبتهجة وكانت والدتُها فرحة. وشعر لوسيان بالحمّى تجتاحُ المنزل، إلاّ أنّ كلّ ذلك كان تصوُّراً خاطئاً.

راقبهما واستمع إليهما لكنّهُ لم يُدرِكْ أيّ حقيقة مُغَايرة، فالصّورة الحقيقيّة كانت الصّورة الفوتوغرافيّة في مكتبه حيث راقب العاشقان بعضَهما ببساطة واضحة. لقد اكتسَحَ ذلك الرّجل منزلهم وكأنّه مَحْمِيٌّ بتعويذة. ولم يكن باستطاعة لوسيان التحكّم بالأمر. فلقد كبرت لوسيت بتهذيب ونعمة طبيعيّين. وكانت تقوم عن كرسيّها لأيّ زائر أو آتٍ جديد. وكانت مُصمّمة أن تُصبح كاتبة كوالدها، فكانت تُحسّنُ نفسَها باستمرار

Twitter: @ketab_n

لدرجة الكمال. تماماً كما كانت تمحو أخطاءَها الكتابيّة بعناية لتُقدّم قافيةً أو مجازاً أفضل. وفي السّنوات الأخيرة كانت أيضاً تساعدُ أباها في إيضاح مشاعره المنبتّة في أعماله. أمّا هو فراقب يدها النحيلة والصّغيرة وهي تُزيلُ التّعابير المُبهمة الّتي احتوت عبارة ممحوّة في إحدى صفحاته بحيث تستطيع كتابة الكلمات الأكثر بساطةً، سائلةً إيّاه بعينيها بين الفينة والأخرى إذا كانت كلمتُها أفضلَ. وفي بعض الأحيان، في عمل تأليفيّ مُعَيَّن، كبحث فلكيّ كتبه فلاماريون، كان لوسيان يشتري نسختين وذلك كي يقرأهما ولوسيت في الوقت عينه. وهكذا يستطيعان تَشَارُكَ أرضيّةِ الكتاب نفسه حيث يقوم كلٌّ منهما بالتجوّل فيه، معتقداً أنّها سَتُفَكّر مثله.

لكن، خلال الأشهر المنقلبة على جهتي كلٍّ من العرسَيْن، شعر بأنّ كلّ شيء يتغيّر. وعَلِمَ أنّ لوسيت، رغم عدم رغبتها بأذيّة أختها، كانت تدخل غرفة نوم مَوْعُوذ تيريز لتُرضي رغباتها في العتمة. وكانا يمارسان الحبّ مُتَنَكّرين في إطار مركبة عموميّة فرنسيّة متجوّلة. وكانت لوسيت تتواجد تحت دوش الحديقة حيث اعتادت أن تستحمّ عندما كانت طفلة ـ في ساعة مُحدَّدة، بعد أن تُوْصِدَ البوّابة بشريط أو حبل، مُدرِكَةً أنّه سيكون موجوداً وقد تعرّى. كما كانا يدوزنان رحلاتهما إلى باريس حيث يشربان الكحول وينامان معاً وهما سكرانين في غرفة الفندق. وكانا يستهلكان القهوة المرّة ليبقيا مستيقظين طوال اللّيل وهما يكتبان. كانا حذرَيْنِ ولكن ما من شيء استطاع تفريقهما.

فضلاً عن ذلك، كانت لوسيت قد تزوّجت هنري كورتاد اللّطيف والواهن، أليس كذلك. رغم ذلك، ها هو طالبُ يدِ أختها الذّكيّ والسّريع البديهيّة والمُضْنى وصاحب الرّوح المرِحَة مع كلّ أفراد عائلتها

Twitter: @ketab_n

وليس معها فقط (وهذا ما أحبّتهُ لوسيت فيه). لقد خَدَعَهُمْ جميعاً كي يكون قربها.

"إذا لم تَفْسُخي خطبتَكِ لتتزوّجيني"، حذّرها بيار لوكرا، "فإنّني سأتسلّلُ إلى حصن عائلتك بأيّ طريقة مُمكنة".

"أتحدّاك أن تفعل ذلك"، أجابته. "سأتقدّم بطلب يد تيريز،" قال لها، "وإذا لم ترضَ بي، فسأصبح مُهندساً معمارياً لأبني منزلاً لوالدك، أو سأصبح بُستانياً في هذا العقار".

"السيّدة جارتنا تهتمّ بالحديقة". "إذاً، سأكون كاتب سيرة والدك".

"هو لا يرغب بأيّ سيرة ذاتيّة، فهو مشهور كفاية".

"إذاً، سأجعلك حاملاً وَلْتُفْتَحْ أبوابُ الجحيم".

وبالكاد وُجِدَت قوانين لهذين الإثنين، بل قُلْ كان هناك قانونٌ واحد ـ أيّ شيء يسمح لهما بالبقاء معاً. "إذا رُزِقْتُ بولد فهو حتماً ابنُكَ"، قالَتْ له. وهذا كان القانون الثّاني.

لقد قبلت كلّ شيء يخصُّهُ واستماتت في سبيله. أريد... دعيني. هذا.

هنا؟

أجل.

وركعَتْ على الأرض المقلوبة، فقد كانا في حقل أحدهم، وقذف في فمها، ثمّ نهضت مجدّداً. وفجأةً، ظهر العالم حولهما.

كان لوسيان في منتصف الطّريق يصعد الدّرج إلى برج الحديقة عندما نظر إلى أسفل ورأى ابنته الحامل تستحمّ تحت الدّوش وهي

Twitter: @ketab_n

مَحجوبة جزئيّاً بواسطة شجر القضبان. ومستعملو الدّوش كانوا قلّةً منذ أن كبر الأولاد. عندما كانوا صغاراً، كانت العائلة بأسرها تستحمّ هناك خلال أشهر الصّيف. توقّف لوسيان وراقب حركة يدي لوسيت السّريعة بينما كانت تضع الصابون على جسمها، وحالاً، في تلك اللّحظة شعر بالسّعادة والرّاحة. لقد قبل نوع الحبّ الّذي كان ومن أيّ مصدرٍ أتى، فهو في يومٍ من الأيّام كان، حقّاً، أحمق مثلهما. ما الضّرر من ذلك؟ ففي النهاية، ساد النّظام حتّى من خلال ذلك.

كان متأكّداً أنّ ابنته قد حبلت من بيار لكنّ الأمور ستكون على خير ما يُرام. قد تشتعل الرّغبة أحياناً في أغرب الغرف نصف المضاءة، لكنّ العائلة بطريقة ما ستستوعب ذلك. ولقد عرف ذلك من حياته الخاصّة. وأكمل صعوده على الدّرج الحديديّ الشّاهق، ونظر إلى الأسفل مرّة أخرى فرأى لوسيت تمرّر يديها الرّطبتين عبر شعرها البنيّ الفاتح فيسودّ. لكن يبدو أنّها سمعت شيئاً فاستدارت ثمّ انحنت، فخطا جسد بيار لوكرا العاري والنّحيل بين لوسيان وبينها.

ما كان بريئاً، واحتفاليّاً، جعلَ منه فجأةً مختلساً للنّظرات. إنبسطت ذراعا ابنته وكفاها المفتوحتان على الحائط الرّطب بينما شدّ بيار وِزكيها البيضاوين وكتفيها نحوه وحفر جسدُه في جسدها أيضاً وأيضاً. وكأنّها كانت مركز الكون الحقيقيّ وفكّر لوسيان بيدها الصّغيرة وهي تدفع بعيداً بقايا ما مُحِيَ على صفحاتِهِ.

إستدار بسرعة ونزل سلّم الدّرجات إلى مستوى الأرض، إلى وجهة نظر الإنسان الطّبيعيّة. فعلى ارتفاع عشرة أمتار، ترى فوق الجدران وتشاهد منزلاً مَكْشوفاً بطريقة غير متوقّعة وتصبح كاتباً وسط السماء.

Twitter: @ketab_n

وهذا ما دعاه الفنّانون اليابانيّون "بتقنيّة السقف المفقود". لقد لُعِنَ بالقوّة الشّاملة، فهو قد رأى حقيقة علاقتهما الغراميّة الفجّة. والبنت الّتي كان قد حملها بين ذراعيه أثناء كابوس طفوليّ أصبح لديها الآن حاجات ناضجة.

وهذا شيء ما كان على الوالد أن يشاركها به، رغم أنّه كان قد استحمّ كشابّ مع الشّخص نفسه تحت صنبور الماء نفسه.

كانَ حينها طولها يصل إلى ركبته.

كانت ليالٍ يوقظ فيها لوسيان نفسَهُ على جموح ابنته فكيف تطوّرت هذه الإبنة الّتي عرفها مُطيعةً وذات سلوك جيّد إلى شخصٍ كهذا؟ هل الأمرُ ببساطة أنّ بيار هو الرّجل الّذي طلبته فوق أيّ مبدأ آخر؟ هناك هذا الفحم الحيّ من الرّغبة على لسانها فغيّرها لدرجة أنّها لم يعد باستطاعتها الإحتماء بقشرة العائلة. وأدرك أنّه أحبّ أكثر هذه الإبنة المتكبّرة والمتمرّدة ورفيقه فلاماريون الّذي كان قد قفز فوقه إلى حياة ذاك الغريب الخَطِر وهو رجل لم يكن باستطاعته أن يحبّه لولا معرفته أنّ لوسيت كانت قد وضعت نفسها في باطن يده تماماً كما انحنت إلى الأمام ثمّ رجعت إلى الخلف نحو جسده، من دون حماية وبلذّة تحت صنبور الحديقة.

تكون الحقيقة أحياناً مدفونةً أمام الكبار ولا نستطيع إيجادها إلاّ في ساعات إعادة الكتابة أثناء اللّيل، بالطّريقة نفسها التي يُضرَبُ فيها المعدن كي يُصبح مَصْقولاً. في حين أنّ الأولاد هم جيل من الوضوح المباشر. لم يستطع أن يفهم كيف أنّ سلسلة القصائد الّتي كتبها بيار

Twitter: @ketab_n

امتلكت قوّةً وكانت قابلةً للتصّديق، كما أنّه لم يفهمْ كيف أنّ ابنتيه بدتا قريبتين، وفي الوقت نفسه غير مهتمّتين ببعضهما.

ذات مرّة؛ كانت لديه جيوبٌ مليئةٌ بالحكمة كي يقدّمها إلى ولديه. ألم يكن هو من علّمهما أين يتسلّقان السّياج أو كم يطعمان الكلبَ؟

ربّما قام بما هو كافٍ في حياته كما قالت له روائيّة في صالون أدبيّ قبل الحرب. وَعَنَتْ بذلك أنّه قد كَتَبَ بما فيه الكفاية كي يكون مُهِمّاً أو أَقَلَّهُ أنّه كان لديه الفرصة كي يكون مهمّاً كما يتوقّع المرء في مسار أدبي. لكن حتّى حينها ليس هذا ما كان يريحه. فالشُّهرة ليست ما كان يريده بل هي غريبة عنه كما كانت عندما كان في العشرين من عمره. وكان قد حمى نفسه منها بأنّ أصْبَحَ مخلوقاً مُتَشَظّياً. (فعندما كان يقوم برحلات كان يذهب مع صديق واحد لا اثنين ثمّ يودّعه ليلتقي رفيقاً ثانياً في لاباليز ربما ويمشي معه إلى داخل بورغَنْدي). على أيّ حال، كان يرقص مع تلك الرّوائيّة النّحيلة كالطّير في صالون أدبيّ في شارع هوش وكانت إحدى يَدَيْها على كَتِفِهِ بينما كانت الأخرى على عُنُقِهِ كجناح الوزّة الخفيف. وكانت تلك إشارات توحي بالإمكانيّة، وكان غالِباً ما يتخيّلها كحبيبة. وكانت كاتبة رائعة لديها عدد من التكريمات المتعلّقة بمِهْنَتِها. لكن بالنّسبَة لِلُوسيان، الكتابة هي مكان طوارئ. فهو أراد ما قام به في المرّات القليلة الأولى، وبدون وَعْيٍ، عندما كانت الصفحة مكان استقبال للحمام الطّائر إليها من كلّ الممالِك التي يكون المرء قد سافر إليها. هناك التجمّع ومن بعده إثارة التّنويع والتّفرّق. ولم يكن هناك حُكْمٌ، فهو لم يَسْعَ إلى الحُكْم والنّقد عندما بدأ يكتب، لكنّ الأمر

Twitter: @ketab_n

أصبح مُهِمّاً وحيويّاً لحياته بطريقةٍ ما. رغم أنّ كلّ ما أرادَهُ هو الرَّقص من دون هدف، مع هِرَّة.

Twitter: @ketab_n

غابة دي مازير

في السّنوات السّابقة وقبل وفاة والدة لوسيان سيغورا، أُعيد ترميم قبّة كنيسة باران. وكان رومان، الحركيّ والمرِن رغم بدانته، واحداً من الّذين قد وُظّفوا للعمل على ارتفاع القبّة البالغ خمسين متراً، حيث باستطاعته الحصول على مالٍ أفضل ممّا لو عمل في مكانٍ آخر. مُعَلّقاً بربطات الحبال، كان رومان يفكّك، بواسطة المطرقة، الغطاء العفن ويَنْزَعُهُ، مُظهِراً تدريجيّاً الهيكل الأساسيّ للبرج المنحرف ثمّ عمد هو والآخرون، وأجسادهم مربوطةٌ إلى البكرات، إلى دخول البرج القديم، وفي الظُّلمة، قوّوا دعامات البناء ووضعوا أرضيّات مثمّنة الأضلاع وجديدة على كلّ مستوًى.

وعملوا داخل البرج لمدّة شهرين فيما كانت الرّياح العاتية والثّلوج تتسابق فوق السّهل وتدور حولهم. ثمّ خرجوا إلى ضوء الشّمس وقد سحبوا رقاقات جديدة من الخشب وبنوا بواسطتها الهيكل الخارجيّ. وكان رومان في ذلك الوقت مُجازفاً كالعمل الّذي يقوم به، فهو نادراً ما كان يعمل مع الآخرين. وعندما كان يعود إلى الأرض كان يترنّحُ كالسّكران، حرّاً في النّهاية من التّوتّر النّاتج من التّوازن. فطوال النّهار كان مُعلّقاً بعُدّة الوطواطِ أو واقفاً على مِسْمار كبير فوق حافّة الفضاء، مُحاطاً بعالم الغرس. وكان باستطاعته رؤية الطّرقات البنّيّة العدّة الّتي

Twitter: @ketab_n

كانت مُحاكة نحو الغابة، ومدينة آوْش، على بعد عشرين كيلومتراً، والطّريق الّذي كان يتبعه كلّ ليلة على ظهر الحصان في الظّلام الدّامس نحو بيت المزرعة.

وعندما كان يصل عند الثامنة ليلاً، كان يتناول الطّعام مع ماري ـ نيج، ثمّ يستيقظ بحلول الخامسة في الصّباح التّالي كي يعود إلى باران. ولولا ركوبُ الخيل منفرداً في اللّيل، ولولا ماري ـ نيج وحديثهما الهادئ حينما كان يتسلّل إلى فراشِهِ لَشعَر أنّه على وشك الجنون. وفي السّابعة من الصّباح التّالي، عُلّق، مرّةً أخرى، إلى الهيكل فامتطاهُ متشبّثاً بالخشب الّذي كان قد حُفِرَ في القرن الثّالث عشر، وطوال ذاك الشّتاء، عمل على السّقف المنحدِر، وكانت أصعب السّاعات عندما كان ينزل من العتمة ويمتحن نفسه على الأرض بطريقة مختلفة وكأنّه متشبّثٌ بها.

وخلال اللّيل، كان الثّلج يجتاحُ الظّلام فيستيقظ رومان وماري ـ نيج ليريا الأرض وقد سُوِّيت بيضاء لفترة قصيرة. ففي منطقة الغرس كانت تُثلجُ ثمّ يذوب الثّلج مع أوّل ضوء للشّمس، فتعود أراضي الحقول والغابات خضراء بسرعة. لكن، عندما كان رومان يمتطي الخيل نحو باران، كان الوقت باكراً وكان حصانه يترك وراءه ممرّاً على البياض مُتَّخِذاً مساراً قوسِيّاً صوب الغابة. كما كان رومان يأخذ بشكل دائم الطريق المارّة في غابة دير مازير. ومُرْتَجِلاً بهذه الطريقة عبر أراضي الأشجار الأَكْرِيَّة العظيمة، كان يصل إلى باران في أقلّ من ساعة. وأثناء ركوبه الحصان، كانت الأغصان الواطئة تَرْعَى كَتِفَيْهِ بِثِقْلِها الجديد، والثَّلْجُ يتساقط على حضنِهِ وفخذَيْهِ وعلى ردف الحصان. وفي نهاية

Twitter: @ketab_n

الأمر، كان يُطْلِق العنان لحصانه كي يختار طريقه، وكان يتذكّرها عندما كانا يعودان في الظُّلْمَةِ.

وكان رومان بعد ذلك يستلقي على ظهر الحصان ناظِراً إلى الأعلى نحو النّسيج الأخضر المتعارِض التَّظليل. ولعدّة دقائق، كان يضيع تحت العالَم المتغيِّر كولد صغير يفعل ما كان يفعله عندما كان ولداً صغيراً. ولِجام الحصان كان مَرْخِيّاً على ركبتَيْهِ بينما كان هو يفكِّر في اللاّشيء. وكونه رجلاً لا يستطيع القراءة ولا يتكلّم إلاّ في ما ندر عندما تقتضي الحاجة، فإنَّ كلّ حركة تحصل حوله تكبر في معناها وتمتلئ بزوايا الإستبطان ووجهات النّظر. فتَرَدُّدُ ماري ـ نيج الصّامت أو نبرة جملة يقولها مسؤول في كنيسة باران كان لها وَقْعٌ أكثر من اللاّزِم. وهكذا فإنّ الإنقضاض السَّهل لِغُراب على ارتفاع منخفض، وقد أَمْسَكَ بِفَمِهِ شيئاً لامِعاً، يتحوّل داخِلَهُ ببطءٍ إلى ما يشبه هَرْسَ طاحونَةٍ.

كانت حياة الطيور في أوّل استيقاظ لها عندما دخل وسط الأشجار، وَهَبَطَت أوّل زقزقة من الأعلى كرشّة ماء عليه. لكنّ أشجار السنديان والزّان أعادت ترداد الألحان وخطط الإطناب، فبدا الأمر وكأنّه يتحرّك داخل الأسواق. بالنسبة لرومان، فإنّ بقرة أو خنزيراً أو كلب صيد خائفاً مُظهِراً نفسه في الصّوت والوِضْعة هي ليست مختلفة عن البشر. وكان باستطاعته قراءة التّعبير الذي يُخْبِرُ عن مخلب مكسور أو عن عَطَشٍ ما. إلاّ أنّ غناء العصفور كان أروع لُغْزٍ أحبَّهُ لدرجة أنّه رَبَطَ ذاتَهُ بِهِ وبهندسته المعماريّة الهائلة التي احتَوَتْ كلّ حياة الغابة وحياة السّماء. وأينما عَمِلَ رومان، كان يجد الوقت في نهاره كي يدخل إلى غيضة من الأشجار أو غابةٍ ما.

Twitter: @ketab_n

وَضَرَبَهُ ضوءُ الحقل المفتوح عندما غادر الأشجار فجلس على الحصان ورأى في البعيد برج باران المُنْحَرِف. وهو رجل يبدو عليه أنّه يتجاهل كلّ ما حولَهُ. وكلّما تحدّث إليه لوسيان سائِلاً إيّاه عمّا يعتبره أسئلة أساسِيّة، كان رومان نادراً ما يعطي إجابة إذا رأى أنّه يمكن اكتشافها أو الإشارة إليها بدلاً من ذلك. وفقط عندما تراجع لوسيان عنهم جميعاً وقد جُرِحَ وَجْهُهُ بتلك الشّظايا الزّجاجِيَّة، شعر رومان بأنّهُ قريب مِنه. منذ زواجه لم يكن لِيَثِقَ بالغرباء. ففي شارع ضيّق عندما يلتقي بالآخرين، كان يتصلّب حتّى يمرّوا حوله. ورغم أنّه لم يكن يملك شيئاً تقريباً، فقد كان مستعدّاً لمحاربة كتيبة عسكرية كي يحمي القليل ممّا كان يمتلكه ـ بعض الأثاث، بما فيه السّرير والطّاولة، وحصانان والخنازير التي كان يهتمّ بها ـ وأيضاً الأشياء الّتي كان يشعر أنّه له حقٌّ عليها كَذِرَاعَيْ زوجته والطّريق الذي يطرقه في الغابة. وكلّ ما عدا ذلك كان غريباً بالنسبة إليه وربّما كان ضدّهُ.

وفي اللّيل، عندما كان يعود إلى بيت المزرعة، كان المصباحان اللّذان أضاءَتْهما ماري ـ نيج وَعَلَّقَتْهما فوق إطار الباب يسمحان له أن يترك الطريق العام ويركب الحصان عبر الحقول. وحين كان يصل إلى المرتفع المطلّ على الوادي، فيراهما، كان يُطْلِقُ عواءً طويلاً كالذي يُصْدِره الذّئب، فكانت تعلم أنّه أضحى قريباً ـ حتى أنّه في بعض الأحيان كان لوسيان ووالدته وأحياناً خطيبته يظنّون أنّ هناك مخلوقاً يتجوّل حول المزرعتَيْن. كلاّ، لا يوجد ذئاب، كانت ماري ـ نيج تقول إذا سُئِلَتْ. ولم تكن لتفشي السِّرَّ أبداً. ولم يكونوا ليصدّقوا نَفْيَها أبداً. كان هذا بطريقةٍ ما أكثر وسيلة تواصل حناناً بينها وبين زوجها.

Twitter: @ketab_n

وفي باران، كان رومان يُرْبَطُ إلى مئزرة جلديّة مع جيب للمسامير وطوق للمطرقة، ومتجاهِلاً الجميع كان يصعد السّلّم على جنب البرج حتّى يعود إلى عزلته مرّة أخرى ولا شيء معه سوى حفيف الرّيح وصدى مطرقته والأصوات التي تصرخ تحت وكأنّها عواء الثعالب. وذكّره ذلك بالسّيريناد وصيحات الإستهجان تلك في الظُّلمة. وتركّزَت تلك الأحداث اللاّمتكلّمة والإشارات الصغيرة على رومان بهذه الطريقة. وهناك، وهو عالٍ على البرج تذكّر صورة الغراب المنقضّ وفي فمه شيء مسروق وبرّاق، وكأنّ ذلك كان علامة على أمرٍ ما.

وَجَدَ طفلاً رضيعاً منحوتاً في خشب كنيسة مجاورة في مونتيزال فَأَخَذَهُ. كما وَجَدَ تطريزاً على مصطبات راكعة مختبئة بين صفوف المقاعد، فقطعها وَأَغْتَقَها. صُوَرُ القدّيسين على الجدران. وعاء رخاميّ. سجّادة. صليب أبنوسيّ أسود. خشب مُغَطّى المَلْمَس. في فونتاني ودُويل وبرويل ومالمور وسينِيّا - في كلّ مكان رَكِبَ إليه كان يدخل الكنائِس القديمة الخاوية في منتصف اللّيل والوحيدة في عَظَمَتِها الصغيرة والغير الدّافئة في العتمة. إذاً كانت هناك ليالٍ لم يسافر خلالها العشرين كيلومتراً البسيطة إلى بيت المزرعة، بل ركب الحصان صوب تلك القرى على أطراف الغابة الرّائعة فدخل الكنائس ونام في عَتْمَتِها وأخذ ما احتاجَهُ منها أو ما شعر أنّ الكنائس ليست بحاجة له، كَرِباط وأطراف لوحة فضيّة وصورة منقوشة. وكان يأخذها إلى العراء في غابة دي مازير وينتظر حتّى يصبح الضّوء خافِتاً. الصقيع يغطّي كلّ شيءٍ. واستيقظت الطيور مع أغانيها التجريبيّة في الظّلام. وَنَبَشَ القماش المُلَمَّع الذي كان قد دَفَنَهُ سابِقاً وأضاف إلى المخبأ الأشياء الجديدة التي كان قد أخذها. ولاحِقاً سيقايض تلك الأغراض بنباتات وحبوب وألبِسَة.

Twitter: @ketab_n

وكانت المرحلة الأخيرة من العمل على البرج تتمثَّل بالتغطية الصخريّة الأردوازيّة. جُلِبَت ألواخ الصخور من منطقة الأنغِرْز وكانت سَتُرَكّب من دون تَشَابُك. كان الرّجال يَطْرِقونَها بمسامير نحاسِيَّة مُحَزَّزَة. وتحت الصليب والديك بعشرة أمتار، وازَنَ رومان نَفْسَهُ على مسمار كبير ناتئ. واستطاع رؤية غابة مازير في الشّمال الغربي آخِذة شَكْلَ ورقة بِرْسيمٍ خضراء وسط كلّ ذلك البيضاء، فالثَّلْجُ قد حطّ عميقاً وبطريقة غير مرئِيّة على الأشجار، وكلّ ما أخذه من الكنائس كان مدفوناً هناك، ما خلا وردة خشبية ملوّنة كان قد اقتَلَعَها من قميص قدّيس منحوت لإعطائها لماري ـ نيج. كان شيئاً مسروقاً يشبه عصفوراً صغيراً حيّاً في جيبه.

توقّف عن ضرب مطرقَتِه ناظِراً إلى البعيد فرأى ماري ـ نيج على ظهر الحصان. ورغم المسافة بينهما عرفها بينما كانت والحيوان يندفِعان بِرِفْقٍ إلى الأمام في نصف ساعتهما الأخيرة من رحلتهما إلى باران. لن تستطيع أن تخبره أبداً، بعد العِراك الذي حصل بعد ذلك بقليل، ما الذي أتى بها إلى باران ذلك النّهار. وما الخَبَر الذي كانت ترغب أن تُعْلِمُه به. ورأى شَكْلَها المرسوم يربط الحصان ثم يبدأ المسير نحو مجموعة نجّارين. تخيّل الرّجالَ وهم يحدّقون بها بكل وضوح، فهي المرأة الوحيدة الموجودة هناك، وكان ذلك واضِحاً كالنُّحاس. ثُمّ نظروا إلى الأعلى مشيرين إلى البرج، وسمعهم يضحكون. لم يتحرّك لمدّة طويلة وهو عالٍ على هذا البرج الغريب والذي أصرّ الناس أنّه خُلِقَ أَصْلاً بواسطة ريح منحرفة فجائيَّة أو بواسطة جنون عامل سقوف وقع في الحبّ.

Twitter: @ketab_n

الحقول

كلّما عادَتْ ماري ـ نيج من زيارة زوجها في السِّجن كانت تمشي في أطراف حَقْلَيْهِما ـ ذاك المحيط بالحظيرة كنعل الحصان والآخر الأكبر على منحدر التلّة. وكان رومان قد قدّم الأكل لأحصنة وخنازير الجيران الفلاّحين مِمّا مَدَّه بمورد رزق محدود. إنما وجوده الآن في السِّجن جعل زوجته بالكاد تستمرّ بذلك المورد. لكنّ سَيْرَها في مُلْكِيَّتِها عند الغَسَق جعل الإحتمالات واضحة. تستطيع العيش على ما تزرعه في نطاق "نعل الحصان" وعلى تحويل الحقل الأكبر إلى حديقة للسّوق، لكن عليها أن تتعلّم كيف تملأ حقولَها. فالحيوانات التي استضافتها كانت قد نَقَبَتْ الأرض. لذا بَدَأَت بتسميد الأرض وَبِذَرِّ بقايا الخضار والرّماد في ثناياها، ثمّ أَخَذَت العربة إلى المسلخ في مارسيّان كي تجلب الفضلات وبقايا الجثث والتي هي بمثابة الذّهب. وكونها بحاجة إلى تراب أكثر اسوداداً وخصوبَةً، فقد قامت برَشِّ رماد المدفأة فوق الأثلام حيث كانت قد زَرَعَتْ الملفوف ثمّ مدّدت الكلس والنُّشادِر على التّراب الطِّينيّ كما استَعْمَلَتْ روث البقر على الأرض الترابية وفضلات الحصان على الأرض الطبشوريّة. كانت تعلم قِسماً من ذلك، أمّا الباقي فاكتَشَفَتْهُ في دراسة استعارَتْها من مكتبة لوسيان وهي تُظْهِرُ كيف تُجَدِّدُ الأرض في

Twitter: @ketab_n

منطقة حربيّة قديمة. وذكّرها كلّ ذلك بكورنيليوس عندما حاول زرع زنبقة سوداء كاملة.

جَمَعَتْ العشب الضارّ على طرف الحقل الكبير وَجَعَلَتْهُ يجفّ، وبعد أسبوع كوّمَتْهُ لإضرام النّار فيه. إنْحَدَرَت الرّائحة اللاّذِعة في أسفل التلّة إلى منزل لوسيان وَدَلَفَتْ إلى مَشْغَلِهِ أو مكتبه فتوجّه نحو النّافذة وراقَبَها في البعيد وقد رَسَمَ شَكْلَها الدخّان واللّهب. داسَت البذور في الأرض بدل أن تنثرها بِيَدَيْها، ويسمّون ذلك "الحَشو" في دراسة لوسيان العسكريَّة. قطعت بضع الأجمة وَتَرَكَتْ بضع أشجار فاكِهَة على طول السّياج. وفي حدائق الخضار الجديدة، ثبّطت عزم عَصافير الدّوري بأَنْ وَضَعَتْ قُطْناً أبيض على أرضيّة البذور كما شَرَّحَتْ ديدان الأرض وَغَطَّسَتها في جوز القيء ثمّ دَلَفَتْها في أوكار الخلد. لقد كانت لطيفة مع البذور كما كانت متوحّشة مع الحشرات المؤذية. أَرْخَت الأرض الرطبة وحملت كَمْشَةً من الشتول في يَدَيْها الشبيهتين بفنجان وكأنّ الشتول طائر هوى ويجب إعادته إلى عشّهِ. رأت عَمَلَها كممرٍّ عبر الفصول، زارعةً البصل والكَرَفس بين شباط ونيسان ثمّ الكرّاث وملفوف الشّتاء بين أيّار وتموز.

لقد كَبِرَت الآن. كانت قد بَكَتْ عندما تَزَوَّجَتْ، ثمّ رأت زوجها الجديد يحاول قتل أحدهم أثناء عتمة ليلة زواجها. لقد كان رجلاً نشأ على الأسلوب القاسي في حماية الذّات والذي كان قد شاهده في المزرعة. لكنّ العالم الذي كانا فيه كان أقسى من ذلك. ودخل رومان الآن السّجن لأنّه هاجم رَجُلاً قرب ساحة قاعدة البرج وكاد أن يَقْتُلَهُ في حالة غضب وغيرة شديدَيْن. لقد استَلْزَمَ الأمر سبعة رجال كي يثبّتوه إلى

Twitter: @ketab_n

الأسفل وكأنّه أيّل غير مروّض. عندما كان قد نظر إليها من الإرتفاع الشّاهق، وهي بين النَّجارين، لم يكن يعلم أنّها كانت حامِلاً.

وكانت ماري ـ نيج تزوره كلّ أسبوع في زنزانته في مارسيّان. وبعد شهر من سجنه بينما كانت تسير إلى المنزل، أجْهَضَتْ. إسْتَلْقَتْ في خندق أحد الغرباء وَفَقَدَتْ كلّ ما كانت قد خَلَقَتْهُ مع رومان. ونهضَتْ بعد ساعة. وكانت نبتة شوك غنيّة تنبت قرب ماري ـ نيج، فاحتَرَقَتْ ضمن ذاكرتها. ربطت عودَيْن معاً كصليب وزرعَتْهُ قرب الطريق، ثمّ جَمَعَتْ ما كان هناك في ضَمَّةٍ من فستانها القطني الأصفر وَجَلَبَتْه إلى منزلها ثمّ دَفَنَتْهُ في الحقل ذات شكل نعل الحصان قرب المنزل.

رأت حياتها حينها على ما كانت عليه. سيكون هناك دائماً هذا الحلم العاجز واللاّمُجدي حول المَزارع، وسيكون هناك دائماً رجل غنيّ يعدو على ظهر الحصان حول العالم وداخل الغابة كي يستنشق أوراق شجر القضبان الرّطِبَة بعد العاصفة.

"أين فستانكِ الأصفر؟" سألها لوسيان كان يقلّها إلى مارسيّان، وتلعثم جوابها حتّى الصّمت. وفي إحدى الأمسيات بعد ذلك بقليل، تَحَدَّثَت ولوسيان لساعاتٍ طوال أثناء الليل. وكان رومان ما زال في السِّجن، وكانت تعتقد أنّ مصيرها ليس بأفضل من مصير بغل. وتحدَّثَتْ إلى لوسيان عن كلّ شيء، معترفة بفقرها، كما اعترف هو أنّه لم يكن مدرِكاً لذلك. فرغم كونه أَقرب جارٍ لها، كان مُنْشَغِلاً بحياته الخاصّة.

وذهب إلى مارسيّان، واشترى الملكيّة الّتي كانت تعيش عليها من عائلة سيمون، وذلك بأَنْ دفع جزئيّاً ثمنها والجزء الآخر كان مقايضة بحقول أخرى. وبعد يوم أو اثنين كان كلّ شيء قد وُثِّقَ عند كاتب

Twitter: @ketab_n

العدل، فمشى صعوداً على التَلّة إلى بيت مزرعتها حامِلاً معه الأوراق. رآها قرب البئر فناداها باسمها، لكنّها لم تتحرّك. بَقِيَت تحدِّق في البئر. صعد إليها فتردّد تركيزها لدى سماعها صوته واستدارَتْ نحوه. كانت قد سَمِعَتْ الخبر أنّ أحدهم كان يشتري المزرعة. أخذ يدها فَسَحَبَتْها، لكنّه لم يُفْلِتْها. ثمّ شدّها نحو طريق بيتها. كانت تلك الطريقة التي كان رومان يتّبعها لإقناعها جنسِيّاً، فَنَبَضَ قلبها بسرعةٍ لشعورها بالحَرَج عنهما معاً. عنه كونها صديقها، وعنها هي أيضاً.

جعلها تجلس إلى الطاولة الزّرقاء. كانت الطاولة ذاتها التي سيأخذها بعيداً عن بيت المزرعة الصغير بعد بضع سنوات، وأضحت من أعزّ مملكات حياته. جلست إلى يمينه ومدّ أمامها صكّ البيع. وقرأ كلّ البنود، شارحاً إيّاها. وكان الأمر أكثر من صدمة لها عندما لاحَظَتْ إسمها. فهي لم تُعْطَ شيئاً في حياتها، ولا حتّى شيئاً صغيراً.

وبعد دقائق قليلة، في منتصف الوثيقة، ارتاحَتْ، وأحسّ هو بذلك للحال.

"ما بِكِ؟" سألها. هزّت برأسها وتابَعَتْ قراءة الورقة أمامها. لم يصدر عنها نَفَسٌ أو إشارة، لكنّه كان معتاداً على طبيعتها، فلاحظ الإرتياح المفاجئ. "ما بِكِ؟" سألها مجدّداً.

راقَبَتْهُ مبتسمةً وأجابت، "لا شيء".

لم يكن الأمر يتعلّق بمبادرته الكبيرة ولا بهبة الملكيّة بل هو إدراكٌ ما لديها جعل قبولها للأمر ممكِناً. كانا حليفَيْن قديمَيْن. وكانت هي فقط تعلم، عندما جلسا جنباً إلى جنب أمام الطاولة، كيف أدركتْ أوتوماتيكيّاً على أيٍّ من الكرسيَّيْنِ ستجلس. فالأمر يتعلّق بِعَيْنِهِ الجيِّدة

Twitter: @ketab_n

الّتي يجب أن تكون قربها لتشاركها الصَّفحة التي يقرآنِها سويّة، بينما تبقى العين الأخرى ـ عَمَاهُ الذي هو الفرق أو الخلاف الوحيد بينهما في هذه الحياة ـ بعيدة عن هذه الحميميّة.

حَضَّرَتْ لهما عشاء العصافير، وكي يمدح شيئاً، مدح عذوبة مياه بئرها حتّى ضَحِكَتْ منه. كان دائماً خجولاً ومتردِّداً في الكلام عن عمله الخاص. وبدلاً من ذلك تباحَثا في خِطَطِها حول الحقول. وتلك اللّيْلَة، عندما عاد إلى منزله، أنزل المقالة العسكرية عن رفّ مكتبتِهِ. كان يشعر بحماسِها حول إمكانيّات المزرعة، وهي الآن قد امتَلَكَتْ الأرض. وأثناء تناولهما العشاء، قال لها ما كان يجول في ذِهْنِها ـ أنّها الآن تدخل عالم زارع الزّنقة السَّوْداء. أومَأَت بالإيجاب. كانا قريبين جدّاً.

ورغم أنّها تكلَّمَت تلك اللَّيلة أكثر منه، كانت تعرف في الجوهر كلَّ شيءٍ حَوْلَهُ ومدى نجاحاتِهِ وابنتَيْهِ وزوجته. وقبل أن يرحل، حين وقف، سألَتْهُ أن يجلس مجدّداً وأخبرَتْهُ عن إجهاضِها، وكيف أنّها لم تكن تتحمّل ذلك. لم تَعُدْ تتحمّل ذلك. ليس بمقدورها تحمّل ذلك.

ضوء واحد وحيد فوق الطاولة الزرقاء وسط الغرفة. وهو يمدّ يَدَيْهِ نَحْوَها لِيَلْتَقِطَ أصابِعَها النَّحيلة العارية.

Twitter: @ketab_n

التّفكير

رغم قُرْبِها من لوسيان، فإنّ فكرة الرّغبة الجسديّة بينهما لم تجد طريقها إلى الوجود في عَقْلِها. لقد كان مَرَحُها أثناء رقصها معه في حفلة زفافِهِ مجرّد مرح أو مِسْنَد كتاب أو خاتمته المؤشِّرَة على نهاية شبابهما. وكانت أمّه قد علّمتهما خطوات الفالس في فناء الحظيرة، وقد قالت لهما إنّهما إذا قرآ عن الحياة في باريس وفونتينبلو فهما بحاجة أن يمارسا مهاراتهما الإجتماعِيّة وإنّ المجالات الأساسيّة الثلاثة في تدريب فارس هي ركوب الخيل والقتال بالسّيف والرّقص. وكان تفسير لوسيان للرّقص، وقد أكّدَتْهُ دراسته للمنحوتات، يقول إنّه عمل تدفع خلاله كَتِفَي شريكك حتى تَصِلا كلاكما إلى آخر الغرفة. أمّا الفتاة فكانت تظنّ أنّ الرقص يعني ببساطة الإختلاط بالآخرين لمدّة من الزّمن تحت تأثير الموسيقيِّين الساحر. كانت أمّه بحاجة إلى أن تُثَقِّفُهُما سَوِيَّةً.

وكان كلاهما ما زالا حَذِرَيْن فيما بينهما، وعلى الرّغم من تقاربهما، كان لكلٍّ منهما حياته ومعتقداته الخاصّة. وعندما أعادَتْ ماري ـ نيج النّظر بحادثته مع الكلب، شَعَرَتْ كأنّ عماه الجزئيّ كان موجوداً فيه من قَبل. فرغم كونه حَذِسِيّاً ومؤمِناً بالتقمّص العاطفي، فهو مثلاً لم يكن يعلم طبيعة زوجته الحقيقيّة، معتقِداً أنه إذا كان يوجد أخطاءٌ في الزّواج فالسّبب يكمن فيه. كما كان حالِماً بما خصّ عاطفته، غيرَ مدرِكٍ

Twitter: @ketab_n

كيف أنّ العالَمَ حوله قد حيك بطريقة غير متساوِيَة ممّا أدّى إلى أن يكون إشعاع كَرَمِهِ قَصيراً. وهو لم يغيِّر من مساره أبداً داخل العالَم الحقيقيّ.

وهي ذاتها كانت تعلم القليل عن العالم الرّائع، وربّما أقلّ ممّا كان يعلمه. فلم تكن بالنسبة إليها حياة خارج منزلها. وكانت كل مساء تجلس في مطبخها ثم تنام في السرير خلف السّتارة. ولم تكن لتكتب إلى رومان في السّجن حول ما كانت تشعر به تجاهَهُ وحول جوعِها إليه وذلك لأنّه لم يكن يستطيع القراءة. وتمنّت لو أنّها كانت قد عَلَّمَتْهُ، ذات الطريقة التي كانت هي قد تَعَلَّمَتْها، وذلك حتى يستطيع الهرب من عُزْلَتِهِ، لكنّه كان دائماً يعود من العمل منهوكَ القوى. وعندما حَلّ الظّلام، تحمّمت في برميل مياه المطر قرب الحظيرة ثم سارَت ومعها المصباح إلى المنزل. وكانت تلتقط كتاباً، لكنْ، حالَ جلوسها لقراءته، كانت تغطُّ في النَّوْم على كرسِيّها، إذ لَمْ تكن أبداً معتادَةً أن تقرأ على ضوءٍ داخليّ، رغم أنّها كلّ مساء كانت تحاول ذلك. كانت كافِيةً لها مُتْعَة الإستراحة على كنبة والكتاب بين يَدَيْها. وفي وقتٍ متأخِّر عندما ينطفئ القنديل كانت تفتح عينيها. ويمكن للدّخان المنبعِث في الفتيل المحترق انطفاءً أن يكون أيْقَظَها. كانت تقف، مستجمِعَةً حَوَاسّها بما يشبه الوضوح، وتذهب عبر الظُّلْمَةِ نحو سريرِها.

Twitter: @ketab_n

الحرب

بسبب ضعف بَصَرِهِ لم يقاتل لوسيان سيغورا في الحرب. وتطوّع بدلاً من ذلك ليكون عضواً في هيئة دراسة الأمراض والصَّدَمات في مناطق القتال قرب الحدود البلجيكيّة. وصل إلى الجبهة مع أبحاث وتقارير كان قد ترجمها عن نصوص ألمانيّة حول طرق إعادة التأهيل الجديدة. لكنّ الأطبّاء الشّبان المنهكين تَعَباً تجاهَلوه. أحاطَتْ به فوضى الجنود الذين حطّمهم المدفع والجوع، وفوق كلّ شيء، الخوف. كانوا بحاجة إلى شيءٍ آخر وليس إلى شخص يَدْرُسُهُم.

وحين كان يتابع وضع ملفّاتٍ بالتّقارير، بدأ العمل في خِيَمِ المستشفى. وخلال شهر تحوّل إلى شخصٍ آخر، واحد من موجة الجنود المجهولين ومساعديهم، وأصبح وجهه هزيلاً وكئيباً، وَنَمَتْ لحيته الصغيرة المُشذَّبَة لتصبح لحية كثّة خشِنَة. وَعَنَتْ قِلّة الصّبر والغضب في رسائله الخطِّيَّة التي أكمل إرسالَها إلى باريس أنّ تلك الرّسائل نادِراً ما كانت تُقرأ بل كانت تُدْفَنُ فقط داخل ملفّات.

وفي سنته الثانية أصيب بمرض الخانوق. تملّكَتْهُ في البداية حُمَّى خفيفة ثمّ صعوبة في الإبتلاع. وبعد يومين بالكاد استطاع لوسيان أن يتكلّم، ولم يستطع حتى أن يُتَمْتِمَ، فقد شُلَّ حَنَكُهُ. وكانت أنسجة رقبته تتضخّمُ فكانَ يحارب من أجل كلّ نَفَسٍ. وفي الخَيمة الطُّبِّيَّة استطاع

Twitter: @ketab_n

رؤية الآخرين وهم ينزفون من أفواههم وأنوفِهِم فظنّ أنّ تلك صورة عنه أيضاً. لقد كان لوسيان مُذْعِناً للقَدَرِ، إلاّ أنّ كلّ شيءٍ فيه قاتل لينتصر على الألم المُضْني وذلك كي يستطيع التفكير بوضوح. وكان يعلم أن أيّام المرض الإثني عشر الأُول كانت غير متساهِلَة وَخَطِرَة. كما كان يعلم أيضاً بوجود أمراض أخرى مُهَيْمِنَة في المخيّم، فأصرّ على النّوم في العراء، زاحفاً إلى الخارج ليتجنّب الهواء الدّائريّ في أجنحة المستشفى وَخِيمِهِ. ولم يكن من عزلة هناك بين السائرين على ممرّ الموت. وكان بحاجة للخصوصيّة كي يتشبّث بما كان لديه من قوّة. وكان يبتلع فقط السّوائل التي من المؤكّد أنّها قد غُلِيَتْ، ورفض عروض المياه المجهولة.

وفي رسالةٍ، أَبْلَغَت السّلطات العسكرية زَوْجَتَهُ بمصيره المحتمل، فَوَصَلَتْ بالكاد متعرِّفَةً عليه بين الآخرين في مَصَحَّة إيبيرنيه. واكتشَفَت، عندما استطاع الكلام، أنّها لم تستطع فهم مُجْرَيات أفكاره أو مرارَتَهُ السّامّة تجاه عالم السِّياسة. طلب منها الرَّحيل وتركه مع رفاقه وَحْده، على الرَّغم من أنّه في الواقع كان منعزلاً كلّيّاً يدرس فقط ذاتَهُ كي يدرك تقلّبات مرضه، كجزء من الرّغبة في البقاء.

وبعد اثني عشر يوماً سُمِحَ له وللآخرين الذين بقوا أحياء أن يعيشوا وحدهم في الخِيَم وأن يغتسلوا بأنفسهم وبأن يحضّروا وجباتهم الخاصّة. كانوا ما يزالون مُتَسَمِّمين ويحملون "الطّاعون في الحَلْق"، الغشاء الأبيض الذي قد يخنقهم. يدعوه الإسبان بالمِخنق ـ عام ١٦١٣ كان "سنة المِخْنَق". وشعر بأنّه كان يعرف عن الخانوق أكثر من أيّ شخص آخر، فكان مَزْهُوّاً وفخوراً بمعرفته هذه حتى ولو كان متمدّداً

Twitter: @ketab_n

على أرض خيمته الموحِلَة. وكان ليونْهوك في الـ ١٦٧٠ قد اكتشف الميكروبات عبر المِجْهَر "تنطلق في اللُّعاب كالرُّمح في الماء". أخٌ شاعرٌ. ورأى المستعمرون الأميركيّون المرض "كفاكهة الخطايا الغريبة"، كعمل الله الذي سيكتسح العالم الجديد وينظّفُهُ. وكانت كلّ ردود الفعل على الخانوق تنتمي إلى القرون الوسطى حتى مَحَق جيش نابوليون الذي أُجْبِرَ أن يقدّم اثني عشر ألف فَرَنْك لأفضل دراسة في منع المرض. وكانت المقالة التي نَتَجَتْ عن ذلك نهاية الأمر قد كُتِبَت بواسطة بريتونو الذي حدَّد الغشاء الخطأ في الحَلْق، وَبَقِيَت الدِّراسة تُعتبر كلاسيكيّة في الطِّب العياديّ حتّى جاء أغوسطينو باسي الذي درس أمراض دود الحرير ونظّر مبادئ الميكروبات الطّفيليّة. لكن على طول الحدود البلجيكيّة عام ١٩١٧ وفي المصَحّات، لم يكن هناك من علاج أكثر قليلاً من الصّلاة.

كان لوسيان سيغورا ما زال حيّاً، على رغم أيّام الهذيان ومن بعدها السّكون، حين كان يستلقي على سريره الضّيّق مُتْعَباً وهو ينظر إلى ظهر يده أو إلى غلاف رواية غراميّة، واحدة من عدّة كتب مكتوبة بطريقة سيّئة. وكان الجنود يتركون بانتظام تلك الكتب خارج خيمته. وبعد ظهيرة أحد الأيّام، ترك له أحدهم رواية بلزاك "الثّوّار" وهي تدور حول الغرام والمغامرات. وحتّى في أوجّ حمّته، كان لوسيان يبتلع كتاباً في اليوم.

ولقد أَعتقَتْهُ العزلةُ في إيبرنيه تدريجيًا من العالم اليوميّ، فلم يُشاهد سوى ما كان يراه من جوانب خيمته المفتوحة. ومرّة سمع حفيفاً غريباً جعله مشوَّش الذّهن عمّا كان يحدث في الخارج حتّى تبيّن له أنّ ضابطاً كان يحاول طيّ خريطة طوبوغرافيّة كبيرة. وأصبح الصّوت والحبكات المتخيّلة من الصوت غير المرئيّة للعين شيئاً مهمّاً له... كان مستلقياً على

Twitter: @ketab_n

سرير في مارسيّان وهو يستمع إلى اقتراب الغربان التّدريجيّ ومن ثمّ إلى تخاصمها على شجر الحور. وتذكّر ضربات حوافر حصان عربة ماري - نيج المألوفة كما تذكّر خشخشة الدّوش الخارجيّ وهو يرشّ المياه على الأرض وقد خَرُسَ بين الفينة والأخرى إثر خَطْوِ جسدٍ داخله. وكان يتبيّن صوت المباضع في الخيمة الطّبيّة وهي توضعُ في مكانها على الغطاء المطاطيّ. وسمع سعال رجل يحتضر على بعد ثلاث خيم منه. واستوطنَ السّعالَ خوف مَخفيٌّ استطاع لوسيان ملاحظته. لقد امتلك خرائط الصّوت تلك وقد علّمته أن يحدّد المسافات وأن يميّز بين خطوة على الوحل وأخرى على التّراب، أو إذا كان الصّوتُ يتحرّك نحوه أو بعيداً عنه.

وأكمل كتابته لتقاريره مُحْدودِباً في خيمته، وبما تبقّى من طاقة لديه، عاد لوسيان بالذّاكرة إلى أيّام صباه ونضجه غير المكتمل، مُعيداً التّفكير في أحداث يُمكن أن تكون قد غيّرته كهذا الشّخص هنا، الآن، تحت هذه السّموات القاتمة. بدا الأمر وكأنّه أُعطيَ مرآةً لأوّل مرّة فاستطاع رؤية ما كان يخبّئه في ذاكرته بغموض. تلك الإغراءات اللّيليّة لمدام دي رينال في رواية الأحمر والأسود، هل علّمتْهُ شيئاً؟ أم خدعَتْهُ؟ ورقصتُهُ مع الكاتبة النّحيلة، والكلب. لم يعد للماضي بوّابة، لقد اندَفَعَتِ الحياة المتغاضى عنها داخل قماشة خيمته القاتمة وكان حتّى ذلك الوقت متأكّداً، من الموت. كان شهر تشرين الثّاني. وفي الليل، كان العديد يموتون وسط الأمطار المستمرّة، واستطاع توفير ضوء مصباح ليلي جزئياً. فلم يستهلكه في الظّلام إلاّ في حالة الطوارئ. وقد أدرك أنّ ذاك الشّيء فانٍ، مثله.

Twitter: @ketab_n

ولغرابة الأمر، لم يفكّر في عائلته بل في ماري - نيج، وهي نادراً ما تكلّم معها بعد زواجه. ولليالٍ متتالية، كان عقله يقفِزُ بحرّيّة مُثَارَةٍ حَوْلَها. فكان يتذكّر شيئاً ثمّ يُجبر نفسَهُ على التّجوال عبر تلك المرحلة مُجَدَّداً وببطْءٍ. يراها تنهضُ عن الخياطة وتُقَوّسُ ظهرها ثمّ تدلُفُ يدُها اليُسرى في كمّ الذّراع الأخرى لتشدّها عند العضلة. وإذا كان أكثر ارتياحاً كرجل كان يقطع الغرفة ويدلّك عضلاته كي يحرّرها من التّصلُّب. ووجدَ في نفسه رغبةً أخويّةً نحوها، فبدأ يُغربلُ الأدلّة على ذلك. وحيث كان يلتفت يمنةً إلتفت الآن، يسرةً فدخل الغرفة معها أو ساعدها وهي تحمل كِوَمَ الغسيل عندما بدأت تُمْطر - وركضا نحو المنزل وقد امتلأت أذرعهما كما أصبح قميصاهما - مُبقّعيْنِ، لا بل مُشْبعين بالمطر. والتقطت مِنْشفة من السّلّة فنشّفت بها شعره فيما ارتاح باطنا كفّيه على كتفَيها النّحيلتين بينما انحنى رأسه نحوها وهو مدركٌ أنّ جسدها المتوتّر أضحى مُكوّناً من الأساسيّات.

في تشرين الثّاني ذاك في إيبرنيه كلُّ ما أبقاه دافئاً هما كتفاها. وذهب بذهنه بعيداً نحوها فأضاءَهما كنار الغاز. فلقد كان رجلَ أسرار مُعظمَ حياته وها هو الآن مُضْطربٌ بتلك الأسرار الّتي كان قد أخفاها عن ذاته.

Twitter: @ketab_n

الإجازة

أُعطيَ إجازة لمدّة عشرة أيّام، فعاد إلى المنزل في منتصف الصّيف وسط عواصف آب أو تهديدها المتوقّع كلّ ليلة. وفي بعض الأحيان حصل البرق من دون مطر. وانعتقت أفكاره وعواطفه داخله، عشوائيّاً، شبيهةً بتقطُّعات الضوء الفجائيّة في السّماء. وكان يسير في الحقول بمحاذاة النّهر بعد منتصف اللّيل، غير قادرٍ على التّخلُّصِ من يقظته. أمّا في المنزل فكانت زوجتُه وابنتاه نائماتٍ. كان قد مضى على وجوده في المنزل ثلاثة أو أربعة أيّام فلم يكن معتاداً على الهدوء ولا على صدفة إضاءة الغرفة فجأة حينما يكون ينتظر الكابوس أو الحلم. إنّ عدم وجود الحرب شبيه بالنّهر المتجلّد حوله. ووُجِدَ الأمان في الماضي فقط، ومع ماري ـ نيج، دائماً في مكانٍ ما، في الأثلام المتوازية في حديقتها أو في توجيه العربة ذات العجلة الواحدة المليئة بالثّياب الرطبة أثناء العودة من النّهر.

ما أثّر به كثيراً يوم عودته هو احتفاؤها به، ورائحة الوحل على يديها حينما لامست لحيته المستَحْدَثَة. وأراد شكرها بطريقةٍ ما على خلاصه خلال أيّام وليالي إيبرنيه. لكنّه كان حذراً وخائفاً من أنّ هوسه الغريب بها خلال شهر إصابته بالخانوق قد يتّضح كالعري.

وجلس إلى مكتبه ينظّم تقاريره ويخبّئ مشاعره. ومشى مرّتين إلى

Twitter: @ketab_n

مارسيّان ذهاباً وإياباً. لكنّ المدينة كانت محطّمة، فلقد فقدت كلّ رجالها في الحرب الإلمانيّة وأصبحت قرية أرامل. وأخبرته ماري ـ نيج أنّ رومان قد أُطلق سراحه لكي يتوجّه إلى الحرب كجنديّ، فقط. فتساءل لوسيان ماذا قيل لجاره القديم عمّا كان يقاتل لأجله.

وفي الواحدة أو الثانية بعد منتصف اللّيل، كان يبقى مستيقظاً، فيرتدي ملابسه ويخرج كي يمشي صوب النّهر. وكان يترك ممرّ المشاة ليخبط على العشب القاسي الطويل الرّطب، فكانت موجة من الحشرات ترتفع حوله حتّى ليَعلم أيٍّ كان مكانه من خلال صوتها.

ومرّت ليلةٌ أخرى، واستطاع أن يسمع الرّعد في سريره بمسافته المعهُودة، كما استمع إلى المطر الّذي لم ينهمر وحام الإحباط حوله حتّى أدركه النوم. وسمع الرّعد ثانيةً كتصفيق اليدين الجافّ والسّاخر، واستيقظ آملاً مرّةً أخرى.

ومرّت ليلة أخرى.

كان قد خلع قميصه ووقف وسط أصوات الزيزان والجنادب. وظهر لون مصباح أصفر بين الأشجار كقاربٍ مُضاء وقد حمله البحر. وعندما وصلت إليه بقيا هادئين وصامتين وكأنّهما نويا أن يستمعا إلى صوتٍ أو إشارة ما في تردّدهما، وبعدها فُقِدَ الصّمت حينما ارتفع غناء الحشرات وصخبها كالغبار في الهواء حولهما مرّة أخرى. لم يكن من خصوصيّة حتّى هنا، حتّى الآن، بعد كلّ هذا الوقت في حياتَيْهِما المتلاصِقَتَيْن. لقد أحاطت بهما الطبيعة المستيقظة. ولقد كان طير الأعالي بعيداً عن متناولهما على الأغصان الجديدة (وَهُوَ لا يستطيع رؤية الطّير أبداً)، كما كان دائم الغناء والحزن.

Twitter: @ketab_n

وتدلّى المصباح من أصابعها قرب فستانها، لكنّهما لم يقولا شيئاً وكأنّهما كانا يعرفان أنّ الظّلام كان أيضاً من السّوائل ومجرّد كلمة منطوقة واحدة كانت لتتردّد عائدة إلى المنزل. أمسك بيدها ومشى معها نحو حافّة النّهر. أَخْفَضَتِ الضّوءَ بما يكفيهما إيجاد هذا المكان مجدّداً وهما عائدان من الماء، ثمّ تحرّكا بعيداً عن نور المصباح وخلعا ثيابهما ومشيا في النّهر. واستطاع سماع مشيها المتثاقل. وبعد دقائق قليلة تواجها. وعندما لمستها يداه الحائكتان تحت الماء، سحبهما بتهذيب أو بخجل ولم تعرف أيّهما السبب. ولم يستطع لوسيان رؤية حدود للسماء ولا رؤية نجمة. ثمّ تحرّك في الظّلمة الدّهماء. ولم يكن قد سبح في النّهر ليلاً منذ أن كان صَبِيّاً. وكان مع روحه البالغة السادسة عشرة قبل أن يلاحظ بعد فترةٍ غيابَها.

وكانت ماري ـ نيج على الشاطئ قرب الضوء ذي الشّكل التّنكيّ. ورفعت المصباح فوق رأسها ونادت اسمه فأجابها "نعم" واستدارت. واستطاعت رؤية أضلاعه على جسده النّحيل كلّما اقترب من الضوء. وَضَعَت المصباح على العشب والتقطت فستانها القطني وبدأت بتنشيف شعرها، فلم يعد متجمّداً أمام وجهها. وبعدئذٍ اقْتَرَبَتْ منه وفركت له شعره وجَفَّفَتْهُ بفستانها. فَبَدَيا حينها وكأنّهما في غرفة أو على طَرَفَيْ طاولة، ولم يعودا يظهران كغريبَيْنِ عن بعضهما. وركع على ركبتيه خلفها، ساحِباً فَخْذَيْها إلى الوراء نحوه في اهتزازٍ بطيء وكأنّه أرادها أن تبحث عنه، وقد وَطِئَتْ حرارة كهفها برودته وهما مشتاقان لاهفان إلى بعضهما. وكرّرت قول.اسمه فيما كان يتحرّك داخلها وداخل نعومتها وداخل دفئها.

Twitter: @ketab_n

كم من القصص قد قرآها بينهما واكتشفا من خلالها شيفرات الحبّ النّهائي ولم يقولا شيئاً في خجلهما. وبالكاد كان قد لمسها ـ فمرّة وضع يديه كالكوب على كَتِفَيْها ومرّة أمسكها بقوة حين سحبت شظايا الزّجاج من عينه، ومرّة أمسك بِيَدَيْها الصغيرتين عبر الطاولة. وكأنّهما كانا يعرفان مآل كلّ ذاك عليهما، وتلك الممرّات والإنعكاسات فيما بينهما، وهذا التواضع الحَذِر وأسرار ذاتها التي خبّأتْها عن الآخرين. وكلّ ما شَهِدَ عليهما كان المصباح على العشب. وتحرَّكَتْ عائدةً إلى حضنه حيث تستطيع ضبط حركتهما وإبطاءها نحو حميميَّة أكثر، وهكذا استطاعت يداه أن تقبضا على نبض بطنها فتحقَّقَتْ لهما اللَّذَة المتوازية. ولم يسمعا شيئاً لا الرّعد العقيم ولا هزء العصفور ولا الصُّراخ اللاّإكتراثيّ لملايين الحشرات. فقط نَفَسَيْهما، وكأنّهما كانا يموتان قرب بعضهما.

Twitter: @ketab_n

العودة

يُعرف القليل عن لوسيان خلال السّنة الأخيرة من الحرب. فهو قد اختفى عائداً إلى النسيج المجهول لحركة الجنود والمستشفيات الميدانيّة. وفي تلك الأشهر الأخيرة، عندما كان موقعه قرب كومْبينيه وصلته إحدى رسائلها. من يدري كم من الرسائل قد كتبت له؟ لكنّه افترض أنها كانت الأولى منذ أن رآها خلال إجازته. كانت الرّسالة حول رومان وكيف التقت به مؤخّراً وكيف كانت مرتاحة كونهما كانا قريبين وقادرين على الكلام بسهولة. لكنّ رومان بقي دبّاً كرجل وكرهت فكرة أنّه سُجِنَ مجدّداً ضمن الكتيبة.

ولسببٍ ما لم يكتب لها رسالة ردّ. ربّما كان قد تخيّل وكتب كلّ أنواعَ الرّسائل بصوت هؤلاء الجنود الآخرين الّذين كان يساعدهم في تأليف رسائلهم إلى زوجاتهم وحبيباتهم، مُستعملاً الكثير من التعابير العاطفيّة لدرجة أنّ التعاطف الأدبيّ الصّادق لم يعد موجوداً لديه. وهو لم يعد يثق بالكلمات. كتب بضعة مدوّنات إلى زوجته بدلاً من ذلك تدور حول الحالة المعنويّة على الجبهة والمخاطر الّتي قد تنشأ مع أفول الحرب.

وعاشت عائلته مؤقّتاً مع أقارب زوجته قرب باريس. فالرّيف المحيط بمارسيّان قد أُشيع عنه أنه غير آمن بسبب الأمراض كما كان

Twitter: @ketab_n

هناك المرتزقة والهاربون من الخدمة العسكريّة يقتحمون المنازل والمزارع. وبدا النّظام الوحيد موجوداً ضمن المؤشّرات والحركات الرّسميّة الأخيرة من الحرب. بينما شهدَتِ المدن والقرى حوادث متواصلة من العنف كان سببها الفقر والحاجة. ولم يكن لدى لوسيان أيّ فكرة عن ماهيّة حياة عائلته قرب باريس. لكن في كومبينيه كان يسجّل ما كان يراه يحدث حوله يوميًا من موتٍ وانتحارٍ أيضاً. ونسي الكهنة أسماء الذّين كانوا يعطونهم المَشْحَة الأخيرة. وهو بذاته كان قد صلّى من باب الواجب فوق الغرباء المحتضرين والّذين كانوا ينظرون إليه شزراً ومُقْتاً. وبالكاد كان لديه الوقت كي يفكّر بماري ـ نيج، إلاّ أنّه كان قد عاش وأعاد عيش الكثير من حياتهما معاً وذلك قبل رحلته الأخيرة إلى المنزل. أمّا الآن فقد كان بحاجة أن يُبقيَ نفسه يقظاً وآمناً وواعياً لما يحدث حوله بالتّمام. ففي إحدى اللّيالي حاول أحدهم أن يقتله إذ استيقظ وهو يُخْنَق ولم يكن ذاك الرجل حتّى من الأعداء.

وبعد أيّام قليلة قبل نهاية الحرب خُصَّ بعضُ الجنود بجوازات القطار مع التّحذير أنّ كلّ وسائل النّقل كانت بطيئة. فالرّحلة إلى المنزل قد تستغرق أسابيع. نظر إلى الخريطة وأدرك أنّه بواسطة حصان يستطيع العودة إلى مارسيّان لرؤية ما إذا كان المنزل سالماً؛ وبعد ذلك يستطيع أخذ القطار لملاقاة عائلته في باريس.

وبحث عن حيوانٍ كي يشتريه أو أيّ شيء يسمح له بمغادرة منطقة الحرب سريعاً. وفي النّهاية قايض على حصان قد يأخذه لرحلة يوم. وبعيداً عن الجبهة، قد يستطيع شراء حصانٍ آخر. وربط كلّ ملفّاته تاركاً ما عداها خلفَهُ من نصوص طبّيّة وملابس وأدوات كان يحتاجها حتّى

Twitter: @ketab_n

ذلك الوقت. فسوف يجد ملابس في المنزل حيث يستطيع أن يحلق ذقنه ويستحمّ قبل أن يذهب في نهاية الأمر إلى باريس.

وفي مونتارجي قايض الحصان كما كان قد خطّط. ومع بعض الحظّ يستطيع أن يصل إلى مارسيّان بعد ثلاثة أيّام فقط أو في اللّيلة الرابعة.

كان ضوء الشمس ساطعاً في كلّ مكان لكنّ الطّقس كان بارداً وما كان يلبسه ساعده قليلاً على البقاء دافئاً. وعندما وصل إلى مزرعةٍ مهجورة وجد كوماً من الخيش فقطعها وصمّمها لتكون معطفاً. إلاّ أنّ الحيوان لم يكن صحيح البنية فاضْطُرًا للتحرّك في خطوات أبطأ من المتوقّع، كما وجد نفسه يَفْقِد تقييمه للأمور. وفي اليوم الثّاني، في وقت متأخّر من فترة بعض الظّهيرة بدأ لوسيان يخبو في نصف إغفاءة ثمّ يستيقظ غير متأكّد من مكانِ وجوده. وضاع لساعتين في وادٍ نهريّ، ثمّ وجد نفسه فجأةً يمتطي حصانه عبر حقل من البصل فاقتلع بعضاً منه بيديه وأكل بصلة وخبّأ ما تبقّى في سلّة.

وفي فيجاك باعه مزارع طاسةً من الحليب فتجرّعه بسرعة. ولم يجد أحداً على الطّرقات. ومرّ به رجلٌ على حصان سائراً في الإتّجاه المعاكس وحاملاً كلباً بين ذراعيه بحنان. ولم يقل ذاك الرّاكب شيئاً، بل حتّى لم ينظر إليه، فهو أيضاً قد يكون خائفاً من العصابات. وأدرك لوسيان أنّه كان عليه أن ينتظر قطار الجنود.

وكانت اللّيلة التّالية أكثر برواة فارتجف لوسيان تماماً كما حصل معه عندما أُصيب بالخانوق. فاستمرّ يراقب بياضَ نَفَسِهِ ليُقنع نفسه بأنّه ما زال حيّاً. وظنّ أنّ هذا هو آخر شيء يراه في حياته. واستيقظ في الظّلمة غير المنتهية وأضاء عود ثقاب كي يعرف الوقت وإذا كان نفسه ما زال

Twitter: @ketab_n

موجوداً. ولم يتحرّك الحصان قربه، ثمّ بدأت السّماء تمطر فاستسلم ونام أو غاب عن الوعي، وهو غير متأكّد.

وعندما استيقظ في الصّباح كان جسده متصلّباً من برودة الأرض. وبصعوبة استطاع النهوض فاستدار ورأى الحصان يرعى العشب بهدوء، ورأسه يرتفع ببطء كي يحدّق به. مشى بجانب الحيوان لمدّة تزيد عن السّاعة قبل أن يتمكّن من امتطائه. وكان ذاك اليوم الرّابع أو الخامس من رحلات لوسيان، فكان يتجنّب الغابات كلّما استطاع لخوفه من مواجهة الغرباء. وتساءل ما الّذي كان يملكه لكي يرغبوا بقَتْله؟ ثمّ فكّر في الوثائق الّتي كان يحملها وإدراكه لوجودها جعله يبتعد عن حَذَرِهِ أو سباته. فالّذي كان بحوزته كان أهمّ منه.

كان قد حلّ الظّلام لساعات عدّة عندما وصل لوسيان إلى مارسيّان. كلُّ شيء كان مُغْلَقاً. أكمل العشر كيلومترات الأخيرة. ليس من المحتمل وجود طعام في المنزل، ربّما بعض المعلّبات أو الطّعام المجفّف، لكن، على الأقلّ بإمكانه الإستحمام والنوم. ولَربّما ما زالت ماري ـ نيج موجودة في المنزل المجاور. ولم يكن يعلم بمكان رومان أو إذا ما كان حيّاً أو موجوداً في المنزل الآن. أبطأ الحصان فنزل عنه وسار بجانبه، وهو كان بحاجة إلى أن يولّدَ طاقةً وحرارةً أكثر في جسده المتصلّب. وملأت رطوبة الهواء معطفه، كما أدرك أنّ ذهنه لم يكن متّقداً. ولبعض الوقت ظنّ أن والدته ستلاقيه. لكن عندما تذكّر بدأ يعتقد أنّها ستُرحّب به كشبح صامت. سترحّب به وتُطعمُهُ وتُحضّر له سريرَهُ، وستُشعِل له النّار.

مشى الطّريق إلى بيت المزرعة في الظّلام الدّامس، وكان العالم

Twitter: @ketab_n

حوله بلا ضوء قمر وبلا نجم. ولا من لهب شمعة واحدة. أفلت الحيوانَ ووقف، ثمّ خطا نحو الفناء الخارجيّ ووجد طريقه إلى الدّاخل وسرعان ما أيقظ المنزل بالضوء. وانتقل من غرفة إلى أخرى، متحدّثاً بصوتٍ عالٍ إلى ذاته، وبين الفينة والأخرى ذاكراً إسماً. نزع عنه معطف الخيش الرّطب وشاهد ذاتَه في مرآة القاعة. وكان قد مضى زمن منذ أن رأى ذاته، فبدت الملابس الّتي كان يرتديها واسعة. نظر من النّافذة فلم يرَ ضوء الجيران. وقد رحلوا هم أيضاً. بدا مرتفع التّلّة أسود، وإلاّ لكان ظهر ضوءٌ بارافينيّ أو شمعة.

ومشى خارجاً في الظّلمة قائداً حصانه إلى الحظيرة كي يطعمه. ثمّ عاد فاشتمّ شيئاً، بقايا نار. يستطيع الدّخان أن يصل من عدد كبير من الحقول البعيدة إذا ما التقطته الرّياح في ثناياها. ولو كان هناك مطر لكان الدّخان قد ضُغِط إلى الأسفل وبقي قليلٌ منه على العشب. لكنّه أراد أن يتأكّد أن لا أحد في المنزل المجاور. هذه كانت عودته إلى المنزل لكنّه لم يرَ نَفَساً في القرية. ولا في معظم أيّام رحلته. ولم يلتقِ حتّى بشبح والدته. مشى إلى التّلة صعوداً حتّى وصل إلى الأرض السّوداء تاركاً الأضواء خلفه.

لم يجد عربةً ولا حصاناً في الحظيرة. وقرع باب بيت المزرعة وانتظر. ثمّ رفع المزلاج ومشى إلى الأمام ببطء حتّى لامس فخذاه الطّاولة، فعرفها وعرف لونها الأزرق العتيق عندما كان يراها في ضوء النّهار. ولطالما جلس إليها يلعب الورق أو يتحدّث عندما كان أصغر.

لم يكن لدى لوسيان أيّ فكرة عن مكان رحيلهم، فناداهما باسميهما. رومان أوّلاً ثمّ هي، رغم أنّه نادراً ما كان يستعمل اسمها

Twitter: @ketab_n

عندما كانا يتكلّمان إذا كان الأمر يبدو رسمياً بالمقارنة بما كان بينهما، حتّى اسمها المُحَبَّب البسيط. وظنّ أنّه سمع هرّة فمشى نحو خزانة المطبخ حيث كانا يحتفظان بالشّموع ومسح بيديه الرّفّ إلى الوراء وإلى الأمام. وأضاء واحدة فالتوى ضوؤها على الجدران وسمع مواء الهرّة ثانية فحمل الشمعة وفتح السّتارة الّتي كانت تعزل غرفة النّوم. لقد كانت مُستلقية على ظهرها وكأنّها جثّة مُغطّاة بحرام أسود ورأسها يتحرّك من جانب إلى جانب. رأى نوبة تجتاحها وكان صوت الهرّة يَصْدُر عنها. لقد كانت وحيدة في بيت المزرعة ولم يكن هناك ضوء ولا حرارة. لكن، عندما لمس جبينها انزلقت يده على ما كان أملس، فقد كانت تتصبّب عَرَقاً. هذه كانت نوبات البرد والحمّى. ماري ـ نيج؟ همس باسمها وكأنّه لم يُرد أن يُزعجها وكأنّه في الوقت ذاته كان بحاجة أن يوقظها بحذر من دون أن يخيفها أو أن يُربِكَها وذلك لكي تعلم بوجوده.

أين رومان؟

نفخُ الهواء هو كلّ ما بدا أنّها قادرة على فعله بشفتيها. وعندما انحنى فوقها ونظر إليها عن كثب استمرّت عيناها بالنّظر جانباً وكأنّها تشير إلى شيء خلفه في الطّرف الآخر من الغرفة.

وكان قد فكّر خلال رحلته إلى بيت المزرعة كم يرغب في التّحدّث إليها عمّا كان قد شاهده في الحرب خلال الأشهر القليلة الأخيرة وكيف شعر بوجودها داخله. وكان بحاجة إلى أن يجعلها إلى جانبه. وإذا وجدا نفسيهما وحيدين لربّما كانا استلقيا في السّرير وناما معاً. لكنّ ذاك الطّريق قد تغيّر الآن تحت قدميها، فهو بحاجة أن يهتمّ بها في حُمّاها. وبدأ يخبرها عن الوقت الّذي كان فيه وحيداً عندما كان مريضاً ومُهَلْوِساً

Twitter: @ketab_n

في خيمته وكلّ ما خلّصه كان تاريخه معها. وجمدت عينا ماري ـ نيج للحظة ثمّ ارتجفت وارتفع معظم رأسها عن الوسادة؛ وبعدما استلقت إلى الوراء تتنفّس بصعوبة وقد تضاعف إعياؤها. وفي كومبينيه، كان قد رأى الأحصنة "تُضرب بالسياط" وكانت أجسادها ترتجف لنقصٍ في الكالسيوم.

هل أَنقَذْتُكَ؟ قالت بصوتٍ بالكاد يُسمع وكأنّها تتحدّث إلى ذاتها وكأنّه لم يكن موجوداً إلاّ كشخص تتخيّلُهُ.

نعم لقد كنتِ وكأنّكِ الوحيدة الّتي زارتني في تلك الخيمة الباردة.

أخفض الشّمعة الّتي كان يحملها إلى الأرض ووضع كفّه على جبينها الّذي كان رطباً، وكذلك شعرها. مسَّدَ بأصابعه الصّلبة شعرها ببطء مرّة واثنتين وهي حركة كان يستعملها في الغرام لكنْ، الآن، لم يوقفْها كونه أحسّها مريحةً لها.

وتجمّع معظم ضوء الشّمعة على سقف الغرفة الواطئ، فبديا كشكلين مُعْتِمَيْنِ لبعضهما. وأُضيء خدُّها بين لحظة وأخرى وكانت على وشك الإرتجاف ثانيةً. فأمسكَ بكتفيها. انتفض جسدها بعنفٍ ثمّ هوت إلى الخلف كصورة حجريّة في حجرة كنسيّة. لا شكَّ أنّها شعرت بدنو أجلها، فتحرّكت في مكانها وأحسّ بأنّه قد خسرها. رفع الشّمعة عن الأرض وعاد إلى المطبخ وأشعل أخرى. "لقد أصبحت معنا" قالت له أمُّه بجانبه.

مزّق بعض العلب الكرتونيّة القديمة ليستعملها في إضرام النّار، وفتح باب الفرن الحديديّ ووجد قطعة خشب رقيقة مُسْنَدةً إلى الحائط، فأشعل النّار. أين كان زوجها؟ بدا الأمر له وكأنّ المنزل قد هُجر لبعض

Twitter: @ketab_n

الوقت؛ وحملت الحجارة والجدران والأرض برداً عتيقاً. وأيقظها صوت تشقُّق الخشب المحترق وجَلَبَتُه، وسمعها تسأل، رومان؟ عاد ومسح وجهها بغطاء جافّ. "هذا أنا لوسيان. دعيني أغيّر أغطية سريرك فهي مبتلّة مثلك" "لا يهمّ"، قالت له. وفي الخزانة وجد غطاءً قطنياً بدا مألوفاً. من المؤكّد أنّ أمّه قد أهدتها إيّاه في إحدى المرّات. فمدّه فوق كرسيّ بجانب النّار.

وفتح معلّبة حساء ووضعها على الفرن ثمّ جلب إليها الغطاء الدّافئ. وعندما سحب الحرام الخشن عنها تنفّست الصّعداء وكأنّها استراحت من عبْء ثمّ بدأت بالسّعال والإرتجاف. وانحنت فبان جسدها كنصفين يُشبه "دبّوس" شعرٍ عارٍ. وعندما استلقت إلى الوراء فَطَرَ ظلٌّ أضلعِها قَلْبَهُ وعكس ضوء الشّمعة بياضها النّحيل على السّقف. لفّها بالغطاء الدّافئ ومن ثمّ بالحرام. وجلب الحساء إلى السّرير وبدأ يطعمها، فارتشفت السّائل بشغف.

رومان.

لا، أنا لوسيان.

لوسيان، ردّدت ذلك ببطء وكأنّها تُغيّر شريك رقصها بارتباك.

نعم، أكّد لها. أين رومان؟

وحين قال ذلك رأى أنّه قد خسرها مُجدّداً، فذهنها أصبح في مكانٍ آخر بين الظّلال.

من المؤكّد أنّه نام على الكرسيّ. وعندما استيقظت عيناه لم يرها وظنّ أنّه شعر بيدٍ على كتفه، لكنّ الشّمعةَ تحرّكت حينها، فرأى وجهها على الوسادة تنظرُ إليه. كانت عيناها تشيران إلى شيء. أنتَ صديقي.

Twitter: @ketab_n

عليك أن تأخذني إلى الخارج. هل تفهمني؟" وأغمضت عينيها ثانية ومستسلمةً. وكأنّها كانت تصرخ به عبر زجاج سميك. لم يفهم، لكنّها بقيت تستدير نحوهُ طالبةً مُساعدته، فهناك أمرٌ ما. وهل تفهم..." وفَهِمَ فجأةً. يا له من غبيّ. كان الحرام يغطّيها بشدّة فاستجمعها بين ذراعيه وعبر بها الغرفة وفتح الباب بقوّة وحملها في اللّيل البارد. ولم يكن معه ضوءٌ، لكنّه عرف أين يأخذها ـ الكوخ الصّغير الّذي كان بمثابة مرحاضٍ خارجيّ. "شكراً" ، قالت له. "شُكراً يا رومان".

وفي الحجرة الصّغيرة، رفع الحرام حتّى تستطيع الجلوس وجلس قربها ليثبّتها بشكل مُستقيم. وبعد دقيقة مَسَّتْ ذراعَهُ. هل أنتِ بخير؟ أومأت برأسها بالإيجاب مع ما يُشبه الإبتسامة. ومُجدّداً ضمّها كغصنٍ هشّ وحملها إلى بيت المزرعة. أعادها إلى السّرير. وكانت قد غفت بهدوء، وأسدل السّتارة حتّى لا يوقظها ضوء النّهار.

واستيقظ في الصّباح، ورأسه على طاولة المطبخ وعيناه ملتصقتان بأزرق الطّاولة، المجرّحة والمُحفّرة، وهي تاريخهما. فعلمَ أين كان عندما استيقظ من السّبات العميق في لحظة وعي.

وجلس على الكرسيّ. وأظهر الضّوء المنبعث من النّافذة الشّرقيّة الغبار على الأرض ولاحظ الفِرن فتقدّم نحوه ولمسه بتردّد فإذا به باردٌ. وكانت مقلاةٌ موضوعةٌ عليه مع بقايا أكلٍ متجمّد. وقف هناك بلا حِراك. الغرفة والهواء كانا جامدين. فشعر وكأنّه غير موجود داخلهما ولم يسمع شيئاً. ثمّ نظر إلى قدميه وبعدها إلى يديه وقد بسطهما أمامه ليتأكّد أنّه كان حيّاً كليّاً.

كلّ ما أراد سماعه هو سعالٌ أو حركةُ رفّاص السّرير. ومشى إلى

Twitter: @ketab_n

الأمام ناظراً إلى أرضٍ من الأشجار ومن نهرٍ وقد ذبلت وسقطت أوراقُها وهي مرسومة على السّتارة التي شطرت الغرفة نصفين. بدا الأمر وكأنّه منظر حياة أخرى على وشك دخولها. وهو لم يأخذ نفساً عميقاً لفترة طويلة. فتح السّتارة فلم يجد شيئاً.

Twitter: @ketab_n

قُلْ وداعاً

توجّه نحو مارسيّان، وفي مخفر الشّرطة اكتشف أن ما أدفأه وحمله في منزل جيرانه كان نُتَفاً من الذّاكرة أو شعاعاً من داخله. فلقد ماتَت ماري نيج خلال الأشهر الأخيرة من الحرب، ولم يعد هناك من دليل على وجود رومان في سجلاّت السّجن. وكان قد تطوّع لكنّهم لم يكونوا متأكّدين من عودته حتّى ولو كان حيّاً. وسار لوسيان عائِداً إلى بيت المزرعة وحيداً. ولأوّل مرة في حياته لم يعد لديه أحد حوله، ولم يعد لديه جار. فلقد أُخْلِيَ منزل جيرانهم. ونام تلك اللّيلة في الغرفة التي كانت لها ولِرومان، كما جلس إلى طاولتهما. ثمّ ركب حصانه إلى مارسيّان وتخلّص منه، وبعدها أخذ القطار إلى باريس حيث جمع عائلته وعاد بهم إلى المنزل.

وأكمل لوسيان سيغورا تقريرَهُ عن الوقت الذي أمضاه في المخيّمات العسكريّة والمستشفيات الميدانيّة، عارضاً ما شاهده هناك. وَقُرِئ الفصل الأوّل، لكنّ التقرير وُضِعَ على الرّف. وتقريباً لم يقرأ عملَهُ أحد، وكانت تجربته موضع تساؤل. كيف تحوّل هذا الكاتب من الشّعر المعقّد والمُدَوْزَنْ بدقّة إلى الكتابة الثّأرِيّة الفجّة والمحضَّرَة ببرودة؟ وتضايق المجتمع الأدبيّ الباريسيّ وأملَ منه مرّة أخرى بدواوين أنيقة من النّظم الشّعري. لكنّه كان يعلم أنّ الشّعر سيتطلّب منه كلّ شيء.

Twitter: @ketab_n

ولم يعد رومان. فنقل لوسيان مشغله أو مكتَبَهُ من غرفة زوج أمّه إلى بيت مزرعة رومان. وبدأ يكتب مجدّداً. وكان ينتظر حضورها أثناء كتابته، عادة في منتصف الطريق عبر كتاب وبعد أن يكون الموقع والحَبْكة قد أُسّسا. وكانت تدخل الرّواية أحياناً كعشيقة وأحياناً أخرى كشقيقة. وبهذه الطريقة أمضى معظم أيّامه مع ماري ـ نيج كحليف في المحكمة أو كفتاة قرويّة وهي تخلّص البطل من دون أن تدري. ماري ـ نيج كتوأم مفقود، ماري ـ نيج كَبَهْلَوانة تقع الشّخصيّة الرئيسيّة في حُبّها، وهي، متنكرة ضمن مهنتها كمغنيّة ـ بهلوانة، تسطو على القصر العظيم في بودوليه، وماري نيج في كتابٍ آخر تقود والِداً أعمى خارج مدينة غريبة.

وعادة ما كان في تلك الرّوايات حبّ محتوم أو عاطفة مكبوبَةٌ. لكن، في معظم الأحيان، أعطى لوسيان قرّاءَهُ السّعادَة في النّهاية. وعند انتهاء الروايات، كان يرسلها بالبريد إلى مطبعة صغيرة في تولوز حيث نجاح الكتب أَمَّنَ الإستقرار للنّاشِر. ومع طبع هذه الرّوايات أضحت الشّخصيّات الرّئيسة عامَّةً ومشهورة، خاصّة أنّ ما مِن أحد عرف من كان كاتِبُها، وقد أسمى ذاتَهُ "لا غارون". وكان لوسيان قد أَلَفَها في السِّرِّ بنفسِ الطريقة التي كان قد مشى فيها وحَلِمَ بها كطفلٍ محاطٍ بغَيْضَةٍ من الأشجار وَدَغْلٍ وأنهرٍ كانت قد أَضْحَتْ أصدقاءَهُ الحقيقيّين. وبالكاد بَدَت الكتب عَمَلَ شاعرٍ مُعْتَبَرٍ أو كاتبِ نواحٍ طويلة مريرة حول الحرب الأخيرة المنسيَّة.

وكان للمغامَراتِ بَطَلُها الّذي كان أحياناً غامِضاً وأحياناً إجتماعياً وأحياناً حَذِراً وأحياناً متهوِّراً. وكان قبل أن يطعن قلب الشّرير بِسَيْفِهِ

Twitter: @ketab_n

يرمي العبارة التالِيَة "قُلْ وداعاً". وكان القرّاءُ كلّما سمعوا عبارة "قُلْ وَداعاً" يعرفون أنّ الموت المحتّم سيقع في المقطع التالي. كانت إشارة إلى موسيقى الخِتام حين يقوم رومان، بعد قَتْل الكونت دو جيسييل في الأكاديميّة الفرنسيّة وَمَسْمَرَتِهِ إعلان الدّافع على الأبواب السّنديانيّة المهيبة، بالقفز من الطّابق الثاني إلى عربة القشّ المنتظِرَة تقودها ماتيلد أو ميليكانت أو ماري ـ نيج.

كان رومان بطلاً غير ثابت، ذكيّاً مع حبيبته ونكداً مع أعدائه، لكنّه كان أحياناً سريع البديهة مع عدُوّه ونَكِداً مع حبيبته. ولم يبدُ أبداً أن كاتبه قد فهمه كلّيّاً، وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور أحد أن يتأكّد منه، ولا حتّى شركاؤه. في قرنٍ لاحق قد يُعْتَبَرُ بائساً وَمهْووساً أو مزدوج الشّخصيّة، لكن في زمانه في فرنسا لم يُؤخذ عليه ذلك. وكان عادةً يمرّ بحالات من اليأس أو العنف. ونادراً ما كان يُعلن غضبه بصوتٍ عالٍ، بل كان يخبّئ ذلك (وظنّ بعضهم أنّ ذاكَ غير عادلٍ) عن ضحيّته التّي كانت نتيجةً لذلك غير مُدرِكَةٍ أنها مُطاردة خِلْسَةً. وخلال الجزء الثّالث من أحد الكتب تنهار إمبراطوريّة الشّرّير المالية وينقلب حلفاؤه عليه. أخفى الكونت دي بورسلين في الظّلام أيّاً من رذائله التي لم يشارك فيها ـ التّطبيق السّيّئ التوقيت للقانون الملكيّ ربّما أو طرد عائلة مريضة أو صَخَبٌ ماليٌّ ما يتعلّق بدارِ نشر في ليون أدّت إلى إفلاس الجميع باستثناء بورسلين وأجبرت سياسة الغضب الصّامت رومان في عمله الإنتقاميّ الأخير على مَسْمَرة إعلانات على الجدران القريبة قبل أن يلوذ بالفرار بعيداً على ظهر الحصان في نهاية كلّ مغامرة، هو وماري ـ نيج وجاك الصّديق الحميم (سنعرف المزيد عنه لاحقاً) وهم يشكّلون الثلاثيّ المركزيّ في كلّ كتاب.

Twitter: @ketab_n

واكتسحَتْ فرنسا روايتا كلب نهر غارتمب والفستان الأصفر. وفي تلك الأثناء لم يربط أحدٌ، ولا حتّى ضمن عائلته، بين لوسيان سيغورا ومؤلّف روايات رومان، ذاك العاهر النّاجح شعبيّاً والذّي يبدو أنّه فهم أحاييل عالم النّشر لدرجة إرضائه العديد ضمنه. أمّا لاعب السّيف رومان فقد كان يستشهد بأشعار فرلين أو بيار لوكرا بصوتٍ عالٍ وسط المعمعة، وأحياناً بطريقة ساخرة، ولكن عادةً بشيء من الإعتبار لقيمتهم. وفي إحدى الرّوايات، مشى متثاقلاً في معرض فنّيّ مشهور في ميونيخ وهو يُدندن مقولة دون كيخوت "راحة بالي تعتمد على راحة بالِها"، وأصابعه تلامس اللّوحة القماشيّة. وفي حين أنّ الناس كانوا يقرؤونه من أجل المبارزة والغرام والثّأر الأخلاقيّ كانوا يمتصّون شيئاً آخر أيضاً. فلقد كان هوس رومان بالفنّ والشعر غريباً وربّما يعود ذلك إلى حقيقة كونه أمّيّاً. والقصائد الّتي غنّاها أو تلاها كان قد تعلّمها من رفيقه "جاك ذي العين الواحدة" الّذي يبدو بلا قيمة لكنّه كان متحرّراً واشتراكيّاً. وضمد جُرْحَ رومان عندما شُقَّت ذراعُه ـ ولم تكن ماري ـ نيج موجودة ـ كما كان جاك سيّد التّنكّرات: فهو يخترق بلاط الأعداء أحياناً كوريث عَرْشٍ أحمق وأحياناً أخرى ككونتسّة غنيّة. وكان هناك سلسلة متتابعة من الرّوايات يتصارع فيها جاك ورومان قرب نار المخيّم حول مواضيع الفقر وحروب الغرباء وغويا الأسود وسفاح القربى وبيع الأولاد ومسرحيّة فوتران لبلزاك والنّظام المصرفيّ في باريس. وكانت مغامراتهما تأخذ حيِّزاً مع أحداث النّهار.

وحصل كلّ ذلك حتّى الكتاب الأخير، حين تنهار ماري ـ نيج وتحتضر بسبب وباء بينما كان رومان يُغامر في بريتاني، فلم يبقَ إلاّ جاك معها في ساعاتها الأخيرة. واكتشفها وحيدة في بيت المزرعة وقد

Twitter: @ketab_n

أخذتها الحمّى. مُتباطِئة حتّى الإرتباك وبالكاد قادرة على التنفّس. بقيت تسأل عن رومان في ساعاتها الأخيرة. وهمست للصّديق القديم جاك أن يساعدها في إيصال رسالة إلى رومان، فلم يكن لدى جاك إلاّ الكذب فاهتمّ وغيّر الأغطية الرّطبة نتيجة الحمّى وأطعمها وتاهت في ساعاتها الأخيرة فنزع عنه ثيابه ولبس ثياب رومان التي أخذها من الدّرج، ثمّ قصّ شعره الطّويل وصبعه قاتماً. ودخل غرفتها بصخب كما كان يفعل حبيبها، فأيقظها وتحدّث بصوتِ رومان لتظنّه، في متاهتها، "هو". واستدعته كي يستلقي بجانبها فانسلّ ذاك الصّديق الحميم العتيق المُنْحلّ إلى السّرير بجانب ملكة القرية تلك، وهو كان يعرف هذين الشّخصين ويحبّهما أكثر من أيّ شخصٍ آخر وكان قد سافر وعمل وتآمر معهما طوال تلك السّنوات. وفي كلّ مواقع التخيّيم تلك في الآردش أو في اللّوار، وخلال مغامراتهم في الأعمال الأولى مثل الفتاة على الحصان ونَفَس بابتيست، كان ينام في جهة من المخيّم بينما كان رومان وماري ـ نيج ينامان معاً في الجهة الأخرى.

وهمسَتْ له، مُلامسةً شعرَهُ وناظرَةً بعمق إلى وجهه المهتمّ والمتعب، والّذي بدا لها كصورة المادونا النّصف المعتمة. وردّ عليها هامساً مُذكّراً إيّاها بأيّامهما الماضية وبفترة بعد الظّهيرة المضاءة بنور الشمس عندما كانا يسافران مع جاك عبر بستان السّنديان، والأغصان المتكسّرة بدت كصوت المطر، وبالسّباحة في النّهر، وبحبّه لها... إذاً رافقها نحو نومها النّهائيّ، وقبّل فمها واستلقى في السّرير بجانبها كلّ تلك اللّيلة الظّلماء حتّى خيوط الضّوء الأولى عندما استطاع رؤيتها مجدّداً. وكانت قد تصلبّت لتصبح على صورة تمثال، وحرارة الحمّى التي استهلكتها غادرتها مع مغادرة روحها. ووجد بياضاً جافاً على

Twitter: @ketab_n

شفتيها لم يره من قبل، فانتظر ضوء الشمس كي يملأ الغرفة ففتح فمها ورأى تقرّحات بيضاء على لسانها. لقد اكتسح الخانوق القرى وقتل الأولاد كما قتل الذّين كانوا يعتنون بهم. وعندما عاد رومان من مغامراته في بريتاني إلى بيت المزرعة، أحاطت به تلك الحقيقة. فلقد دمّر المرض أعزّ اثنين في حياته. ولم يكن الأمر يتعلّق بالحرب أو بالمال أو بالطّمع أو بالقوّة أو بكلّ تلك الأشياء الفاسدة السّهلة بل يتعلّق بذلك الغشاء الصّغير من الموت الموجود في الحلق.

لقد كانت النّهاية مرعبة بالنّسبة لقرّاء مغامرات رومان، أمّا ما حصل فعلاً لرومان فقد بقي لغزاً. وعندما انتهى القرّاء من صفحات البياض الأخيرة، اختفى رومان، وتوقّف لوسيان عن الكتابة قرب بلدة مارسيّان على طاولة جيرانه. وخُتمت مغامرات رومان السّبع، فلقد قال لوسيان كلّ ما يعرفه وما يتذكّره عن ماري ـ نيج في تلك الرّوايات، وعن صوت دولاب عجلتها وعن كيفيّة إشعالها للنّار وعن لحظة التّثاؤب وعن الطّريقة الّتي كانت تتحدّث بها عن الشّوك في الخندق. لقد أصبحَت الآن في ثناياه.

وحوّل كميّة لا بأس بها من الفرنكات إلى حساب جديد، وجمع بعض المدوّنات، ثمّ تسلّق عربة تجرّها الخيول شبيهة بالعربة الّتي كانت أمّه تستعملها للبحث عن الوالد الضائع في حلبات مصارعة الثيران في فيك ـ فيزينساك، واختفى، بالكاد يحمل حبّة خردل في جيوبه. وهو لن يكتب مجدّداً.

وبعد نصف سنة استعمل إحدى مدوّناته لكي يسجّل حسابات لعبة ورق في ديموكان يلعبها مع الولد المُسمّى رافايل. كان هناك ثلاثة

Twitter: @ketab_n

مدوّنات (وواحد منها كان خاوياً) في أرشيف مكتبة بانكروفت في جامعة بيركلي. وكان هناك بعض الخرائط الصّبيانيّة المشيرة إلى أمكنة زرعه لبعض الخضار في حديقته الجديدة. "وهل أنتَ بستانيّ؟" سَأَلَتْه قارئة الحظّ مرّة. ويوجد رسم لمنزله والعقار مع بحيرة صغيرة وطريق من الأشجار. كما يوجد رسم، بِيَدٍ أخرى، عن كيفيّة صنع عشّ للحشرات عن طريق نزع جزئيّ لِقِشرة كوز الذُّرَة.

وفي إحدى فَتَرات بعد الظّهيرة في حديقة لوسيان الأخيرة في ديمو، ذكر الصبيّ أنّه كان يقرأ سلسلة مغامرات عن رومان، لكنّ لوسيان سيغورا لم يقل شيئاً، بل أخذ الكتاب ببساطة منه ليرى ما كان إبن آستولف يستعمل كمؤشّرة كتاب. ثمّ أجاب بأنّه سمع بهذا الكاتب المتخصّص بالهروب والثّأر وبالحبّ والمغامرات، إلاّ أنّه لم يقرأ له.

"لدينا الفنّ وذلك كي لا تدمِّرَنا الحقيقة"، يقول نيتشه. إنّ الحقيقة الخامَ لأيّ قصّة لا تنتهي أبداً، تماماً كما أنّ تضاريس حياة أختي وقصّة الزّمن الذي قَضَيْتُهُ مع كوب لا نهاية لها بالنّسبة لي. وهي تلك الإحتمالات كلّما رَفَعَتْ سمّاعة الهاتف عندما يرنّ فجأة في ساعة متأخّرة بعد منتصف اللّيْل وأسمع الأزيز والطّنين اللّذين يعنيان أنّ المخابرة عابرة للقارّات، فأنتظر ذاك النّفس العميق قبل أن تعلن كلير عن نَفْسِها. سأبقى بالنّسبة لها فتاة غير ملحوظة إلاّ كانطباعة ذهنيّة لصورة فوتوغرافِيّة.

وفي كلّ أمسيةٍ كان والدنا معتاداً على سَيْرِ ممتلكات مزرعتنا في بيتالوما وذلك قبل العشاء، حتّى يصل في نهاية الأمر إلى تلك التّلّة البعيدة، لينزل بعدها من ظلال الأشجار القاتمة ويهبط مع أفول شعاع

Twitter: @ketab_n

الشّمس الأخير. وكنّا دائماً نراه يفعل ذلك رغم أنّه لم يكن يعرف أبداً أنّه كان مراقَباً من أولاده الثّلاثة. وفي إحدى الأمسيات ظهر ثعلب وراءه يركض أعلى وأسفل حافّة غَيْضة صغيرة الأشجار، إلاّ أنّ والدي، ناظراً إلى الجهة الأخرى، مشى متمهّلاً نحو أسفل الوادي. ورأت كلير ذلك أوّلاً، فَلَكَزَتْني. كان المخلوق يسير بِخِفَّة وكأنّه على رقّاصات، بالكاد ناظِراً إلى الإنسان قُرْبَهُ. وأحسّ والدي بِخَطْبٍ ما فتوقّف، والتفت فرآه، وبدأ بالسّير إلى الوراء، بحذرٍ، مُبْقِياً الثّعلبَ ضمن ناظِرَيْهِ. وكان الثّعلب يتحرّك بخطواته الخفيفة، وكأنّه يَسْخَرُ من والدي، إلى الوراء وإلى الأمام، إلى الوراء وإلى الأمام، من زوايا مختلفة.

مع الذّاكِرة، ومع انعكاس الصّدى، تُفْتَحُ بوّابَةٌ باتّجاهَيْن، ونستطيع أن نُحيطَ بالزّمن دائِريّاً. وإنّ مقطعاً أو قصّة من عصر آخر تستطيع سَكَنَنَا في اللّيل، تماماً كما تفعل كلمات الغريب. ومعرفتي بِعَلَمٍ يُرَفْرِف بِصَخَبٍ وَبِألوانِهِ تأخذني إلى عاصفة ثلجيّة عنيفة وفجائيّة في بيتالوما. تماماً كما أنّ خريطة ملفوفة تَضَعُكَ بِجَنْبِ جغرافيا أخرى. ولذلك فإنّني أرى حيوات كوب وأختي ووالدي في كلّ مكان (وأرسم صُوَراً معبّرة عنهم في كلّ مكان)، كما أنّهم، ربّما، ما زالوا يُشْغلون ذواتهم بغِيابي، أينما كانوا. لَسْتُ أعلم، فهو الجوع لِما لا نَمْلُكُهُ، الذي يُبْقينا سَوِيَّةً.

أرى لوسيان سيغورا لآخر مرّة مع الصبيّ رافايل الّذي يتذكّر الرّجل العجوز جالساً خارج البيت في وهج النّهار. ويظهر رافايل مع الخبز. يقسمان الرّغيف ويأكلانه مع بَصْلَة أو بعض الحشائش. وإذا عطش لوسيان فإنّه يسير إلى البركة ويغمس يَدَيْهِ ثم يرفعهما كالكوب إلى فمه ليشرب. هكذا أتذكّره، يخبرني رافايِل.

Twitter: @ketab_n

ولا بُدَّ أنّ لوسيان قد سار نحو ذاك المنخفض من الأرض والّذي كان يوماً بركة، فجلس إلى طاولته الزّرقاء، وهي الأثاث الوحيد الذي كان قد جَلَبَهُ معه في رحلة العربة تلك. وقبل ذلك بسنوات قليلة في مارسيّان، وسط وصفه مبارزة حادّة بالسيوف، أصبح فجأة فضولِيّاً لمعرفة طول الطاولة التي كان يكتب عليها وعرضها، فبدأ بقِياسِها بِيَدَيْهِ: ضعف القياس من المِرْفق إلى رؤوس أصابعه، ومن ثُمَّ ضعف القياس من المعصم إلى رأس إصبعه، فيصبح الطول أكثر من مِتر قليلاً والعرض متراً. وكانت الطاولة مصنوعة من لَوْحَي خشب من الصّنوبر مع ممرٍّ ضيِّقٍ في الوسط حيث يلتقيان. وكانت الطاولة تحت مدوّناته وخارج نطاق تركيزه أثناء الكتابة. ستة مسامير تَجْمَعُها كما لونُ طلائها، وذاك الإرتفاع المناسب له كي ينحني فَوْقها وكأنّه فوق مِرآة ليرى ما قد يستطيع إيجادَهُ. إنّها رفيقته الدّائمة.

وكان إبن آستولف يظهر ليجلس على كرسي (بلا ظَهْرٍ وذارعَيْن) في مواجهته مع ابتسامته وَرغبته على ما يبدو في نَيْلِ كلّ إمكانِيّة في هذا العالَم. وربّما بدا لوسيان كَمِثْلِهِ عندما كان صبيّاً؛ مثل كلب صيد نحيل وَمُمَسّد الشَّعر، لاهثاً بسرعة وشوق وآمِلاً في كلّ شيء. حتّى المطر لم يستطع إبعاد الولد. وكان لوسيان ينظر إلى الأسفل من نافذة غرفة نومِهِ ليرى رافايل واصِلاً، ثم يراه يختمي لفترةٍ تحت شجرة السِّندِيان قبل رحيله. وكان فضولِيّاً حول ما سَيَتَذَكَّرُهُ رافايل من لقاءاتِهما بعد الظّهيرة. هل سيتذكّر لعب الورق أو أفكاره الخاصّة المتشظِّيَّة كالأسرار نصف المَحْكِيّة؟ أم جوّهُ العائلي وهو يضع يده على عينه الجيِّدَة عندما تقع الشّمس عليه كعبءٍ؟ وهل سيصبح هو شَظِيَّةً في مستقبل الولد؟

Twitter: @ketab_n

يرى رافايِل قادِماً نحوه، ويتوقّف، ومن ثمّ يستدير عائداً إلى حديقة الأعشاب. "لا، تعالَ إلى هنا"، يقول له بصوت عالٍ. فيعود الولد ويجلس أمامه. وما كان لوسيان يتذكّره يختفي في قبضة يده المشدودة.

لكن بعد ذلك حتى هؤلاء الأصدقاء قد تركوه.

مشى والد رافايِل في الممرّ الشجريّ مع حصانَيْن كان قد استَلَمَهُما في مقايضةٍ. (وكان أحد أغراض المقايضة في الواقع طاووس لِلوسيان سيغورا والذي كان أحد المزارعين البعيدين يَحْسُدُهُ عليه. ولم يكن اختفاء الطائر قد لوحِظَ بعد؛ إذْ كان مِزاجِياً في تجوالِهِ وقد يكون تِبعَ طَبَقَةً دافِئَةً حَلّتْ بعد عاصفة. وما خصّ اللّصُّ العجوز، فإنّ فَصْلَ مالِكٍ عن سمكة أو طَيْرٍ أو كلب صيد غير مدرّب ليس فعلاً سَرِقَةً؛ فهناك دائماً احتمال عودة المخلوق، حتّى عن بعد سبعة أو ثمانية مزارع. إذاً سار والد رافايِل بدون عِقَد ذنب قرب المنزل، حيث يجاور السمّاقُ الجدرانَ، وهو يصفِّرُ، عكس رحيله الأول في الرّابعة فَجْراً، في صَمْتٍ، عندما حمل الطّائر المكافح ـ وقد ظَنَّهُ من الثديّيات ـ في طيّات معطفه الطّويل.

وشهد لوسيان عَوْدَتَهُ ورأسُهُ متوازٍ مع حصانين مُنَكَّسَيْ الرأس، ولم يشأ أن يسأله مباشرة بل انتظر فترة بعد الظّهيرة التالي، عندما عَبَرَ أفراد العائلة البحيرة الصغيرة في القارب، وسألهم عمّا يفعلون بالحيوانات الجديدة. فأُخْبِرَ أنهم ذاهبون للعيش شمالاً لفترةٍ من الوقت. ولم يعطوه سبباً كما أنه لم يسألهم. ربّما كانت التّجارة أسهل هناك أو أنّ الوالد احتاج أن يَتَجَنَّب إشاعة وجوده في تلك النّاحِيَة. و"لفترة من الوقت"كانت بِدِقّةٍ ما رغبوا من الزّمن ليكونوا بعيدين. وبعد أيّامٍ قليلة،

Twitter: @ketab_n

وقصيرة بطريقة صادمة بالنسبة للكاتب العجوز، لَغْلَغَت الحاشية عبر الطّريق الضّيّق قرب المنزل ومن ثُمّ رَحَلَتْ آخِذَةً الطريق المستقيم بين الأشجار. وكان الوقت تقريباً فَجْراً، واستمع لوسيان في سريره الضيّق إلى رنين المقالي المكتوم في آخر كلّ هزّةٍ في العربة، بينما كان صوت آريا يتحدّث مع الصَّبيّ. وعندما خرج ووقف لمدّة عشر دقائق هناك، التقط بقايا رائحة دخان خفيفة والتي كانت قد عَلِقَت على قرميد منزله القاسي.

وبعد أن رحلوا لا بدّ أنّه بقي وحيداً عبر أسابيع القمر المظلمة وعبر مجيء الشّتاء ورحيله. ونامت حديقة الخضار تحت الثّلج، مُظْهِرَةً السّياج الهشّ وخيمةً بشكل هرم من العيدان والقماش فقط، حيث كان الرّحالة يخزّنون عدّتهم خلال الفصول الأخرى. وفي أحد الأيّام مشى عبر أرض الخضار القاسية والسريعة الكسر، ثمّ دخل فراغَ الخيمة المليء بالضّوء ووقف ببساطة داخله. لقد كانت حديقة آريا، وكان يراها عادةً في الصّباح الباكر. وكان الضّباب يرتفع ببطء فيجدها هناك على ركبتيها مُبْعِدَةً البزّاق ومُقتلعةً الأوراق الميّتة من الأرض الرّطبة والنّاعمة بعد أمطار اللّيل. بدا الأمر وكأنّها كانت هناك طوال اللّيل كي ترتفع الظّلمة أو بعدها أن يتبدّد الضّباب الأبيض، حتّى رآها لوسيان بشالها الأخضر.

وهو ما زال لوسيان سيغورا، بعد كلّ تلك السّنوات، بعد كلّ تلك التغيُّرات وحالات الهرب. وأدرك أنّه ما زال مسؤولاً أكثر أمام الصّبيّ الّذي كأنه منه أمام الوالد الّذي أضحاه. وبالرّغم من كلّ شيء لم يكن رجلاً أبويّاً. ولكن، هنا، حيث وقعت عاصفة الشّتاء المتأخّر عليه،

Twitter: @ketab_n

(وهو يحمي نفسَهُ بهذه الخيمة ـ الهرم الرقيقة) مع بصلاته وجيوبه المَخْفِيَّة والمتجلّدة تحت الثّلج والّتي قد تحيا ثانيةً في المُستقبل، رأى أنّه استخدم حياتَهُ واستغلّها. ووقف في الملاذ الّذي كانت آريا تمتلكه ثمّ مشى عائداً إلى المنزل وآثار الأقدام كانت آثارَهُ فقط؛ فحتّى آثار قدمي الطاووس المثلّثة الأصابع والدّافئة، والّتي كانت تُظهِرُ الأخضر تحت الثّلج، لم تعد موجودة.

ترمي البحيرةُ شعاعاً بين الأشجار. يأخذ لوسيان لحظةً ليلبس سترة الصّوف خاصّته بجهدٍ ويسير في ظلال السّنديان. ويشعر بأنّ الحياة الحاليّة هذه ليست حقيقيّة بدون الصّبيّ. رافايل حاجةٌ أساسيّة. ولقد تشاركا الأشياء بحذر، وهو قد تواصل مع بعض أجزاء حياته ليقدّمها إلى هذا الصبيّ الّذي يكاد يكون مُتَبَنّى. وفي المقابل، وصف رافايل الكسوف الّذي شاهَدُه مع أمّه قرب بليزانس والريح المريعة الّتي كانت أكثر رعباً من الظّلام. وما يريده لوسيان الآن هو العاصفة.

أحد أهمّ الأعمال الفنيّة العظيمة الّتي وقف أمامها كشابٍّ صغير هو "إيفان الرّهيب وابنه إيفان"، والّتي صوّرها الرّسّام إليا روبان. وتذكّر اللّوحةَ كلّ هذه السّنوات. الطّاغيةُ العجوز يحتضن ابنَهُ الّذي قَتَلَهُ عَرَضاً بضربةٍ على الرّأس ـ وعينا البطريرك على النّار، وكلُّ ما حوله مُستقبلٌ قاتم. وبعد أسبوع في مدينةٍ أخرى كانت هناك لوحة أخرى وكابوسٌ آخر: بطرُس الأكبر يستجوبُ ابنَهُ بتهمة التآمر، وفي عيني الوالد المعرفة اليقينة بذنب الشّابّ.

لن يدري أبداً ما سيحلُّ بأولاده. لن يعرف ما إذا كان رعاهم أو عَطَبَهم. فتاةٌ تسافر على طول وادي كاليفورنيا في شاحنة تجليدٍ تجاريّة

Twitter: @ketab_n

وهي غير قادرة على الكلام نتيجة خوفها أو شجاعتها، وهي تُنصتُ إلى كلّ كلمة يقولها الغريب الصّالح. لوسيت في باريس ترتشف الكحول مع عشيقها. الصّبيّ رافاييل سوف يلتقيني، وأنا امرأةٌ من العالم الجديد.... وماذا عن كوب؟ وماذا عن كلير؟ هل سيتحوّل هؤلاء الأولاد في مدنهم النّهائيّة إلى أبطال في حياتهم الخاصّة؟

لقد كنتُ أقرأ مؤخّراً في إحدى الدّراسات عن شيءٍ مُريب يتعلّق بوالدٍ مفقود. "وهكذا كنتُ آملُ أن يأتي شخصٌ ما، رجلٌ، ولْيَكُنْ والدي، عند حلول اللّيل سيقف أمام الباب أو على الممرّ الآتي من الغابة، بقميصه الأبيض العتيق اليوميّ والممزّق والمتّسخ بالوحل وبدمه. وهو لن يتكلّم من أجل أن يحافظ على ما تبقّى. لكنّه سيعرف ما لسْتُ أعلمُهُ".

آه، هذه الحاجةُ القديمة لأغنية أطفال وليس لعاصفة.

يخرجُ من ظلال الأشجار ويسيرُ على طول المرج حتّى يصل إلى حافّة الماء وحتّى يقف قرب أقدم قارب. ويتذكّر أنّه وجده في العشب ذاك الصّباح الأوّل في ديمو، معتقداً في البداية أنّ الدّعامات هي أضلع حيوان. يقع القارب في الوحلِ وتربطُهُ عقدةٌ راخية إلى شجرة. وغالباً ما كان رافايل يجذّف عبر البحيرة في الأمسيات بلا سبب إلاّ لتمجيد طاقته.

يدفعُ لوسيان القارب ويُحرّرُه من رفّ الوحل ويمشي بجانبه عبر مياه الغيم ويصعد إليه، ويُدير ظهره إلى الشّاطئ البعيد ويجذّف نحوه. وبهذه الطّريقة يستطيع السّفر بعيداً عن منزله، ولكن باستطاعته الإستمرار في رؤيته. ويقفزُ الماءُ بين الألواح الخشبيّة فيشعر بأنّه يركب هيكلاً عظميّاً طائفاً. هو قادرٌ على رؤية شكل منزله الصّغير في الغسق

Twitter: @ketab_n

المتسارع. يريد أن يقف ليرى كلّ شيء بوضوح، وفي تلك اللّحظة بالذات من تفكيره هذا، يتصدّع لوحٌ خشبيٌّ تحته وكأنّه العظمة الأساسيّة في الجسد الّتي تحْوي سلامةَ العقل والّتي تحمي الطّريق إلى المستقبل. يَثْبُتُ تحديقُهُ على هذا الضّوء الأخير النّافذ. بعض الطّيور تطير قُبيل الظّلمة وهي قريبة من انعكاساتها قدر الإمكان.

Twitter: @ketab_n

الفهرس

الجزء الأوّل: آنّا، كلير وكوب ٩

اليتيم ١١

الأحمر والأسود ٤٧

الغجري ٧٢

من رحم الماضي ١١١

الشَّخص المعروف سابِقاً بآنّا ١٥١

التَّعثُّر بإسْمٍ ١٦٧

الجزء الثاني: العائلة في العَرَبَة ١٨٥

المَنْزِل ١٨٧

آستولف ١٩٧

رحلة ٢٠١

صورتان فوتوغرافيّتان ٢٠٥

الجزء الثالث: المنزل في ديمو ٢٠٧

مارسِيّان ٢١٣

Twitter: @ketab_n

الوصول ٢١٥
العالَمُ الزّائع ٢١٨
الكلب ٢٢٣
السّريناد الزّائف والسّهَر ٢٣٠
رسالة غرام ٢٣٧
عَمَلُ اللّيْل ٢٤١
الصُّهْران ٢٤٣
غابة دي مازير ٢٥٥
الحقول ٢٦١
التّفكير ٢٦٦
الحرب ٢٦٨
الإجازة ٢٧٣
العودة ٢٧٧
قُلْ وداعاً ٢٨٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

عندما أرتمي بين ذراعيكَ، تسألني أحياناً في أيّ لحظة تاريخية أودّ أن أكون موجودة، فأقول باريس في الأسبوع الذي توفيت فيه كوليت... باريس الثالث من آب، ١٩٥٤. وفي خلال أيّام، أثناء مراسم دفنها، ستوضع آلاف الزّنابق بجانب قبرها. وأريد أن أكون هناك، أمشي في ذلك الشارع المليء بأشجار الزيزفون الرّطبة حتى أقف تحت شِقّتها الكائنة في الطبقة الثانية في منطقة "الباليه روايال". تاريخ أناس مثلها يملأ قلبي، فهي كانت كاتبة ترى أنّ فضيلتها الوحيدة هي الشّكّ بذاتها. (قبل يومين من موتها، قيل إنّ جان غانيت كان قد زارها ولم يسرق شيئاً. آه، يا للِّص الرائع!).